
رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
1000
معلومة
عن
الأندلس
الفردوس المفقود
د. أحمد سيد حامد آل برجل
دكتوراه في النحو والصرف والعروض
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة
دار الفضيلة



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



1000 معلومة عن الأندلس

الفردوس المفقود

د. أحمد سيّد حامد آل برجل
دكتوراه في النحو والصرف والعروض
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

دار الفضيلة

بطاقة فهرسة

أثناء النشر

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب المصرية

إدارة الشئون الفنية

آل برجل ، أحمد سيد حامد .

1000 معلومة عن الأندلس .. الفردوس المفقود / تأليف : د . أحمد سيد حامد آل برجل .

ط 1 - القاهرة : دار الفضيلة للنشر والتوزيع ، 2014 م

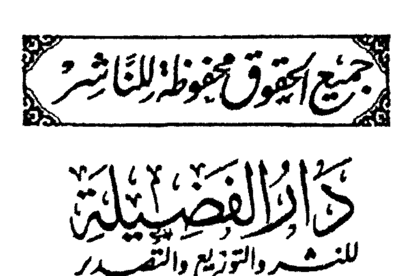
336 ص ، 24 سم

رقم الإيداع : 9265 / 2014 م

تدمك : 8 - 522 - 297 - 977 - 978

1- الأندلس .

أ – العنوان . 953.071



الإدارة : القاهرة - ٨ شارع عبد القاهر الجرجاني

مدينة نصر - ت : ٢٢٧١٣٨٦٥ - فاكس : ٢٢٧١٣٨٧٥

المكتبة : ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة ت: ٢٣٩٠٩٢٣١

الإمارات : دبي - ديرة . ص ب ١٥٧٦٥ ت ٢٦٥٧٢١١ فاكس ٢٦٥٧٢١٢

E-mail. Alfadeela @ Windowslive.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قصيدة أبي البقاء الرندي

في رثاء الأندلس

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ ... فَلا يُغَرُّ بِطِيبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ

هِيَ الأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتُهَا دُوَلٌ ... مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانُ

وَهَذِهِ الدُّنْيَا لا تُبْقِي عَلَىٰ أَحَدٍ ... وَلا يَدُومُ عَلَىٰ حَالٍ لَهَا شَانُ

دَهَى الْجَزِيرَةَ أَمْرٌ لا عَزَاءَ لَهُ ... هَوَى لَهُ أُحُدٌ وانْهَدَّ ثَهْلانُ

أَصَابَهَا الْعَيْنُ فِي الإِسْلامِ فَارْتَأَزَتْ ... حَتَّى خَلَتْ مِنْهُ أَقْطَارٌ وبُلْدَانُ

فَاسْأَلْ (بلنسية) مَا شَأْنُ (مرسية) ... وَأَيْنَ (شاطبة) أَمْ أَيْنَ (جَيَّانُ) ؟!

وَأَيْنَ (قُرْطُبَةُ) دَارُ الْعُلُومِ فَكَمْ ... مِنْ عَالِمٍ قَدْ سَمَا فِيهَا لَهُ شَانُ ؟!

وَأَيْنَ (حِمْصُ) وَمَا تَحْوِيهِ مِنْ نُزَهٍ ... وَنَهْرُهَا الْعَذْبُ فَيَّاضٌ وَمَلآنُ

قَوَاعِدٌ كُنَّ أَرْكَانُ الْبِلادِ فَمَا ... عَسَىٰ الْبَقَاءُ إِذَا لَمْ تَبْقَ أَرْكَانُ

تَبْكِي الْحَنِيفِيَّةُ الْبَيْضَاءُ مِنْ أَسَفٍ ... كَمَا بَكَى لِفِرَاقِ الإِلْفِ هَيمانُ

عَلَىٰ دِيَارٍ مِنَ الإِسْلامِ خَالِيَةٌ ... قَدْ أَقْفَرَتْ وَلَهَا بالْكُفْرِ عُمْرَانُ

حَيْثُ الْمَسَاجِدُ قَدْ صَارَتْ كَنَائِسَ مَا ... فِيهِنَّ إِلاَّ نَوَاقِيسٌ وَصُلْبَانُ

لِمِثْلِ هَذَا يَذُوبُ القلبُ مِنْ كَمَدٍ ... إِنْ كَانَ فِي الْقَلْبِ إِسْلامٌ وإِيمَانُ

أبو البقاء الرندي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله مالك الملك ، ومدبِّر الأمر .. الذي يبلو عباده بالخير والشرِّ فتنة ، ويستخلفهم في الأرض ؛ لينظر كيف يعملون ....

والصلاة والسلام على خاتم رسله وأنبيائه المبعوث رحمة للعالمين ، الذي أخبرنا أن ملك أمّته سيبلغ المشارق والمغارب ، وأن الدنيا ستفتح عليها ، وأن فتنتها بالدنيا هي الفتنة المَخُوفة .

وبَعْدُ ، فلا تزال نكبة المسلمين في الأندلس موضع استرجاع من المعاصرين ، كلما أصابتهم فاجعة أو نزل بساحتهم بأسٌ شديدٌ من أعدائهم يقتطع منهم بعض ما في أيديهم من الأوطان الإسلامية التي فتحها أسلافهم .

وقد شغف الناس في القديم والحديث بتاريخ العرب في الأندلس ، ووجدوا في قراءته والاستماع لأحاديثه لذة روحانية عجيبة لا يجدونها في سواه ، والسبب في ذلك يرجع إلى تقلّب أحداث الزمان ، وتداول الدهر بين شطريه ، بين صفاء لا يشوبه كدر ، وابتسام لا تحوم حوله جهومة ، وأمن لا يخالطه حذر ، وعزٍّ راسخ ، وقوة وسلطان ونعيم وملك كبير ، وفي أخرى همّ ونَصَب ، وخذلان وبلاء .

هي ألف معلومة عجيبة حقًّا ، بطولة وإقدام بين جرأة طارق، وإقدام صقر قريش ، وعزيمة عبد الرحمن الناصر ، وعبقرية المنصور ، وصبر حين البأس ، وتمسك بالعقيدة والسيف ، وثبات على الدين في موقف يغرّ فيه الشجاع ، بين رجولة تستهوي النفوس وتسحر العيون ، وخور رجالٍ ، وحقد وكذب ، وشره على حطام الدنيا الزائل ، وبيع نفوس من أجل دنيا زائلة ، بل واتخاذ العدو معينًا على مسلم متديّن من أجل الحفاظ على كرسي .

هي ألف معلومة بين عراكٍ ونضالٍ ، وصخب وإبداعٍ ، وعلمٍ وفنٍ ، فيها قعقعة السيوف ، وصريف الأقلام ، وصليل الرماح ، وصراع الملوك ، وقتال النصارى ، وصراع الأجناس والقبائل ، وعقائد ومذاهب ، ومدن وكور ، وبِيع ومساجد ، وأذان وناقوس ، ومدنيّة معجزة ، وصحائف نيِّرة ، وشعلة نور ، ومنارة هداية ، وجامعات

ومدارس وصلوات ، وأدب ، وشعر ، ونثر ، وزجل ، وموشحات ، وعمارة ، ونقوش ، وهندسة ، ورسومات ، وسقوط وانهيار تُسكب له العبرات ، وتشييع أندلس وبكاء شعراء وحسرات ، ومؤرخون يدونون خاتمة أمة حاسري الرءوس يرسلون الزفرات ، حقًا إنها ثمانمائة عامٍ قلّ أن تستطيع أمة سوى الأمة الإسلامية البقاء في مثلها ، فالمسلمون أمة علم وتنوير وإصلاح ، وليست أمة جهل وتدمير وخراب كما ذهب البعض .

إن سماحة المسلمين بالأندلس لا ينكرها إلا جاحد ، وفي آثار قرطبة ، وإشبيلية ، وغرناطة لا تزال ماثلة إلى اليوم من معجزات البناء والهندسة .

هي ألف معلومة كلفني بها **الأستاذ الفاضل / طه عاشور** استكمالاً لمسيرة العطاء ، وإفادة للقارئ الكريم ، وإضافة إلى الإصدارات السابقة في اللغة العربية والأزهر الشريف وغيرهما .

هي ألف معلومة تحدثت عن غصن الأندلس الرطيب ، من قيام دولة الإسلام إلى سقوط حضارتها واندحارها ،صدَّرتها بالكتابة عن سرّ اختيار الأندلس ، ثم الطريق إليها ، ثم دخولها وقيام الدولة الأموية فيها ، وإحلال الخلافة الإسلامية محل الولاية ، ثم أصعب فترات الأندلس على الإطلاق وهي « عصر ملوك الطوائف » ، وبعدها ظهور ابن تاشفين والمرابطين ثم الموحدين ، وأخيرًا مملكة « غرناطة » .

هي ألف معلومة اعتمدت فيها ، بعد عون الله عز وجل ، على أكثر من مائة مصدر ومرجع ، وثقت منها معلوماتي ، وقدمتُ لقارئي مادة موثقة تشفي غليله عن هذا الابن المفقود ، الذي أسأل الله عز وجل أن يعيده إلى حضن الأمة الإسلامية كما كان ، إنه رب ذلك والقادر عليه - اللهم آمين آمين - .

هي ألف معلومة نأخذ منها العظات والعبر وليس العيش في عباءة الماضي ، بل ننظر من مرآة الماضي لنرى فيها ما قد يحدث في الحاضر ، فالتاريخ يعيد نفسه ، والذي يشغلنا هو أن يعرف كل فرد في هذه الأمة دوره في الحياة ، وليعلم كلّ منّا أنه إنما هو على ثغرة عظيمة من ثغور الإسلام ، فليحذر كل الحذر على ألا يؤتى الإسلام من قِبله ، ولا يُلدغ الثانية كما لُدغ الأولى .

هي ألف معلومة بدئت بدخول الأندلس ، وختمت بماذا قدّم المسلمون في الأندلس للعالم أجمع .

واللهَ أسأل أن يجعل ما قدمنا وما نقدم نافعًا لنا جميعًا في ديننا ودنيانا .

والله من وراء القصد .

د . أحمد سيد حامد آل برجل
بني عدي - ناصر - بني سويف



سِرُّ الكتابة عن الأندلس

هذا الغصن الرطيب

(1) سرُّ الكتابة في التاريخ :

إنّ هذا الكون وما فيه يسير على سُنن ثابتة لا تتغيّر ولا تتبدَّل ، وإننا في حاجة لإدراك هذه القوانين ؛ كي نتمكن من استعمال نعم الله الكثيرة التي خلقها وسخّرها لنا في هذا الكون ، وكي نستطيع أن نحيا الحياة الصحيحة باستيعابنا للتجارب السابقة التي جرت على سُنَن الله في كونه ؛ ذلك أن هذه السنن لا تتغير ولا تتبدّل ولا تتحوَّل ، قال تعالىٰ : ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾ [فاطر : 43] .

★★★

(2) معنى التبديل والتحويل :

إنها قاعدة قرّرها الله عز وجل في كتابه ، وجعلها من سننه الثوابت التي يمكن للجميع إدراكها واستغلالها ، فتغيُّر الأمم وتبدُّل أحوالها ؛ سواء كان هذا التبديل من الضعف إلى القوة ، أو كان من القوة إلى الضعف ، فبحسب الطريق الذي تسلكه كل أُمّة تكون خاتمتها ، فالتاريخ يكرر نفسه بصورة عجيبة ، حتى لكأنَّكَ وأنت تقرأ أحداثًا حدثت منذ ألف عام أو يزيد ، تشعر وكأنها الأحداث نفسها التي تتمّ في هذا الزمن مع اختلاف في الأسماء والتفاصيل فحسب .

★★★

(3) انظر في أي طريق تسير لتعرف إلى أي مصير ستصل :

أنت حين تقرأ تاريخ الماضي تشعر وكأنك تقرأ أحداث المستقبل بتفصيلاتها ؛ لأن أحداث المستقبل هذه لن تتمّ إلاّ على هذه السُّنن التي جعلها الله في تبديل الأمم وتغيير أحوالها ، فالعاقل هو من لا يَبْدأ من الصفر فيُكرر ما فعله السابقون ، وإنما يقف أمام تاريخ هؤلاء فيسير على دَرْب مَنْ أصاب فأفلح ، ويبتعد عمّن أخطأ فخسر .

(4) تاريخ الأندلس خير دليل على التبديل والتحويل :

نعم ، إن تاريخ الأندلس لخير دليل على التبديل والتحويل ، فنحن حين نحاول أن نحلل هذا التاريخ سنجد صفحات قد مزّقها الزمن ، وأحداثًا قد علاها التراب أعوامًا وأعوامًا ، نحاول من خلالها أن نظهر ما حاول الكثيرون أن يطمسوه ، أو يخرجوه لنا في صورة باطل وهو حقّ ، أو في صورة حق وهو باطل ، وهي جريمة جدّ خطيرة .

★★★

(5) عُمْر تاريخ الأندلس :

إنّ عمر تاريخ الأندلس الإسلامي يشمل أكثر من ثمانمائة سنة كاملة من تاريخ الإسلام ، وتحديدًا من عام (92 هـ = 711 م) إلى (897 هـ = 1492 م) ؛ **أي** : ثمانمائة وخمس سنين هجرية ، هذا إذا أغفلنا التداعيات التي أعقبت ما بعد (897 هـ) وهي فترة ليست بالقليلة من تاريخ الإسلام ، ومن غير المعقول ألاّ يعرف المسلمون تفاصيل فترة شغلت في الزمن أكثر من ثُلثي التاريخ الإسلامي كله .

★★★

(6) لماذا نشغف بتاريخ الأندلس ؟

إن تاريخ الأندلس لطول فترته ، مرّ فيه كثير من دورات التاريخ التي اكتملت ثم انتهت ، فسنن الله في تاريخ الأندلس واضحة للعيان ، فقد قام فيه كثير من الدول وارتفع نجمها ، وسقطت دول كثيرة وأفل نجمها ، دولٌ قوية تفتح ما حولها من البلاد ، ودول أخرى ضعيفة لا تستطيع حماية أراضيها أو تعتمد على غيرها في حمايتها .

★★★

(7) الأندلس خير مثال للتناقض الواضح :

نجد في تاريخ الأندلس المجاهد الشجاع ، والخائف الجبان ، والتقي الورع ، والمخالف لشرع الرحمن ، والأمين على نفسه وعلى دينه وعلى وطنه ، والخائن لنفسه ودينه ووطنه ، يتساوى في كل ما سبق الجميع ؛ حاكم أو محكوم ، عالم وأميّ ، وكل هذه الأشياء تفيدنا في استقراء المستقبل للمسلمين .

(8) الأندلس وموقعة وادي بَرْبَاط :

إن في تاريخ الأندلس أحداثًا يجب أن نعرفها مثل موقعة وادي بَرْبَاط ، تلك الموقعة التي تُعَدُّ من أهم المعارك في التاريخ الإسلامي ، ليس لأنها الموقعة التي فُتحت فيها الأندلس فحسب ، ولكن لأنها تُشَبَّه في التاريخ بموقعتي اليرموك والقادسية ، ومع ذلك نجد الكثيرين من المسلمين من الأساس لا يعلم عن وادي بَرْبَاط شيئًا .

★★★

(9) الطريق إلى الأندلس طويل في حكم الزمان والمكان :

إن الطريق إلى الأندلس طويل في حكم الزمان ؛ لأن بيننا وبين عصره الأخير ما يزيد على خمسة قرون ، وبيننا وبين عصره الزاهر عشرة قرون . . . وطويل في حكم المكان ؛ لأن الأندلس قابع هناك خلف بحار وجبال ووديان وأنهار ، والمسافة بين النهر والنهر بَيْداء لا تقطعها إلا إذا كنت صبورًا كشجر الزيتون ، عفيًا كالجرانيت .

★★★

(10) الأندلس تاريخ طويل، وصمتٌ رهيب ، وأجدادٌ عبر الأثير :

إنّ كل شبر من شبه الجزيرة يقص عليك قصة طويلة تنبع من أعماق قلب الإنسان وتتردد في قلب أي إنسان ، وتاريخ لا يقارن إلا بتاريخ وادي النيل أو وادي الشام . . . ولأمر ما ، تحسّ دائمًا أن العصور هناك لا تموت . . . شيء من الخلود يتخلل كل شيء . . . . تصغي إلى الصمت الرهيب الذي يشمل كل شيء ، فيخيل إليك أن صوتًا من وراء المجهول يناديك ، وأن أرواح الألوف من أجدادك الذين عبروا بهذا المكان تخاطبك عبر الأثير .

★★★

(11) إسبانيا بين مصر والشام :

شعور غريب وأنت في إسبانيا ، تحس وكأنك في معبد الكرنك في مصر ، أو في قلعة الحصن أو حصن الأكراد في الشام ، ففي معبد الكرنك وأنت على ضفة بحيرة الآلهة ،

تتراءى في مياهها الصافية صور الأعمدة الباسقة ، وفي حصن الأكراد تحس وأنت ترسل البصر في ساحته الرهيبة ، وكأنك تسمع وقع حوافر الخيل وصليل السيوف .

★★★

(12) الأندلس وقصة حرق السفينة :

ومن الأحداث التي يجب أن يُلِمّ بها القارئ أيضًا قصة حرق السفينة التي يقال إنها حدثت في عهد طارق بن زياد رَحِمَهُ اللَّهُ : أحقيقة هي أم من نسج الخيال ؟ فكثير من الناس لا يعلم حقيقة وتفاصيل هذه القصة ، وكيف حدثت ، وإن كانت حدثت فما حقيقتها كاملة ؟ وإذا لم تكن قد حدثت فلماذا انتشرت كانتشار النار في الهشيم ؟ أسئلة لابد من الإجابة عنها بدقة متناهية .

★★★

(13) شخصيات نسمع عنها ولا ندري عنها شيئًا :

هناك شخصيات تغنّى بها التاريخ الإسلامي ، ولا نُلم بها إلا إلمامة يسيرة ، منها عبد الرحمن الداخل رَحِمَهُ اللَّهُ ذلك الرجل الذي **قال عنه المؤرخون** : « لولا عبد الرحمن الداخل لانتهى الإسلام بالكلية من بلاد الأندلس » ، كما يجب أن نتعرف على عبد الرحمن الناصر ، أعظم ملوك أوروبا في القرون الوسطى على الإطلاق ، ويوسف ابن تَاشِفين القائد الربّاني ، وأبو بكر بن عمر اللمتوني هذا المجاهد الذي دخل الإسلام على يده أكثرُ من خمس عشرة دولة أفريقية .

★★★

(14) دول لابد أن نعرفها :

ومن المهم أن نتعرف على دولة الموحدين ، وكيف قامت ؟ وكيف سقطت ؟ والمرابطين والظروف التي واجهتها ، وعصر ملوك الطوائف ، ومَنْ هم ملوك الطوائف . . . . أسئلة كثيرة تحتاج إلى أجوبة موجزة يسيرة .

★★★

(15) مواقع وغزوات لابد أن نميط اللثام عنها :

كما أنّ هناك مواقع عدّة وحروبًا شهيرة دارت على هذه البقعة من الأرض ، لا نعلم عنها إلا القليل ؛ منها موقعة وادي بَرْبَاط ، وموقعة الزَّلاَّقة وموقعة الأَرَك الخالدة ؛ تلك التي دُكّت فيها حصون النصارى ، وانتصر فيها المسلمون انتصارًا ساحقًا ، وموقعة العِقَاب تلك التي مُني فيها المسلمون بهزيمة ساحقة ، والتي **قال عنها المؤرخون** : « بعد موقعة العقاب لم يُرَ في الأندلس شاب صالح للقتال بعدها » .

★★★

(16) المآسي التي تعرض لها المسلمون في الأندلس :

كما يجب أن نوضح للقُرّاء المآسي التي ذاقها المسلمون في الأندلس ، مثل مأساة بَلَنسِيَة والتي قُتل فيها ستون ألف مسلم في يوم واحد ، ومأساة أُبَذَة التي قُتل فيها ستون ألف مسلم آخرون في يوم واحد ، ومأساة بَرْبُشْتَر والتي قتل فيها أربعون ألف مسلم في يوم واحد ، وسُبِيَتْ سبعة آلاف بِكْر من فتيات بَرْبُشْتَر .

★★★

(17) الأندلس الفردوس المفقود :

إن قصة الأندلس قصة مؤلمة ؛ لأننا نستعرض تاريخًا ومجدًا زاهرًا ، ونحن نعلم أنه قد انتهى وضاع ، إلا أنه لا مناص عن قراءة صفحات هذا المجد السليب ، وهذا التاريخ الثري ؛ لنقرأ كيف تقام الأمجاد ؟ وكيف تضيع ؟ فلئن كنا نسعى لنهضة أمتنا ورفعتها ، فيجب أن نسعى ونحن نعلم وندرك خبرة الماضي خير من أن نسعى ولا ماضي لنا ولا خبرة .

★★★

(18) الأندلس كائن حيٌّ لابد أن تراه كاملًا :

إن الأندلس ليس آثارًا ، إنه ليس جامع قرطبة ، وقصر إشبيلية ، ومنارة الخبرالْدا ، وحمراء غرناطة ، إنه كائن لا يزال حيًا ، لازال يتنفس ، إنه أرض الأندلس ،

وشجره ، وجباله ، وصخوره ، ووديانه ، وبلدانه . . . إنه كائن حي كامل ، لابد أن تراه كاملًا لتعرف من هو .

★★★

(19) لكلٍّ سيد حقّه من التكريم :

إنّ الأندلس سيد كريم ، وحقّه علينا عظيم ، وأقل حقوق هذا السيد علينا أن نمنحه من وقتنا - إذا شئنا زيارته - ما هو جدير به ، وألا ننصرف عنه إلا إذا أذن لنا ، أو أذنت لنا قلوبنا ، وما أظن أنها تأذن إلاَّ على رغمها ، فإن الأندلس حبيب ، حبيب غادرناه من زمن طويل ، واللقاء بيننا وبينه لقاء مسعد تستريح إليه القلوب .

★★★

(20) الأندلس جمعت كل صفات المدن العالمية :

قال أبو عبيد البكري في المنتقى من فرحة الأندلس : قالوا : الأندلس شامية في طيبها وهوائها ، يمانية في اعتدالها واستوائها ، هنديّة في عطرها وذكائها ، أَهْوازِيّة في عظيم جباياتها ، صينية في جواهر معادنها ، عدنيّة في منافع سواحلها ، وفيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة وحاملي الفلسفة .

★★★

(21) علاقة الأندلس بالإقليم الشامي :

قال أبو عامر السالمي في كتابه المسمى : (درر القلائد وغرر الفوائد) : « الأندلس من الإقليم الشامي ، وهو خير الأقاليم ، وأعدلها هواء وترابًا ، وأعذبها ماء ، وأطيبها هواء وحيوانًا ونباتًا ، وهو أوسط الأقاليم ، وخير الأمور أوسطها » .

★★★

(22) الأندلس بلد كريم البقعة :

قال الشيخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي في « الجذوة » : « الأندلس عند الحكماء بلد كريم البقعة ، طيب التربة ، خصب الجناب ، مُنْبَجِس بالأنهار الغزار

والعيون العذاب ، قليل الهوامّ ذوات السموم ، معتدل الهواء والجو والنسيم ، ربيعه وخريفه ومشتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال ، تتصل فواكهه أكثر الأزمنة وتدوم متلاحقة غير مفقودة . . . فمادة الخيرات بالبلد متمادية في كل الأحيان .

★ ★ ★

(23) الأندلس كالعُقَاب :

لما دخل الأندلس أمير المسلمين عليّ ابن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني ملك المغرب والأندلس ، وأمعن النظر فيها ، وتأمل وصفها وحالها **قال** : إنها تشبه عقابًا مخالبه طليطلة ، وصدره قلعة رباح ، ورأسه جَيّان ، ومنقاره غرناطة ، وجناحه الأيمن باسط إلى المغرب ، وجناحه الأيسر باسط إلى المشرق .



الفصل الأول

الطريق إلى الأندلس

(24) المقصود ببلاد الأندلس :

بلاد الأندلس هي اليوم دولتا إسبانيا والبرتغال ، أو ما يسمى شبه الجزيرة الأيبيرية ، ومساحتها (مجموع الدولتين) ستمائة ألف كيلومتر تقريبًا ؛ **أي** : أقل من ثُلثي مساحة مصر .

★★★

(25) دَرْب الزقاق :

يفصل شبه الجزيرة الأندلسية عن المغرب مضيق أصبح يُعرف منذ الفتح الإسلامي بمضيق جبل طارق ، ويُسَمِّيه الكُتّاب والمؤرخون العرب باسم (درب الزقاق) وهو بعرض 12,8 كم بين سبتة وجبل طارق .

★★★

(26) جغرافية الأرض :

تقع شبه الجزيرة الأيبيرية في الجنوب الغربي من أوروبا ، على شكل مثلَّث من الأرض ، يضيق كلما اتجهنا نحو الشرق ، ويَتَّسع كلما اتجهنا إلى الغرب ، وتتصل في الشمال بفرنسا (بلاد الفرنجة) بواسطة سلسلة جبلية تعرف بجبال البرينيه (جبال البرتات) .

★★★

(27) جزيرة الأندلس :

باستثناء ناحية الشمال التي تتصل فيها الأندلس بفرنسا وجبال البرتات ، فإن المياه تحيط بها من كل جانب ؛ مما جعل العرب يطلقون عليها (جزيرة الأندلس) على

سبيل التجوُز ، فالبحر المتوسط يحيط بها من الشرق والجنوب الشرقي ، ويحيط المحيط الأطلنطي بها من الجنوب الغربي والغرب والشمال .

★ ★ ★

(28) الأندلس امتداد لقارة إفريقيا في القارة الأوروبية :

إن جبال البرينيه التي تمثِّل فاصلاً بين فرنسا وإسبانيا تجعل الجزيرة ، وكأنها تُوَلِّي وجهها عن أوروبا ، فيما تتجه به إلى المغرب ، وهذا ما أجمع عليه الجغرافيون المسلمون الذين عدُّوها امتدادًا لإفريقيا ، وليست رقعة من القارة الأوروبية ، والمعروف أن شبه الجزيرة تتشابه مع المغرب في كثير من المعالم النباتية والحيوانية ، وبخاصة منطقتا سَبْتَة وطَنْجَة .

★ ★ ★

(29) سبب التسمية :

وعن سبب تسميتها بالأندلس ، فقد كانت هناك بعض القبائل الهمجية التي جاءت من إسكندنافيا من بلاد السويد والدنمارك والنرويج وغيرها ، وهجمت على منطقة الأندلس وعاشت فيها فترة من الزمن .

ويقال إن هذه القبائل جاءت من ألمانيا ، وأنها كانت تُسمى قبائل الفندال أو الوندال باللغة العربية ، فُسميت هذه البلاد بـ (فانداليسيا) على اسم القبائل التي تعيش فيها ، ومع الأيام حُرِّف إلى (أندوليسيا) ثم (الأندلس) .

★ ★ ★

(30) الهمجية والوحشية تجوب الأندلس قبل قدوم المسلمين :

كانت قبائل الفندال تتسم بالوحشية ، و (Vandalism) في اللغة الإنجليزية تعني : همجية ووحشية وتخريبًا ، وتعني - أيضًا - أسلوبًا بدائيًا أو غير حضاري ، وهو المعنى والاعتقاد الذي رسخته قبائل الفندال ، وقد خرجت هذه القبائل من الأندلس ، وحكمتها طوائف أخرى من النصارى عُرفت في التاريخ باسم قبائل القوط (Goths) أو القوط الغربيين ، وظلّوا يحكمون الأندلس حتى قدوم المسلمين إليها .

(31) مثلث الأندلس :

الأندلس مدينة حصينة ، ومعاقلها منيعة ، وقلاعها حريزة ، ومصانعها جليلة ، ولها البر والبحر ، والسهل والوَعْر ، وشكلها مثلث ، **وهي معتمدة على ثلاثة أركان** : **الأول** : هو الموضع الذي فيه صنم قادس المشهور بالأندلس ، **والثاني** : شرقي الأندلس بين مدينة تُرْبُونة وبُرْذِيل ، **والثالث** : هو ما بين الجوف والغرب من حيز جِلِيِّقية حيث الجبل الموفي على البحر ، وفيها الصنم العالي المشبه بصنم قادس ، وهو الصاعد إلى إحدى البلاد البريطانية .

★★★

(32) الأندلس أندلسان :

والأندلس أندلسان من حيث اختلاف هبوب رياحها ومواقع أمطارها وجريان أنهارها : **أندلس غربي وأندلس شرقي** ؛ فالغربي منها ما جرت أوديته إلى المحيط الغربي ويمطر بالرياح الغربية ، والشرقي منها هو المعروف بالأندلس الشرقي الأقصى ، وتجري أوديته إلى الشرق ، ويمطر بالرياح الشرقية .

★★★

(33) الأمم التي سكنت الأندلس :

نقل الحميري عن الرازي في (الروض المعطار) أنّ أول من سكن الأندلس على قديم الأيام ، فيما نقله الإخباريون ، من بعد عهد الطوفان ، قوم يعرفون بالأندلش بهم سُمّي المكان ، فعمروها وتناسلوا فيها وتداولوا ملكها دهرًا على دين التمجس والإهمال والإفساد في الأرض ، ثم أخذهم الله بذنوبهم ، وبقيت خالية فيما يزعمون مائة سنة وبضع عشرة سنة .

★★★

(34) الأندلس والأفارقة :

وبعد هذه المدّة ابتعث الله لعمارتها الأفارقة الذين احتلوا جزيرة قادس ، فأصابوا

الأندلس وقد أمطرت وأخصبت ، فجرت أنهارها ، وانفجرت عيونها ، وحُييت أشجارها ، فنزلوا الأندلس مغتبطين ، وسكنوها معتمرين ، وتوالدوا فيها فكثروا واستوسعوا في عمارة الأرض ، ونصَّبوا من أنفسهم ملوكًا على ديانة من قبلهم من الجاهلية ، وظلّوا مائة وسبعة وخمسين عامًا إلى أن أهلكهم الله تعالى .

★★★

(35) الأندلس وعجم رومة :

ثم صار مُلك الأندلس بعد الأفارقة إلى عجم رومة وملكهم إشبان بن طيطش ، وباسمه سميت الأندلس إشبانية ، وذكر بعضهم أن اسمه أصبهان فأحيل بلسان العجم ، وكان إشبانية اسمًا خالصًا لبلد إشبيلية الذي كان ينزله إشبان هذا . ثم غلب الاسم بعده على الأندلس كله ، ولما استوت له مملكة الأندلس بأسرها ، ودان له من فيها ، هدم مدينة طالقة ، ونقل رخامها وآلاتها إلى مدينة إشبيلية ، فاستتم بناءها ، واتخذها دار مملكته ، وكثرت جموعه ، ثم غزا إيلياء (القدس الشريف) منطلقًا من إشبيلية بعد سنتين من ملكه ، وخرج إليها في السفن فقتل فيها من اليهود مائة ألف ، واسترقّ مائة ألف ، ونقل رخامها وآلاتها إلى الأندلس .

★★★

(36) غرائب مغانم الأندلس :

ذكر الرازي في (الروض المعطار) أن الغرائب ، التي أصيبت في مغانم الأندلس أيام فتحها ، كـ « مائدة سليمان عليه السلام » التي ألفاها طارق بن زياد بكنيسة طليطلة وقليقلة الدر التي ألفاها موسى بن نصير بكنيسة ماردة ، وغيرها من طرائف الذخائر إنما كانت مما صار لصاحب الأندلس من غنيمة بيت المقدس .

★★★

(37) إشبان والخضر عليه السلام :

قال صاحب الروض المعطار : قال ابن حيّان في المقتبس : ذكر رواة العجم أن الخضر عليه السلام وقف بإشبان المذكور وهو يحرث الأرض بفُدُن له أيام حراثته ، **فقال له :**

يا إشبان ، إنك لذو شأن ، وسوف يحظيك زمان ، ويعليك سلطان ، فإذا أنت غلبت على « إيليا » فارفق بذرية الأنبياء ، **فقال له إشبان** : أساخر بي - رحمك الله - أنى يكون هذا منّي وأنا ضعيف مُمْتَهن حقير فقير ليس مثلي ينال السلطان ؟! **فقال له** : قد قَدّر ذلك فيك مَنْ قَدّر في عصاك اليابسة ما تراه ، فنظر إشبان إلى عصاه ، فإذا بها قد أورقت ، فترك الامتهان من وقته ، وداخل الناس وصحب أهل البأس منهم ، وسما به جهده فارتقى في طلب السلطان حتى أدرك منه عظيمًا ، وكان ملكه عشرين سنة ، وتمادى ملك الإشبانيين بعده إلى أن ملك منهم الأندلس خمسة وخمسون ملكًا .

★★★

(38) الأندلس والبشتولقات :

ودخل على هؤلاء الإشبانيين من عجم رومة أمة يُدْعون البشتولقات أو الشبونقات أو البشترلقات ، وملكهم طلبوش بن بيطه وذلك زمن بعث المسيح ابن مريم عليه السلام حيث أتوا الأندلس من قبل رومة ، وكانوا يملكون إفرنجة معها ، ويبعثون عمالهم إليها فاتخذوا دار مملكتهم بالأندلس مدينة ماردة ، واستولوا على مملكة الأندلس ، واتّصل ملكهم بها مُدَّة إلى أن ملك منهم سبعة وعشرون ملكًا .

★★★

(39) الأندلس والقوط :

ثم دخل على هؤلاء البشتولقات أمة القوط مع ملك لهم ، فغلبوا على الأندلس ، واقتطعوها من يومئذ من صاحب رومة ، وتفرّدوا بسلطانهم ، واتخذوا مدينة طُلَيْطلة دار مملكتهم ، وأقرّوا بها سرير ملكهم .

★★★

(40) أصل النصرانية في مملكة الأندلس :

كان عيسى عليه السلام قد بعث الحواريين في الأرض يَدْعون الخلق إلى ديانته ، فاختلف الناس عليه ، وقتلوا بعضهم ، واستجاب لهم كثير منهم ، وكان من أسرعهم إجابة لمن جاءه من هؤلاء الحواريين دخشوش أو خنشوش أو خشندش ملك القوط ،

فَتَنَصَّر ، ودعا قومه إلى النصرانية ، وكان من صميم أعاظمهم وخير من تنصّر من ملوكهم ، وأجمعوا على أنّه لم يكن فيهم أعدل منه حكمًا ، ولا أرشد رأيًا ، ولا أحسن سيرة ، ولا أجود تدبيرًا ، فكان الذي أصّل النصرانية في مملكته .

★★★

(41) عِدّة ملوك القوط بالأندلس :

وقع في تواريخ العجم أن عِدّة ملوك هؤلاء القوط بالأندلس ، من عهد أتاناونيوس الذي ملك في السنة الخامسة من مملكة فلبش القيصري ، لمُضِيّ أربعمائة وسبع من تاريخ الصفر المشهور عند العجم إلى عهد لُذَرِيْق آخرهم الذي ملك في السنة التاسعة والأربعين وسبعمائة من تاريخ الصفر ، وهو الذي دخلت عليه العرب فأزالت دولة القوط ، ستة وثلاثون ملكًا ، وأنّ مدة أيام ملكهم بالأندلس ثلاثمائة واثنتان وأربعون سنة .

★★★

(42) القوط والإمبراطورية الرومانية :

وفي أواخر القرن الرابع الميلادي استطاع القوط الغربيون بقيادة ألاريك أن يسيطروا على مصائر القسم الغربي من الإمبراطورية الرومانية ، بما قدمُّوه من خدمات أوصلت الإمبراطور الروماني تيودوسيوس إلى العرش ، فلما مات الإمبراطور عام (395 م) أصبح ألاريك أقوى قائد في غرب أوروبا ووسطها ، فحاول السيطرة على روما نفسها - عاصمة الإمبراطورية الرومانية - ونجح في هذا فعلاً عام (410 م) في مأساة لا يزال يتذكرها التاريخ الأوروبي .

★★★

(43) قبائل الوندال تسيطر على الجزيرة بأكملها :

وفي هذه الفترة كانت الدولة الرومانية قد سمحت لقبائل الوندال الهمجية - التي تستوطن شبه الجزيرة الأيبيرية - بالاستقرار في منطقة الشمال الغربي من الجزيرة ؛ بشرط ألا تُهَدِّد استقرار المناطق الأخرى ، غير أن كثرة القبائل وهمجيتها وضعف

الدولة الرومانية ، جعل هذه القبائل تسيطر على كل الجزيرة - تقريبًا - وتهدِّد بلاد الغال - فرنسا الآن - وتمارس تخريبًا همجيًا كبيرًا .

★★★

(44) القوط الغربيون وقبائل الوندال :

ثم انتهى غبار الصراع في روما بموت ألاريك ، فخلفه أطاووف في زعامة القوط الغربيين ، وتطورت الأحوال إلى أن أقرّت الإمبراطورية الرومانية أطاووف في جنوب بلاد الغال، ثم سلّطته على قبائل الوندال ، وفي أثناء تراجع الوندال كانوا يخرّبون ما بقي من حضارة الرومان في شبه الجزيرة إلى أن انتصر القوط الغربيون وأحكموا سلطانهم على الجزيرة ؛ خاصة في عهد الزعيم القوي (واليا Valia) .

★★★

(45) استقلال القوط عن الإمبراطورية الرومانية :

لم يلبث الأمر كثيرًا حتى تضعضعت الإمبراطورية الرومانية ؛ مما جعل القوط الغربيين يستقلّون عن الإمبراطورية بحكم شبه الجزيرة ، واتّخذ (يوريك Euric) لقب الملك في عام (467 م) ، وهو يُعَدّ المؤسس الحقيقي لدولة القوط الغربيين الذين سيُعرفون باسم (القوط) في كل مراحل التاريخ اللاحقة .

★★★

(46) القوط والمذهب الأريوسي :

وكان القوط مسيحيين ولكن على المذهب الأريوسي ؛ الذي يقول بطبيعتين منفصلتين للمسيح ، في حين أن الكاثوليك والبابوية يقولون بطبيعة واحدة للسيد المسيح إلهية وإنسانية في آن واحد ، وكان رجال البابوية يعملون نشطين للقضاء على الآريوسية ، وكانت رسلهم منتشرة في إسبانيا ، حتى استطاعوا إقناع الملك ركاريدو بترك الآريوسية والتحول عن الكاثوليكية ، وكانت ديانة معظم السكان الأصلية في شبه الجزيرة ، وقد تم ذلك وتقرر نهائيًا في المجمع الديني الثالث لمدينة طليطلة سنة (589 م) .

★★★

(47) اختلاف الأبناء على أبيهم وصل به إلى العزل :

وفي سنة (687 م) صار الملك إلى واصبا ، وكان رجلاً قادرًا عاقلاً ، وخلف واصبا ملك يسمى ويفيزا ويسميه العرب غيطشة ، وقد اختلف عليه أبناؤه ، واضطرب الحكم بيده فثار به الكونت رودريجو حاكم قرطبة وعزله وتولى مكانه ، وكان غيطشة قد أصدر قوانين ترفع الاضطهاد عن اليهود ، فأعادها لذريق وحكم بالعنف والقهر ، وكانت النتيجة أن أبناء غيطشة وأهمهم إجيكا ويسميه العرب أخيلا ، وأوباس الذي يسمى عباس اتصلوا بالعرب .

★★★

(48) طارق بن زياد من أبطال تاريخ اليهود القومي :

لما اتصل أبناء غيطشة بالعرب ، ووفد منهم وفد ليلقى طارق بن زياد ووعدوه بالمعاونة ، **وهناك أيضًا من يقولون** : إن اليهود كذلك أرسلوا وفدًا ليقابل طارق بن زياد ويستحثه على فتح الأندلس ، ولهذا فإن مؤرخي اليهود يعتبرون طارق بن زياد بطلاً من أبطال تاريخهم القومي .

★★★

(49) إسبانيا والاضطرابات والفساد قبل الفتح الإسلامي :

كانت إسبانيا قبل الفتح الإسلامي تشكو الاضطرابات والفساد الاجتماعي ، والتأخر الاقتصادي ، وعدم الاستقرار ؛ نتيجة السياسة ونظام المجتمع السائد ، والسلطة الفاسدة ، لكن هذا لا يعني أن هذه السلطة لم تكن قادرة على الدفاع ، كما لا يعني انعدام قوتها السياسية والعسكرية ، بل كان بإمكانها أن تَصُدَّ جيشًا مهاجمًا وتُحاربه وتقف في وجهه ؛ لأن القوط كانوا قد أقاموا دولة اعتبرت من أقوى الممالك الجرمانية في أوائل القرن السادس الجرماني ، وبقيت تتمتع بقوة عسكرية مُدَرّبة وقوية ، تقارع الأحداث وتقف للمواجهات .

★★★

(50) سرُّ انضمام الكونت يليان إلى أولاد غيطشة :

تذكر المراجع الغربية قصة ابنة الكونت يليان ، التي أرسلها إلى بلاط لذريق ، فاعتدى هذا عليها ، فكان ذلك دافعًا لأبيها إلى الانضمام إلى جماعة أنصار بيت غيطشة أولاً ثم إلى العرب ثانيًا .

★★★

(51) الكونت يليان يتصل بالعرب :

بعض المصادر تقول : إن يليان تجشم عناء الرحلة إلى القيروان ليلقى موسى ويقنعه ، فرأى موسى أن يختبر صدقه بتكليفه بالقيام بغارة على الأندلس ، ففعل وعاد بغنائم وأسرى ، فاقتنع موسى وأذن لطارق في البدء في الفتح مستعينًا بـ (يليان) .

★★★

(52) القوط وعامة الشعب :

إن القوط اعتبروا أنفسهم دائمًا طبقة ممتازة لا صلة لها بعامة الشعب ، وغالبية مكونة من الأيبريين الرومان ؛ **أي** : أهل البلاد الأصليين الذين أخذوا بمظاهر الحياة الرومانية .

★★★

(53) الرومان وتقسيم إسبانيا :

ويرجع الفضل إلى الرومان في تقسيم إسبانيا إداريًا وإنشاء الطرق الكبرى ، وتعمير المدن الرئيسة ، التي كانت كلها مراكز للحكم الروماني من **مثل** : برشلونة ، وطرطوشة ، وطليطلة ، وماردة ، وقرطبة ، وإشبيلية ، التي عرفت باسم هيسياليا ، ومنها جاء اسم إسبانيا الذي أطلق على البلاد فيما بعد .

★★★

(54) مدينة برشلونة دار مُلْك مَلِك إفرنجة :

هي مدينة للروم بينها وبين طَرّكُونة خمسون ميلاً ، وهي على البحر ، ومَرْسَاها تَرْتُن لا تدخله المراكب إلا عن معرفة ، وبها رَبَضٌ ، وعليها سورٌ منيع ، والدخول

إليها والخروج عنها إلى الأندلس على باب الجبل المُسَمى بهيكل الزُّهرة ، ويسكنها ملك إفرنجة ، وهيدار ملكهم ، وله مراكب تسافر وتغزو ، وللإفرنج شوكة لا تُطاق .

★ ★ ★

(55) طُرْطُوشَة وخشب الصنوبر :

هي مدينة في سفح جبل ، ولها سور حصين ، والمسافة من بلنسية إلى طُرطوشة مائة وعشرون ميلاً ، وبها أسواق وعمارات وضياع وفَعَلة ، وإنشاءٌ للمراكب الكبار من خشب جبالها ، وبجبالها خشب الصنوبر الذي لا يوجد له نظير في الطول والغلظ ، ومنه تُتخذ الصواري والقُرى ، وهو خشب أحمر صافي البشرة بعيد التغيُّر ، لا يفعل فيه السوس ما يفعله في غيره من الخشب .

★ ★ ★

(56) طُلَيْطُلَة دار المُلك بالأندلس حين دخلها طارق بن زياد :

هي مركز لجميع بلاد الأندلس ، وهي عظيمة القطر ، كثيرة البشر ، وهي كانت دار المُلك بالأندلس حين دخلها طارق بن زياد ، وهي حصينة ، لها أسوار حسنة ، وقصبة حصينة ، وهي أزلية من بناء العمالقة ، وهي على ضفَّة النهر الكبير ، وقلّ ما يُرَىٰ مثلها إتقانًا وشماخة بنيان ، وهي عالية الذرى حسنة البقعة ، ولها قنطرة من عجائب البنيان .

★ ★ ★

(57) دخول العرب الأندلس كان إنقاذًا لها على الحقيقة :

كان آخر الملوك الذين حكموا من القوط هو وردريق أو لذريق ، وكان رجلاً مستبدًا طاغية ، ولكن التعصب الديني فيما بعد جعل منه بطل إسبانيا ، وعندما دخل المسلمون إسبانيا كان الجميع من أهل البلاد وثنيين أو مسيحيين بالاسم ، وكانوا جميعًا يئنون من وطأة القوط وظلمهم وضرائبهم ، وكانت المدن في اضمحلال وانهيار ، فكان دخول العرب إنقاذًا لها على الحقيقة .

★ ★ ★

(58) القوط والوندال :

القوط إحدى القبائل البربرية التي هبطت من شمال أوروبا ، وكانوا يسكنون شواطئ البلطيق الجنوبية ، وقبائل الوندال كانت تسكن على ضفاف نهر (أودَر) ، وهناك من المشابهات في الدين والعادات والأخلاق والتقاليد ، ما يدل على أنهما يرجعان في الأصل إلى شعب أو جنس واحد .

★ ★ ★

(59) الشعب الإسباني في حالة من البؤس قبيل الفتح الإسلامي :

أما الشعب فقد كان في حالة يرثى لها من الحرمان والبؤس ، يعاني أمرّ ضروب الظلم والعسف والإرهاق ، ويُختص وحده دون الطبقات الممتازة بأعباء المغارم والضرائب الفادحة ومشاق العمل ، والسُّخرة في ضِياع الأشراف والأحبار ، وتسلبه فروض العبودية والرق ، وعليه عبءُ الحرب والدفاع عن الوطن .

★ ★ ★

(60) رجال الدين في إسبانيا قبيل الفتح الإسلامي :

كان رجال الدين يتمتعون بأعظم قسط من السلطان والنفوذ ؛ ذلك أن القوط كانوا أتقياء مؤمنين رغم خشونتهم ، وكان للأحبار عليهم أيّما تأثير ، وقد استطاعوا أن يوجهوا القوانين والنظم ، وأن يصوغوا الحياة العقلية والاجتماعية وفقًا لمُثُل الكنيسة وغاياتها .

ثم استغلوا هذا النفوذ في إحراز الضياع وتكديس الثروات ، واقتناء الزُّراع والأرقاء .

★ ★ ★

(61) الجيوش الإسبانية قبيل الفتح الإسلامي :

كانت الجيوش الرومانية ، قبل دخول الإسلام لإسبانيا ، قد فقدت وحدتها وروحها القومية وقوتها المعنوية لتكوينها من الرعايا الأجانب والمرتزقة ؛ فقد كان قوام الجيش

من الزُّراع شبه الأرقاء واليهود ، وكذلك فعل القوط بعد أن نعموا بالسلم بعد مشاق التجوال والغزو ، فقد اعتمدوا في ملكهم الجديد على هذا الجيش الذي تموج صفوفه بجماعات مضطهدة ناقمة على سادتها .

★★★

(62) الجيش بين الأرقاء وشبه الأرقاء والأحرار :

ولا ريب أنَّ شبه الأرقاء كانوا في الجيش أكثر من الأحرار ، وهذا يعني أن الدفاع عن الدولة كان يعهد به إلى أولئك الذين يؤثرون ممالأة العدو على الزود عن ظالميهم .

★★★

(63) القوط يفقدون صفاتهم الحربية ويؤثرون السِّلم :

أما القوط أنفسهم فقد فقدوا منذ زمن بعيد خلالهم الحربية القوية ، وركنوا إلى حياة النعماء والدعة ، وفتت في عزائمهم وشجاعتهم نعومة الجو وترف العيش ، ولم يعودوا بعد أولئك الغزاة الأشداء الذين أخضعوا رومة ، وتوغلوا فيما بين الدانوب والمحيط ، بل كان خلفاء ألاريك يحتجون بصخور البرنيه غارقين في سبات السلم ، لا يعنون بتحصين مدينة ، ولا يعبأ شبابهم بتجريد سيف .

★★★

(64) موقف الكنيسة من اليهود في إسبانيا قبيل دخول الإسلام :

كان يهود الجزيرة كتلة كبيرة عاملة ، ولكنهم كانوا موضع البغض والتعصب والتحامل ، يعانون أشنع ألوان الجور والاضطهاد ، وكانت الكنيسة منذ اشتدّ ساعدها ونفوذها تحاول تنصير اليهود ، وتتوسل إلى تحقيق غايتها بالعنف والمطاردة ، ففي عصر الملك سيزبوت أو سيسفوط فُرِض التنصير على اليهود أو النفي أو المصادرة ، فاعتنق النصرانية كثير منهم كرهًا ورياءً (سنة 616 م) ، ثم توالت عليهم مع ذلك صنوف الاضطهاد والمحن ، فركنوا إلى التآمر وتدبير الثورة .

★★★

(65) يَدُ البطش والمطاردة تعصف باليهود أيّما عصف قبيل دخول الإسلام :

اعتبرت الكنيسةُ اليهودَ خوارجَ على الدولة يأتمرون بسلامتها ؛ لأنهم ارتدوا عن النصرانية التي اعتنقوها ، فقرر الملك إجيكا أن ينزع أملاكهم في سائر الولايات الإسبانية ، وأن تحول إلى جانب العرش ، وأن يشردوا ويقضى عليهم بالرق الأبدي للنصارى ، وأن يهبهم الملك عبيدًا لمن يشاء ، وألا يسمح لهم باسترداد حرياتهم ما بقوا على اليهودية ، وأن يُحرر أرقاؤهم من النصارى ويمنحوا بعض أملاكهم ، وأن ينزع أبناؤهم منذ السابعة ويربوا على دين النصارى ، وألا يتزوج عبد يهودي إلا بجارية نصرانية ، ولا تتزوج يهودية إلا بنصراني .

طبقات المجتمع الأندلسي عند مقدم المسلمين

(66) طبقة النبلاء :

كان معظمهم من القوط ، وكانوا يُشكِّلون مع رجال الدين الطبقات العليا ، وقد حازوا ضياعًا واسعة ، وآلت إليهم ثلثا الحيازات الرومانية ، بينما احتفظ الرومان بالثلث وتمتعوا إلى جانب ذلك بامتيازات قضائية ، وشاركوا في عضوية مجمع طُلَيْطُلة الديني والمجلس الملكي ، وكان من حقّ الذين يرجعون إلى أسر غير عريقة أن يرفعوا إلى درجة النبالة ، إذا أظهروا مواهب معينة ، فإن الأرستقراطية بدت في أواخر القرن السابع وراثية .



(67) طبقة الأحرار :

كانت تَفْصِل طبقة الأحرار عن النبلاء هُوّة واسعة ، وكان منهم الحرفيون والتجار ، ولهم نقابات مهنية ، يعانون من الضرائب المجحفة مما حمل عددًا كبيرًا منهم إلى الهروب إلى الريف ، وكان في الريف حيازات صغيرة كثيرة لم تلبث أن أُدمِجت في الضياع الكبيرة .

★ ★ ★

(68) رجال الدين :

أُعفيت أراضيهم من أداء الضرائب ، وتوجّه ثلث إيرادها للصرف على الكنائس وثلث آخر لحاجات الأسقف ، والثلث الأخير لمن هم دونهم ، كما كان للكنيسة دخلها من العشور والهبات ، ولمّا اعتنق ريكاريدو المذهب الكاثوليكي في سنة (583 م) ازدادت سطوة الكنيسة ، وتدخلت على نحو سيئ في الصراعات على العرش ، ولم تكن أوضاع الكنيسة خالية في الوقت نفسه من التصرفات المعيبة ، فالقوانين التي كانت تصدر بخصوص عُزُوبة رجال الدين تعني أنها كانت مشكلة دائمة .

★★★

(69) الأقنان والعبيد :

كان عامة أهل الريف من الأقنان والعبيد ، ولم يكن للقنّ حُرّية الحركة ، وعليه أن يدفع ضريبة الرأس ، وليس له أن يتزوج دون موافقة سيّده ، فإذا فعل فُصلت عنه زوجه ، وعندما كان يتزوج بسيدة من ضيعة غير ضيْعته تقسّم الذرية بين الضيعتين ، وقد انخرطوا في الجيش حتى فاق عددهم في القرن السابع عدد الأحرار ، وأضحى واجب الدفاع عن الوطن يُعهد به إلى جنود يؤثرون التواطؤ مع العدو في الحرب ، لا أن يدافعوا عن ظالميهم ، ولم تسع الكنيسة إلى حل مشكلة العبيد رغم سوء أحوالهم ، بل كانت تحثهم على طاعة أسيادهم .

★★★

(70) اليهود :

لما كان القوط يدينون عند قدومهم بالأريوسية[1] وسط شعب من الكاثوليك ، فإنهم سمحوا لليهود بحرية العقيدة ، ولم يتدخلوا في حياتهم الخاصة ، وتركوهم ينظمون أمورهم وفق تقاليدهم وقوانينهم ، ولما أعلن (ريكاريدو) الكاثوليكية مذهبًا رسميًا

(1) **الأريوسية** : نسبة إلى آريوس ، وهو كاهن من الإسكندرية ، عاش في القرن الرابع ، وذهب إلى ترجيح الناسوت في المسيح على اللاهوت .

للبلاد ، تعرّض اليهود لحملة متصلة من الاضطهاد ، وصلت إلى ذروتها في أواخر القرن السابع .

★★★

(71) صورة عامة للمجتمع الإسباني بطبقاته :

كانت طبقات هذا المجتمع مغلقة ، فلم يوجد حَرَاكٌ اجتماعي ؛ بمعنى أن كل طبقة كان لها عالمها الخاص بها ، وليس لها أن تتجاوزه ، ثم إن القوط عاشوا بمعزل عن أهل البلاد ، وقد ورثوا عن الرومان أوضاعًا اقتصادية سيئة ، فضلًا عن السخرة ، ولم يكونوا يميزون بين الملكية الخاصة بالملك والملكية العامة ، بجانب الفتن والثورات الداخلية ، والحروب المتصلة الخارجية .

عناصر المجتمع الإسباني مع أول ظهور للعرب في إسبانيا

(72) العرب :

دخل العرب إسبانيا على هيئة طوالع ، وتشكلوا من جنود الفتح الذين جاءوا مع طارق بن زياد وموسى بن نصير ، في سنة (93 هـ) وتقدر بعشرة آلاف ، ثم طالعة الحر بن عبد الرحمن الثقفي وتقدّر بأربعمائة رجل من وجوه إفريقيا ، وأهم هذه الطوالع هي طالعة بلج بن بشر القشيري سنة (123 هـ) حين التجئوا إلى سبتة ، وكانت تقدّر بعشرة آلاف بينهم ألفان من الموالي ، وآخر الطوالع هي طالعة أبي الخطار حسام ابن ضرار الكلبي (125 هـ) ومعه فريق من الشاميين عدتهم ثلاثون رجلًا .

★★★

(73) البربر :

يعود الفضل الأول إلى البربر في فتح الأندلس ، وقد خاضوا المعركة الأساسية مع القوط بوادي لكّه ، وبلغ عدد الذين صحبوا طارقًا منهم اثنى عشر ألفًا ، كما وفدت أعداد أخرى بعد أن وصلت أخبار الفتوح إلى العدوة ، ولما قامت ثورة البربر الكبرى

سنة (123 هـ = 741 م) ، وحلّت بهم الهزيمة على أيدي العرب ، وتعرّضت الأندلس للقحط ، عاد عدد كبير منهم إلى بلادهم الأصلية ، ولم يرد بالمصادر هجرة جماعية للبربر إلا في عصر الخليفة الناصر ، ثم في عصر الحاجب منصور .

★ ★ ★

(74) الموالي في ظل السيادة الإسلامية :

لم يشكّل الموالي عنصرًا أو طبقة بالمعنى المفهوم ، والفئة الوحيدة المترابطة ، هي التي كانت على صلة بدوائر الحكم ، ونعني بها الموالي الشامية بقرطبة ، ويليهم الموالي الصقالبة ، ومنهم الموالي العامريون ، وكانوا من أصول شتّى ، وكان بعضهم من البربر ، وكان بعضهم من الفرس مثل بني جَهْور ، وكان البعض الآخر من بني بسيل ، وكان بعضهم من أصل عربي وأشهرهم بنو شُهَيد من أشجع ، وكان عدد من الموالي من أهل البلاد الأصليين ، وانقسموا إلى شامية وبلدية ، وكان يدخل إليهم من حين لآخر عناصر جديدة ، وقد قاموا بدور كبير في إدارة الدولة ، وبخاصة في مجالات الحرب والسياسة ، وإن نافسهم العرب أحيانًا .

★ ★ ★

(75) المُولّدون والحكم الإسلامي :

كان من الطبيعي عند فتح العرب أحد الأمصار ، أن يسارع إلى الإسلام فريق من أهله ، ثم يتزايد عددهم فيما بعد ، وقد أطلق العرب على مَنْ أسلم مِنْ أهلها لفظ (المولدين) ، وعلى أحدثهم إسلامًا (مسالمة) ، كما كان يطلق عليهم أحيانًا (موالٍ) ، وكانوا يشكلون الغالبية العظمى من السكان المسلمين في الجنوب والشرق ، وخاصة في كورة إلبيرة ، وإشبيلية وطليطلة ، وكانوا يعيشون على تربية الماشية والزراعة في الأرياف ، وعلى صيد الأسماك والأعمال البحرية في المناطق الساحلية ، أما في المدن فقد زاولوا حِرفًا وأشغالاً يدوية ، كما مارسوا العمل بالتجارة ، واشتهروا في إشبيلية بثرائهم .

★ ★ ★

(76) اليهود في الأندلس الإسلامية :

كان فتح الأندلس بداية عهد جديد في تاريخ اليهود ، وقد جرى تعاون بين الجانبين ، فقد فتح اليهود أبواب طليطلة للعرب منتهزين فرصة شغل النصارى « بأَحَد السَّعَف » ، كما فتحوا لهم أبواب مدينة طولوشة ، وكانوا يؤثرون الإقامة في المدن ، يزاولون بها أعمالهم التقليدية ، مثل (غرناطة) التي دُعيت بغرناطة اليهود ، وفي الثغر الأعلى روطة اليهود ، وكان عددهم وافرًا في إشبيلية ، وقد أقاموا في المدن الأندلسية في أحياء مستقلة ، وكان باب المدينة المؤدي إلى حي اليهود يعرف أحيانًا بـ (باب اليهود) .

★★★

(77) الحي اليهودي بقرطبة بجوار القصر والمسجد الجامع :

وكان الحي اليهودي في قرطبة يقع في قلب المدينة ، بجوار القصر والمسجد الجامع ، ويحمل هذا الحي حتى الآن اسم Juderia ، وفي السور الشمالي من المدينة باب يطلق عليه باب اليهود ، وبجوار هذا الباب طريق يتجه شمالاً بشرق ، يؤدي إلى مقبرة اليهود .

★★★

(78) اليهود في ظل الحكم الإسلامي يسيِّرون أمورهم :

وترك المسلمون لليهود حريتهم في أن يسيِّروا أمورهم وفق أعرافهم ، ومنها إعدام الهراطقة ، وكانوا يتقاضون فيما بينهم ، وعندما طلب أحد اليهود أن يحاكم أمام قاضٍ مسلم ، أفتى ابن العطار سنة (387 هـ) بجواز ذلك ، وكان كُنيس اليهود يطلق عليه اسم (شنوغة) أو (شنوعة) ، وله أحوال كثيرة وأحباس وأوقاف للنفقة عليه ، وعندما سئل ابن عتّاب سنة (462 هـ)عنها أجازها وأجاز بيعها .

★★★

(79) صِلات المسلمين باليهود في الأندلس :

كانت الصلات بين المسلمين واليهود طيبة تسودها المودة ، واتخذ اليهود اللباس

العربي ، وتحدثوا بالعربية ، وتمادوا في استخدام الأسماء العربية حتى بعد زوال السيادة العربية بزمن طويل ، بل منهم من حمل لقب ذي الوزارتين ، وكان ابن حزم يَحْلُو لَهُ الجلوس في مكان صديقه إسماعيل بن يونس الطبيب الإسرائيلي .

★★★

(80) اليهود والمناصب في ظلِّ التواجد الإسلامي بالأندلس :

زَاول اليهود مهنًا مختلفة ، وسمح لهم المسلمون بملكية الأرض ، وامتهن عدد منهم صناعة الورق ، على أنَّ أكبر عمل قاموا به هو التجارة ؛ إذ اشتهروا بتجارة الرقيق وبخاصة الصقالبة ، وقد شاركوا في مناصب الدولة ، وكان لحسداي بن شبروط مكانة عالية عند عبد الرحمن الثالث ، فكان طبيبه ومبعوثه إلى شانجه السمين ملك ليون .

★★★

(81) ازدهار الثقافة اليهودية في الأندلس الإسلامية :

ازدهرت الثقافة اليهودية في إسبانيا الإسلامية بين القرنين التاسع والثاني عشر الميلاديين ، وينظر اليهود إلى هذه الحقبة بزهو وفخار ، فكان الراهب النصراني يأتي من فرنسا ؛ ليدرس في الأندلس على يد أستاذ يهودي ، وكانت الكتب التي ألفت باليونانية أو بأية لغة أخرى تترجم إلى العربية ، ثم يترجمها اليهود إلى العبرية ، وفي روفانس يعيدون ترجمتها إلى اللاتينية .

من أعلام اليهود في الأندلس الإسلامية

(82) حسداي بن شبروط (ت 359 هـ = 970 م) :

كان من أعلام الثقافة اليهودية بالأندلس (ت : 359 هـ) ، أسهم في ترجمة كتاب « الحشائش » لديسقوريدس إلى العربية، ومن خطاباته المتبادلة مع ملك الخزر يتبين إسهامه الواسع في علم الجغرافيا .

★★★

(83) ابن النغريلة (ت : 448 هـ = 1056 م) :

له ثلاثة أعمال شعرية حاكى فيها أسفار الكتاب المقدس ، كما شرح بعضها ، ونشر بالعبرية مقدمة للتلمود ، واثنين وعشرين عملاً في النحو ، وكان يجيد سبع لغات .

★ ★ ★

(84) ابن حبيرول (ت : 462 هـ = 1070 م) :

أول فيلسوف يهودي ، وكتابه « ميكور حاييم » ؛ **أي** : ينبوع الحياة ، ألفه بالعربية، وتُرجم إلى العبرية واللاتينية والإسبانية ، وأثره واضح في الفلسفة المدرسية في العصور الوسطى ، كما ألف عدة كتب بالعربية، ونظم في النحو العبري قصيدة على بحر الرجز العربي من أربعمائة بيت .

★ ★ ★

(85) اليهود والإسلام بين (سُلاميّ وإسْلاميّ) :

كانت الظروف الحسنة التي عاشها اليهود في الأندلس دافعًا لأن يدخل عدد منهم في دين الإسلام ، غير أن العدد كان قليلاً ، وأطلق على اليهودي إذا أسلم تعبير (سُلامي) ومن يسلم عن كره (إسلامي) ، وليس لدينا ثبت بأسماء من أسلم من اليهود ، وأقدمهم الوزير الكاتب أبو الفضل حسداي بن يوسف بن حسداي وزير المقتدر بن هود ملك سرقسطة (438 هـ - 474 هـ) ، وكاتبُه ، ولدى إسلامه أضيف إلى اسمه لقب الإسلامي .

★ ★ ★

(86) العبيد في ظل السيادة الإسلامية للأندلس :

كان المصدر الرئيس للعبيد هو أسرى الحرب ، واشتهر المنصور بن أبي عامر بلقب (الجلّاب) ، وفي أيامه تغالى الناس في تجهيز بناتهم ، وذلك لرخص بنات الروم ، وعندما لم يأت ولده المظفر في غزاة (396 هـ) بما يرضى عامة قرطبة ، **جعل هؤلاء**

يتصايحون : « مات الجلاب مات الجلاب » يقصدون أباه الذي ملأ الأندلس سبيًا ، الأمر الذي جعل المظفر على سعة صدره يحمل إلى أن يزجرهم .

★ ★ ★

(87) تغيُّر أحوال العبيد في ظل الأندلس الإسلامية :

كان العبيد تحت السيادة الإسلامية في وضع أفضل بكثير مما كانوا عليه في إسبانيا القوطية ، أو إسبانيا النصرانية ، ومن الأمور التي أتى بها الإسلام إلى الأندلس عدم الفصل بين أفراد الأسرة الواحدة ، فلم يعد من حقّ السيد أن يفصل بين الأمة وبين ابنها ، وكان أهل الذمة يمنعون من التفرقة بين عبيدهم الصبية وبين أمهاتهم كما يقضي حكم الإسلام .

★ ★ ★

(88) تحوّل الأَمَة من العبودية إلى (أم ولد) :

كانت الأَمَة عندما تنجب من سيدها يتغير وضعها ، فتصير (أم ولد) ولا يجوز له أن يبيعها ، وإذا فعل نُقِض بيعه ، وإذا مات عنها صارت حرة ووصل الأمر إلى حد أنه لا يجوز له أن يستخدمها ، وليس له فيها إلا الوطء ، وكان أبناؤه منها أحرارًا ، بخلاف ما كان عليه الحال في عهد القوط .

★ ★ ★

(89) أمراء بني أمية أبناء أمهات أولاد :

الجدير بالذكر أن أمراء بني أمية وخلفاءهم بالأندلس ، كانوا أبناء أمهات أولاد ، وقد حظيت (طروب) بمكانة كبيرة عند عبد الرحمن الأوسط ، وكادت تنجح في تولية ولدها عبد الله عهد أبيه دون أخيه محمد ، وكذلك كانت حال أورورا البشكنسيَّة حظّية الحكم الثاني التي أسلمت وتزوجها ودُعيت بـ (صبح) ، وكانت وراء نفوذ المنصور بن عامر واستبداده بالسلطة في الأندلس فيما بعد .

★ ★ ★

(90) العبيد والدخول في الإسلام :

أقبل عدد كبير من العبيد على الإسلام ، حتى يتمتعوا بحريتهم ، وقد ذهب البعض إلى أن غالبية المولدين - الإسبان المسلمين - أقنان حصلوا على حريتهم بالإسلام ، أما العُتقاء الذين ظلوا على ديانتهم ، فكانت لا تؤخذ منهم جزية .

★★★

(91) العبيد والمشاركة في الحياة العامة :

شارك العبيد في الحياة العامة بالأندلس ، واستخدمتهم الأسرة الأموية كأجناد ودخل في عدادهم عدد من السود ، ومنهم (بزيغ) الذي اشتراه عبد الرحمن الداخل وظهرت منه نجدة ، وصار ولده الحارث عاملاً للأمير محمد علي قلعة رباح وطلبيرة ، وكان لدى المنصور بن أبي عامر من العبيد السود ألف فارس يضافون عادة إلى البربر ، كما كان القاسم بن حمود كلفًا بهم ، وابتاع كثيرًا منهم ، وجعلهم على أعماله .

★★★

(92) العبيد والثقافة الأندلسية :

أسهم موالي العتاقة في الثقافة العربية الأندلسية ، ويمكن أن ندخل فيهم عباس ابن ناصح الجزيري الشاعر ، وكان والده عبدًا لامرأة من ثقيف ، وأحمد بن بيطير (ت : 303 هـ) ، وكان حافظًا للفقه مشاورًا في الأحكام متقدمًا في الفتوى ، وسالم بن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن أبا (ت : 310 هـ) ، وكان راوية عن عدة من الأندلسيين .

★★★

(93) التنظيمات الإدارية للنصارى في ظل الحكم الإسلامي للأندلس :

لما قدم العرب إلى الأندلس ، أبقوا على النظام الإداري السائد ، وعملوا على تطويره ، وحافظوا على التقسيم الإداري الذي كان انعكاسًا للتقسيم الجغرافي ، كما

حافظوا على نظام البلديات الذي يعود إلى العهد الروماني ، وقد أقرّ لهؤلاء النصارى أن يسيروا وفقًا لأعرافهم وقوانينهم ما دامت لا تتعارض مع الشريعة الإسلامية .

★★★

(94) زعيم النصارى في الأندلس (القومس) يُعين من قِبَل الحكومة الإسلامية :

كان رئيس الجماعة النصرانية في قرطبة يدعى بـ (قومس) الأندلس ، وكان يطلق عليه (زعيم نصارى الذمة) و(متولي المعاهدين) ، وكان من القوامس الذين عاصروا دولة القوط ودولة العرب معًا قَسيٌ قومس الثغر الذي أسلم ، وعبر البحر إلى الوليد بن عبد الملك بدمشق وصار من مواليه ، وكان القومس يُعين من قِبل السلطات الإسلامية ، وكان القومس هو حلقة الوصل بين النصارى والحكومة الإسلامية بجانب جباية الخراج ، وأول القوامس هو (أرطباش) زعيم عجم الذمة ومستخرج خراجهم لأمراء المسلمين ، وكانوا يعاونون الحكومة الإسلامية في استقبال ملوك إسبانيا وسفرائهم مثلما فعل معاوية بن لب القومس سنة (360 هـ = 971 م) .



الفصل الثاني

دخول المسلمين الأندلس

(95) المسلمون بين طريقين إما إلى الشمال وإما إلى الجنوب :

كان المسلمون قد انتهوا – في هذا الوقت – من فتح بلاد الشمال الإفريقي كلّها ، فتحوا مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب ، ووصلوا إلى حدود المغرب الأقصى والمحيط الأطلسي ؛ ومن ثَمَّ لم يكن أمامهم في سير فتوحاتهم إلاّ أحد سبيلين ؛ إما أن يتّجهوا شمالاً ، ويعبروا مضيق جبل طارق ويدخلوا بلاد إسبانيا والبرتغال – وهي بلاد الأندلس آنذاك – ، وإما أن يتجهوا جنوبًا صوب الصحراء الكبرى ذات المساحات الشاسعة والأعداد القليلة من السكان .

★★★

(96) الهدف الأساس للفتوحات : (الدعوة إلى الله وليس جمع الثروات) :

لم يكن هدف المسلمين هو البحث عن الأراضي الواسعة أو جمع الثروات ، وإنما كانت الدعوة إلى الله وتعليم دينه للناس كافَّة هو الهدف الأساس للفتوحات الإسلامية ، وكان الأمر قد استتبَّ لهم في بلاد شمال إفريقيا في أواخر الثمانينيات من الهجرة ؛ لذا كان من الطبيعي أن تتجه الفتوح الإسلامية صوب بلاد الأندلس ؛ لتصل دعوة الله إلى الجميع .

★★★

(97) حوار بين رِبْعِيٍّ بن عامر ورستم يؤكد هذا الهدف :

وكان هذا هو النهج الذي سار عليه المسلمون في كل فتوحاتهم ، ويُجسِّد هذا النهج ذلك الحوار الذي دار بين رِبْعِيِّ بن عامر رضي الله عنه وبين رستم قائد الفرس قبل موقعة القادسية – وكان رسولاً إليه – فلقد سأل رُسْتُم رِبْعِيَّ بن عامر : ما جاء بكم ؟ فأجابه

الصحابي الجليل : « إن الله ابتعثنا لنُخرج مَنْ شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قَبِل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ، ومَنْ أبى قاتلناه أبدًا حتى نُفضي إلى موعود الله » . **قال** : وما موعود الله ؟ **قال** : « الجنة لمن مات على قتال مَنْ أبى ، والظَّفر لمن بقي » .

★★★

(98) وضع المسلمين في شمال إفريقية قبل التوجه لإسبانيا :

دخل الإسلام بلاد الشمال الإفريقي قبل فتح الأندلس بسبعين عامًا ؛ أي سنة (22 هـ - 644 م) ، وكانت تسكن هذا الإقليم قبائل ضخمة تُسَمّى قبائل الأمازيغ (البربر) ، وهذه القبائل قبائل قوية الشكيمة شديدة البأس ، وقد ارتدّت عن الإسلام أكثر من مرّة فدارت الحروب بينها وبين المسلمين ، وانتهت باستقرار الإسلام في هذا الإقليم (85 أو 86 هـ = 704 أو 705 م) على يد موسى بن نصير .

★★★

(99) (البربر) في أربعة عهود :

كلمة (البربر) أُطلقت في أربعة عهود مختلفة ، فأطلقت في عهد (هومير) على القبائل المعقدة اللغة واللهجة حيثما وُجدت ، وأطلقت في عهد « هيرودوت » على الأمم الغريبة عن لغة اليونان وحضارتهم ، وأطلقت في عهد « بلتوس » على الروم ما عدا سكان روما ، وأطلقها العرب في عهدهم على الأمة التي تسكن الساحل الإفريقي ؛ لأنهم يتكلمون بلغة ليست مفهومة للعرب ، والعرب يطلقون كلمة البربر على الأصوات المتجمعة غير المفهومة .

★★★

قادة وتاريخ

(100) موسى بن نُصير القائد البارع التقيّ الورع :

كان موسى بن نُصير قائدًا بارعًا تقيًا ورعًا ، ثبّت الله به أقدام الإسلام في هذه المنطقة المترامية الأطراف ، وهو من التابعين ، وقد روى عن بعض الصحابة كتميم الداري رضي الله عنه ، **قال عنه ابن خِلِّكان** : « كان عاقلًا كريمًا شجاعًا ، ورعًا تقيًا لله تعالىٰ ، لم يُهْزم له جيشٌ قط » .

★★★

(101) أُبُوَّة كريمة وشجاعة ومنزلة مكينة :

كان نصير بن عبد الرحمن بن يزيد شجاعًا ، وممن شهد معركة اليرموك الخالدة ، وكانت منزلته مكينة عند معاوية رضي الله عنه ، وبلغ في الرُّتب أن كان رئيس الشرطة في عهد معاوية حين كان واليًا على الشام في خلافة عمر وعثمان رضي الله عنهما ، وفي روايات أخرى أنه كان رئيس حرس معاوية نفسه .

★★★

(102) نصير بن عبد الرحمن ومعركة صفِّين :

لمّا خرج معاوية بن سفيان رضي الله عنه لمعركة صفين ، التي وقعت بينه وبين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، لم يخرج نصير معه ، فقال له معاوية ، ما منعك من الخروج معي ولي عندك يَدٌ لم تكافئني عليها ؟ **فقال** : لم يمكني أن أشكرك بكفري مَنْ هو أولى بشكري منك ، **فقال** : مَنْ هو ؟ ، **فقال** : الله عز وجل ، فأطرق مليًا ، ثم **قال** : أستغفر الله . ورضي عنه .

★★★

(103) شجاعة أم موسى بن نصير في معركة اليرموك :

روى ابن حجر في (الإصابة) أنّ أم موسى قد شهدت معركة اليرموك مع زوجها

وأبيه ، وفي جولة من جولات اليرموك التي تقهقر فيها المسلمون أبصرت أمُّ موسى رجلاً من كفار العجم يأسر رجلاً من المسلمين ، **تقول** : « فأخذت عمود الفسطاط ، ثم دنوت منه فشدخت به رأسه ، وأقبلتُ أسلبه فأعانني الرجل على أخذه » .

★ ★ ★

(104) موسى في كنف القادة وقريب من بيت الخلافة :

من هذين الأبوين الكريمين خرج موسى بن نصير ، الذي تربّى في كنف القادة وقريبًا من بيت الخلافة مع أولاد معاوية ﷺ وأولاد الأمراء والخلفاء ، فنشأ على حُبّ الجهاد في سبيل الله ونشر الدين ، حتى أصبح شابًا يافعًا يتقلّد الرتب والمناصب فكان على الخراج بالبصرة ، ثم تولّى قيادة جيش البحر وغزا قبرص في عهد معاوية ﷺ ، ثم تولّى إفريقية والمغرب في عهد الوليد بن عبد الملك في عام (89 هـ) ، وقيل في عام (77 هـ) .

★ ★ ★

(105) الفرصة مواتية أمام موسى بن نصير لفتح الأندلس :

من هنا كانت الفرصة مواتية لموسى بن نصير لينجز ما عجز السابقون عن إنجازه فيعيد الاستقرار لهذا الإقليم ، فتوجّه رحمه الله ناصية المغرب ، وأعاد تنظيم القوات الإسلامية ، وكانت البلاد في ذلك الوقت في قحطٍ شديد ، فأمر الناس بالصوم والصلاة وإصلاح ذات البين ، وخرج بهم إلى الصحراء ، وأقام على ذلك إلى منتصف النهار ، ثم صلّى وخطب في الناس ودعا ، ولم يذكر الوليد بن عبد الملك ، **فقيل له** : ألا تدعو لأمير المؤمنين ؟! **فقال** : « هذا مقام لا يُدعى فيه لغير الله عز وجل » ، فَسُقُوا حتى رووا .

★ ★ ★

(106) موسى بن نصير يُؤمّن قواعد انطلاقه نحو الأندلس :

تولّى موسى بن نصير أمر بلاد المغرب وهي تضطرم نارًا ، فكان أول عمل له هو تأمين قواعد انطلاقه ، ثم انصرف لإخماد الفتن والقضاء على الثورات ، وتصفية قواعد

العدوان ، وبناء المجتمع الإسلامي الجديد ، ثم وجد بعد ذلك في إفريقية طاقات ضخمة ، وإمكانيات جبّارة ، فأفاد من حرية العمل المتوفر له ، وانصرف إلى متابعة حشد القوات وتعبئتها وقيادتها من نصر إلى نصر ، وإشراكها في شرف الفتوح وتحميلها أعباء نشر الإسلام .

★ ★ ★

(107) براعة موسى بن نصير تؤهله للعمل العظيم المشرف عليه :

كان موسى بن نصير من أعظم رجال الحرب والإدارة المسلمين في القرن الأول الهجري ، وقد ظهرت براعته الإدارية في جميع المناصب التي تقلّدها ، كما ظهرت براعته الحربية في جميع الحملات البرية والبحرية التي قادها ، وقد ظهرت هذه المواهب واضحة جليّة في حكمه لإفريقية حيث الخبرة بنفسية الشعوب .

★ ★ ★

(108) موسى بن نصير يدرك بحنكته سرّ الرِّدة المتكررة من قبائل إفريقية :

كان عقبة بن نافع رَحِمَهُ اللَّهُ ومن معه يفتحون البلاد فتحًا سريعًا ، ثم يتوغلون داخلها حبًّا في التوسع لفتح بلادٍ أخرى من غير توفير الحماية لظهورهم ؛ الأمر الذي يجعل قبائل الأمازيغ (البربر) ينقلبون على عقبة فكانت النتيجة قتل عقبة بن نافع رَحِمَهُ اللَّهُ .

★ ★ ★

(109) الحنكة السياسية تستدعي الأناة في فتح هذه البلاد :

بدأ موسى بن نصير يفتح هذه البلاد في أناة شديدة ، وفي هدوء حذر كحذر سيف الله المسلول خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأخذ يتقدم خطوة ثم يؤمن ظهره ، ثم التالية حتى أتمّ الله عليه فتح الإقليم في ست أو سبع سنوات ، بينما استغرق عقبة بن نافع في فتحه شهورًا معدودات .

★ ★ ★

(110) موسى بن نصير يعلّم القبائل الإسلام ليحوّلها إلى جنود للإسلام :

وجد موسى بن نصير أن سكان هذا الإقليم لم يتعلّموا الإسلام جيدًا ، ولم يعرفوه حقّ المعرفة ، فبدأ بتعليمهم الإسلام ، فكان يأتي بعلماء التابعين من الشام والحجاز ليعلموهم الإسلام ويعرّفوهم به ، فأقبلوا على الإسلام وأحبّوه ، ودخلوا فيه أفواجًا ، حتى أصبحوا جند الإسلام وأهله بعد أن كانوا يُحاربون المسلمين ، فأتمّ فتح الإقليم بكامله عدا مدينة واحدة وهي سَبْتَة[1] .

★★★

(111) قبائل الأمازيغ (البربر) :

هي قبائل استوطنت الشمال الإفريقي ، والتي كان يميّزها اللون الأبيض والعيون الزرقاء والشعر الأشقر ، بعكس ما يُخيَّل من كونهم يشبهون الزنوج ؛ حتى إن البعض ينسبونهم إلى أصول أوروبية .

★★★

(112) طارق بن زياد عمود الجيش ، القائد الأمازيغي البربري :

هو القائد المحنّك (50 هـ - 102 هـ = 670 م - 720 م) ذلك القائد جمع بين التقوى والورع ، والكفاءة الحربية ، وحُبِّ الجهاد ، والرغبة في الاستشهاد في سبيل الله ، فهو لم يكن عربيًا ، إلا أن موسى قد وجد فيه الفضل على غيره ، والكفاءة في القيام بمهمة الفتح على أكمل وجه ؛ فدعوة الإسلام وقيادة الجيش لا عنصرية فيها ولا قبلية ولا تعصب .

★★★

(113) القائد المحنّك طارق من أسرة بربرية مسابقة إلى اعتناق الإسلام :

كان طارق بن زياد رحمه الله - فيما يظهر لنا من نسبه - من أسرة سابقة للإسلام ، فهو طارق بن زياد بن عبد الله بن ولغو بن ورنجوم بن نبرغاس بن . . . . ، فمنه نتوقع أن

---

(1) سبتة : هي الآن من مدن المغرب العربي التي تحتلها إسبانيا وتقع على مضيق جبل طارق .

يكون جده عبد الله هو أول من أسلم من عائلته فتسمّى بعبد الله ، أو أن يكون أبو جده (ولغو) هو أول من أسلم ، ولكنه احتفظ باسمه كما هو ثمّ سمّى ولده عبد الله ، لذا كان من الطبيعي أن يجمع طارق بين لغتين : العربية والأمازيغية البربرية .

★★★

(114) طارق بن زياد القائد المناسب في المكان المناسب :

تميَّز طارق بالأصل الأمازيغي البربري ، كان له الفضل بعد الله عز وجل في القضاء على أيٍّ من العوامل النفسية التي تختلج في نفوس البربر الذين دخلوا الإسلام حديثًا ، ومن ثمَّ استطاع قيادتهم وتطويعهم للهدف الذي يصبو إليه ، فهو القادر على فهم قومه ، خاصة وأنه كان يتقن اللغتين العربية والبربرية ، فمن تحدث منهم بالعربية تحدّث معه ، ومن تعامل بالبربرية تعامل معه .

★★★

(115) عثمان بن عفان رضي الله عنه وفتح الأندلس :

لم يكن موسى بن نصير رحمه الله هو أول مَنْ فكّر في فتح الأندلس ، وإنما كانت فكرة فتح الأندلس فكرة قديمة حيث استطاعت الجيوش الإسلامية أيام الخليفة عثمان ابن عفان رضي الله عنه الوصول إلى القسطنطينية ومحاصرتها ، إلا أنَّها لم تستطع أن تفتحها ، **فقال لهم عثمان** رضي الله عنه : « إن القسطنطينية إنما تُفتح من قِبل البحر ، وأنتم إذا فتحتم الأندلس فأنتم شركاء لمن يفتح القسطنطينية في الأجر آخر الزمان » .

عقبات في طريق الفتح

(116) موسى بن نصير وعقبة السفن :

رأى موسى بن نصير أن المسافة التي ستقطعها السفن في البحر بين المغرب والأندلس لا تقلّ عن ثلاثة عشر من الكيلومترات في الماء ، ولم يكن لديه سفن كافية ليعبر هذه

العقبة المائية ؛ لأن معظم معارك المسلمين عدا ذات الصواري وفتح قبرص كانت بريَّة ، لذا كانوا ليسوا في حاجة إلى سفن ، ولكن هذا العمل العظيم يحتاج إلى أسطول كبير .

★ ★ ★

(117) جُزُر البليار (الجزر الشرقية) في ظهر موسى وتحتاج إلى نَظَر :

كان في شرق الأندلس جُزر تُسمى البليار ؛ وهي عدة جزر تقع أمام الساحل الشرقي لإسبانيا ، **وأهمها ثلاث جزر هي** : مَيُورْقَة ، ومَنُورقَة ، ويَابِسَة ، وتسمى في المصادر العربية بالجزر الشرقية ، وهي قريبة جدًّا من الأندلس ، ومن هنا فلن يكون آمنًا إن دخل الأندلس ، وكان عليه أن يحمي ظهره أولاً .

★ ★ ★

(118) جزيرة (مَيُورْقَة) أم الجزيرتين الأخريين :

هي جزيرة في البحر ، ومن شرقيّها جزيرة ميورقة ، وغربيّها جزيرة يابسة ، وميورقة أم هاتين الجزيرتين ، وهما بنتاها ، وإليها مع الأيام خراجهما ، وطول ميورقة من الغرب إلى الشرق سبعون ميلاً ، وعرضها من القبلة إلى الجوف خمسون ميلاً .

★ ★ ★

(119) ميناء (سَبْتَة) عقبة في وجه موسى بن نصير :

كان المسلمون قد فتحوا مدينة سَبْتَة ، وهي مدينة ذات موقع استراتيجي مهم ، ولها ميناء يطلُّ على مضيق جبَل طارق ، وكانت تحت حكم رجل نصراني يُدْعى يُلْيَان الذي كانت تربطه علاقات طيبة بملك الأندلس السابق غِيطشة الذي تعرَّض لانقلاب لُذريق ، فخشي موسى إن هاجم الأندلس أن يتحالف يليان مع لُذْريق فيحاصراه ويقضيا عليه هو وجنوده .

★ ★ ★

(120) موسى بن نصير بين قلة عدد المسلمين وخشية الانقلاب :

كانت قوات المسلمين الفاتحين ، التي جاءت من قبائل العرب من شبه الجزيرة

العربية ومن الشام واليمن محدودة جدًا ومنتشرة في بلاد الشمال الإفريقي ، ومن ثَمّ لا يستطيع أن يفتح الأندلس بهذا العدد القليل ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان يخشى أن تنقلب عليه بلاد الشمال الإفريقي إذا هو خرج منها بقواته متجهًا إلى الأندلس .

★★★

(121) موسى بن نصير بين قوة لُذريق وكثرة عدد النصارى في الأندلس :

كان في مقابل قلة عدد المسلمين مع موسى بن نصير كثرة كاثرة وأعدادٌ ضخمة تقف بعدّتها وضخامتها في الجانب الآخر ؛ ألا وهي النصارى بقلاعهم وحصونهم وتحت قيادة قائد قويٍّ ألا وهو لُذريق .

★★★

(122) الأندلس ... تلك الأرض المجهولة :

كان البحر هو الحاجز الذي يفصل بين المسلمين وبلاد الأندلس ، وهو ما جعل العلم بطبيعتها وجغرافيتها صعبًا ، كما أنها تتميز بكثرة الجبال والأنهار وهو ما يصعب مهمة الجيش الإسلامي الذي يعتمد على الخيول والبغال والحمير في نقل العُدّة والعتاد من مكان لآخر .

★★★

(123) موسى بن نصير يزداد إصرارًا على الفتح رغم كل هذه الصعوبات :

رغم هذه الصعوبات وتلك العقبات فإن موسى قد ازداد إصرارًا على فتحها ، فبدأ في أناة شديدة يرتّب أموره ويحدِّد أولوياته ، فبدأ ببناء الموانئ التي تُشيّد فيها السفن ، وذلك في عام (87 أو 88 هـ = 706 أو 707 م) بهمة عالية وإرادة صلبة فبنى أكثر من ميناء في الشمال الإفريقي .

★★★

(124) موسى بن نصير يستأذن الوليد بن عبد الملك في الفتح :

كتب موسى بن نصير إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بأمر المشروع ، فكتب إليه

الوليد أن يختبره بالسرايا ؛ أعني بالحملات الصغيرة في بداية الأمر ، وألا يزجّ بالمسلمين إلى أهوال البحر ؛ لأن المسلمين قد خاضوا قبل ذلك غمر المعارك البحرية في هذه المعارك حيث غزوا صقلية وسردانية .

الشروع في الفتح ومقدماته

(125) موسى بن نصير يؤمِّن ظهره ويفتح جزر البليار (الجزر الشرقية) :

لكي يُمَهِّد موسى بن نصير للفتح وَيؤمِّن ظهرهُ قام بفتح جزر البليار ، وضمّها إلى أملاك المسلمين ، وبهذا يكون قد أمَّن ظهره من جهة الشرق ، وهذا العمل يدل على حنكته وبراعته في التخطيط والقيادة .

★★★

(126) موسى بن نصير يستنفد جهده مع (سَبْتة) ، وهنا تتدخل العناية الإلهية :

ظلّت مشكلة (سبتة) الميناء الحصين الذي يحكمه النصراني (يليان) غُصَّة في حلق موسى بن نصير ، فقد استنفد طاقته وجهده ، وفعل كل ما في وسعه ، وهنا يتدخل الأمر الإلهي والتدبير الربَّاني ، فإذا بـ (يليان) نفسه يعرض على موسى بن نصير دخول الأندلس .

★★★

(127) سِرُّ هذا التدبير الإلهي :

بدأت الأرض تضيق على يليان ؛ إذ المسلمون يستولون على المدينة تلو المدينة ، ويزدادون قوة بعد قوة ، ويليان يحمل الحقد الدفين لحاكم الأندلس لُذْريق ، وأولاد غيطشة يستنجدون بـ يليان ، فماذا يحدث لو استولى المسلمون على سبتة ؟ إلى أين سيفرّ ؟ خاصة وأن ظروف الأندلس كلها كانت تصبّ في مصلحة المسلمين .

★★★

(128) (يليان) مع جمال العرض وحسن الطلب وعظم السلعة وهون الثمن :

لم يجد يليان أمام هذه العقبات وهذه الخلجات التي تعصر قلبه من مفرٍّ إلا أن يتصل بطارق بن زياد والي طنجة ، يعرض عليه التفاوض والطلب العجيب ، إذ يعرض عليه تسليم ميناء سَبْتة للمسلمين ، على أن يمدّ المسلمين بالمعلومات الكافية عن أرض الأندلس مقابل ضيعات[1] وأملاك غِيْطشه التي صادرها لُذريق ، وكان لغيطشة ثلاثة آلاف ضيعة ، كانت ملكًا لأولاده من بعده .

★★★

(129) لماذا كان الثمن هيِّنًا والعرض غاية الآمال ؟ :

كان الثمن هينًا والعرض غاية الآمال ؛ لأن المسلمين لم يفكّروا يومًا في مغنم أو ثروة أو مال حال فتحهم البلاد ، ولم يرغبوا يومًا في دنيا يملكها غيطشة أو يليان أو لُذريق . . . أو غيرهم ، فقد كان هدفهم تعليم الناس الإسلام ، وتعبيدهم لربّ العباد ، فإذا دخل الناس الإسلام كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، ولو لم يدخلوا في الإسلام وأرادوا دفع الجزية فحينئذٍ يُترك لهم كل ما يملكون .

★★★

(130) طارق بن زياد يخبر موسى بن نصير بالخبر :

بعث طارق بن زياد والي طنجة إلى موسى بن نصير ، وكان في القيروان عاصمة الشمال الإفريقي آنذاك (وهي في تونس الآن) يخبره هذا الخبر ، فَسُرّ سرورًا عظيمًا ، فكتب موسى إلى الوليد فأذن له الوليد شرط أن يختبرها بسريّة من المسلمين ، فما يدريه أن المعلومات التي سيقدمها يليان ستكون صحيحة ! ومَنْ يضمن له ألا يخون يليان عهده معه ، أو يتفق من ورائه مع لُذريق ، أو مع غيره ؟

★★★

(1) ضيعات : جمع ضيعة ، وهي : عقارٌ وأرض مُغلّة [لسان العرب « ضيع » 8/ 228] .

(131) حملة تمهيدية للجزيرة الخضراء (سريّة طريف) :

نزل موسى بن نصير على نصح الخليفة الوليد بن عبد الملك في اختبار الفتح الجديد بالسرايا ، وبدأ مشروعه بمحاولة صغيرة ، فجهّز خمسمائة مقاتل بينهم مائة فارس ، بقيادة ضابط من البربر يُدعى طريف بن مالك ، فعبروا البحر من سبتة في أربع سفن قدمها يليان وذلك في رمضان (91 هـ = 710 م) ، وأصابت الحملة كثيرًا من الغنائم ، وقوبلت بالإكرام والترحيب ، وشهدت كثيرًا من دلائل خصب الجزيرة وغناها ، ثم عادت في أمن وأمان وسلام ، وقصّ قائدها على موسى نتائج رحلته فاستبشر بالفوز ، وجدّ في أهبة الاستعداد للفتح .



(132) جزيرة طريف :

هي اسم بلد على البحر ، وهي مدينة صغيرة عليها سورُ تراب ، ويشقّها نهر صغير ، وبها أسواق وفنادق وحمّامات ، وهي تنسب إلى رجل من موالي موسى بن نصير من البربر اسمهُ طريف ، ويكنى أبا زرعة ، حيث نزل بالخضراء التي هي معبر سفنهم ، وأصاب سبيًا كثيرًا ، لم يَرَ موسى ولا أصحابه مثله حُسنًا ، ومالاً جسيمًا ، وأمتعة ، وذلك سنة (91 هـ) .



(133) ما تأباه الحقيقة التاريخية :

أكثرت الروايات العربية والأجنبية في الثناء على يليان واشتراكه في كل مرحلة من مراحل الفتح ، وإقحامه في كل أمر ، بل زاد بهم الأمر إلى ادعوا أن موسى بن نصير لم يكن ليفكر في فتح الأندلس لولا عرض يُليان ، وهذا مخالف للحقائق التاريخية التي تَمّ عرضها ، فهو عامل مساعد - لسنا ننكر ذلك - قد أسهم في كثير من التسهيلات ، ولكن بعد فتح طنجة كان لابد من فتح الأندلس لاستمرار الفتح ، كما أن كونه هو العامل الرئيس يقلل من قيمة الفتح فهذا مخالف للحقائق التي تم سردها .

★ ★ ★

(134) اليهود والفتح الإسلامي للأندلس :

أما فيما يتعلق باليهود ومساعدتهم للمسلمين وتقديمهم التسهيلات لإتمام الفتح ، فلا توجد أية إشارة في المصادر والمراجع العربية عنها ، ولو كان هناك ثمة مساعدات لذكرها المؤرخون للأندلس وهم كُثر ، ولتناقلها الرواة جيلًا بعد جيل ، خاصة والمتتبع لأحداث الفتح يتّضح له أن المسلمين لم يكونوا على علم بوجود أعداد كثيرة من اليهود في بلاد الأندلس .

★★★

(135) حملة الفتح بعد عام كامل من التجهيز والاستعداد :

وفي شهر رجب سنة اثنتين وتسعين (إبريل 711 م) ، جهّز موسى بن نصير جيشًا من العرب والبربر بلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد الليثي ، وذلك بعد عام من الحملة الاستطلاعية الناجحة التي قادها طريف بن مالك ، **يقول ابن الكردبوس** : « وكان موسى بن نصير حين أنفذ طارقًا مُكبًا على الدُّعاء والبكاء والتضرُّع لله تعالى ، والابتهال إليه في أن ينصر جيش المسلمين » .

★★★

(136) عبور طارق بن زياد إلى الأندلس واختراقه للجزيرة الخضراء :

عبر طارق بن زياد البحر من سَبْتَة بجيشه تباعًا في سفن المسلمين القليلة ، ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة التي مازالت تحمل اسمه إلى اليوم أعنى جبل طارق ، وذلك في يوم الإثنين الخامس من رجب سنة (92 هـ) = (27 من إبريل 711 م) ، واخترق المنطقة المجاورة غربًا بمعاونة يليان وإرشاده .

★★★

(137) جبل طارق :

هو جبل فيه خرج طارق بن زياد ومنه افتتح الأندلس ، وهو عند الجزيرة الخضراء ، وبجبل طارق مَرْسَى مُكَنٌ من كل ريح ، وبه غريبةٌ ، وهو غارٌ هناك يُعرف

بـ (غار الأقدام) لا يُرى من البطحاء التي تلي الغار أَثر قَدَم أبدًا ، وليس هناك طريقٌ ولا منفذٌ إلى غير الغار ، وقد مُسِحَت تلك البطحاء وسُوِّيت ، ثم أتوها من الغد ، فوجدوها فيها أثر القدم ، جُرِّب ذلك مرارًا .

★★★

(138) حقيقة نسبة سفن العبور إلى (يليان) :

تردد كثيرًا في المراجع والمصادر نسبة السفن إلى يليان ، وهذا مخالف للواقع ؛ لأن المسلمين كانوا يقيمون على السواحل وقد خاضوا معارك وانتصروا فيها كذات الصواري البحرية ، الأمر الذي يجعلهم على أهبة الاستعداد لأي هجوم بحري ، فلابد من أسطول من السفن ، كما أنهم أقاموا دارًا لصناعة السفن في تونس في عهد الحسان ابن النعمان في الفترة من سنة (76 هـ) إلى (86 هـ) ، وهذا الأسطول هو الذي فتح طنجة في عهد عقبة بن نافع ، كل هذا يؤكد أن المسلمين يمتلكون سفنًا وإن كانت أعدادها قليلة ، وأن جهود يليان مقتصرة على الاستئجار أو المساعدة .

★★★

(139) المقري في (نفح الطيب) يؤكد صحّة ما ذهبنا إليه :

يقول المقري : وكان موسى منذ وجّه طارقًا لوجهة قد أخذ في عمل السفن ، حتى صار عنده منها عدة كثيرة ، فحمل إلى طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مددًا كملت به عِدّة من معه اثنى عشر ألفًا ؛ أقوياء على المغانم ، حِرَاصًا على اللقاء ، ومعهم يُليان المستأمن إليهم في رجاله وأهل عمله ، يدلهم على العورات ، ويتحسّس لهم الأخبار .

★★★

(140) ابن عذارى يؤكد أن هذه السفن كانت مستأجرة :

تذكر بعض الروايات أن الذي هيأ هذه السفن وجهزها هو يليان نفسه ، **فقال ابن عذارى في (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب)** : « فكان يليان يحتمل أصحاب طارق في مراكب التجار التي تختلف إلى الأندلس ، ولا يشعر أهل الأندلس

بذلك ، ويظنون أن المراكب تختلف بالتُّجار ، فحمل الناس فوجًا بعد فوج إلى الأندلس . . . » ، وبناء على ما سبق فالسفن ليست ليليان وإنما عاون في تأجيرها لمعرفته بها .

★★★

(141) طارق بن زياد وأول لقاء على أرض الأندلس :

قابل الجيش الإسلامي الجيش الجنوبي للأندلس ؛ وهي حامية جيش النصارى في هذه المنطقة ؛ ولم تكن قوة كبيرة ، وكعادة الفاتحين المسلمين فقد عرض طارق عليهم الدخول في الإسلام على أن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ويتركهم وأملاكهم ، أو يدفعون الجزية ويترك لهم ما في أيديهم ، أو القتال ولا يؤخرهم إلا ثلاثًا .

★★★

(142) (تدْمير) لا يدري أيحارب قومًا من أهل الأرض أم من أهل السماء ؟

أبتِ الحامية إلا أن تحارب طارقًا ورجاله وأخذتها العزة بالإثم ، فكانت الحرب سجالاً بين الفريقين ، حتى انتصر عليهم طارق بن زياد ، فأرسل زعيم تلك الحامية وكان اسمه تُدْمير رسالةً عاجلة إلى لُذْريق – وكان في طُلَيْطِلَة عاصمة الأندلس آنذاك – **يقول له فيها** : « أَدْرِكْنَا يا لُذريق ؛ فإنه قد نزل علينا قوم لا ندري أهم من أهل الأرض أم من أهل السماء ؟! قد وطئوا إلى بلادنا وقد لقيتُهم فلتنهض إليَّ بنفسك » .

★★★

(143) لماذا ظن الأندلسيون أن المسلمين من أهل السماء ؟

كان المسلمون غرباء على أهل هذه المنطقة ، رهبانًا مصلين بالليل ، مهرةً أكفاء في النهار ، لا ينهبون ولا يسلبون خيرات البلد ، ولا يقتلون ولا يذبحون ، يعرضون عليهم الدخول في الدين ، ويتركون لهم كل شيء ، أو أن يدفعوا الجزية ويتركوا لهم كل شيء بل ويحموهم من الأعداء أو القتال .

★★★

(144) ردّ فعل لُذْريق عندما وصلته أنباء الغزو :

لمّا وصلت أنباء تقدُّم طارق بن زياد إلى لُذْريق - وكان في الشمال - لم يتهيّب الموقف للمرّة الأولى ؛ لاعتقاده أن المسألة لا تعدو أن تكون غزوة من غزوات النَّهب ، لن تلبث أن تتلاشى ، ولكن حين وصلته أنباء تقدُّم المسلمين ناحية قرطبة ، أسرع إلى طُلَيْطلة وحشد حشوده ، وأرسل قوة عسكرية بقيادة ابن أخته بنشيو - وكان أكبر رجاله - للتصدِّي لهم ، ووقع القتال بالقرب من الجزيرة الخضراء ، فكانوا عند كل لقاء يُهزمون ، وقُتل قائدهم بنشيو ، وفرّ من نجا من جنوده في اتجاه الشمال ، ليخبروا لُذريق بما جرى ، وبفداحة الخطر القادم من الجنوب .

★ ★ ★

(145) موقعة وادي بَرْبَاط (92 هـ = 711 م) وفتح الأندلس :

وصلت الأخبار إلى لُذْريق فوقعت عليه وقع الصاعقة ، وجُنّ جنونه ، فجمع جيشًا كبيرًا اختلف المؤرخون في عدده ، وكان كله من الفرسان ، وجاء بهم من الشمال إلى الجنوب يقصد جيش المسلمين .

★ ★ ★

(146) تقديرات المؤرخين في عدد جيش لُذْرِيق :

اختلف المؤرخون في تقدير عدد هذا الجيش ، فكان أقل تقدير هو أربعون ألفًا وهو الذي ذكره ابن خلدون في تاريخه ، وذهب الحميري في الروض المعطار إلى أن عدد الجيش كان ستين ألفًا ، وهو نحو مائة ألف كما هو عند المقري في (نفح الطيب) ، وتبعه كل من الدكتور حسين مؤنس والدكتور راغب السرجاني .

★ ★ ★

(147) طارق بن زياد يستنجد بموسى بن نصير :

كان عدد جيش طارق بن زياد لا يزيد عن سبعة آلاف من المسلمين جُلُّهم من الرَّجَّالة ، وعدد محدود جدًّا من الخيل ، فلما أبصر أمر لُذْريق وجد صعوبة بالغة جدًّا

في المواجهة ، سبعة آلاف أمام جيش قوامه يزيد عن خمسين ألفًا ، فأرسل إلى موسى يستنجده ويطلب منه المدد ، فبعث إليه طريف بن مالك على رأس خمسة آلاف آخرين من الرَّجالة - أيضًا - تحملهم السفن .

★★★

(148) سرُّ اختيار وادي بَرْبَاط (وادي لُكَّة) :

بدأ طارق بن زياد يستعد للمعركة ؛ فكان أول ما صنع أن بحث عن أرض تصلح للقتال ، حتى وجد منطقة وادي بَرْبَاط وتسميها بعض المصادر أيضًا وادي لُكَّة أو وادي لُقَّة أو لِقَّة ، وكان لاختيار هذا المكان أبعاد استراتيجية وعسكرية مهمة ؛ فقد كان من خلفه وعن يمينه جبل شاهق ، وبه حَمَى ظهره وميمنته فلا يستطيع أحد أن يلتف حوله ، وكان في مسيرته - أيضًا - بحيرة ، فهي ناحية آمنة تمامًا ، ثم وضع على المدخل الجنوبي لهذا الوادي (أي في ظهره) فرقة قوية بقيادة طريف بن مالك ؛ حتى لا يباغت أحد ظهر المسلمين ؛ ومن ثَمّ يستطيع أن يستدرج قوات النصارى من الناحية الأمامية إلى هذه المنطقة ، ولا يستطيع أحدٌ أن يلتفّ من حوله .

★★★

(149) وادي لُكَّة :

هو موضع من أرض الجزيرة الخضراء من ساحل الأندلس القبليّ ، فيه التقى طارق ابن زياد وجموعه مع لذريق طاغية الأندلس آخر ملوك القوط ، الذين عُدَّةُ ملوكهم بالأندلس ستَّة وثلاثون مَلكًا ؛ وكانت مُدَّة مُلكهم ثلاثمائة سنة واثنتين وأربعين سنة ، ولم يكن لذريق هذا من أبناء الملوك ولا صحيح النسب في القوط ، إنَّما اغتصب المُلك وتسوَّر عليه عند موت الملك الذي كان قبله واستصغر أولاده ، واستمال طائفة من الرجال مالوا معه فانتزع الملك من أولاده . وكانت الوقعة سنة (92 هـ) من الهجرة ، فانهزم القُوط أعظم هزيمة ، وقُتل لذريق ، وغلبت العرب على الأندلس .

★★★

(150) لُذْريق لم يستطع أن يتخلّى عن مباهج الدنيا وهو في لحظات الحرب والقتال :

جاء لُذريق في أبهى زينة ، يلبس التاج الذهبي والثياب الموشاة بالذهب وقد جلس على سرير مُحَلّى بالذهب يجرُّه بغلان ، وقدم على رأس جيشه ، وجاء معه بحبالٍ محملة على الجمال زاعمًا أنه سيقيّد بها أيدي المسلمين وأرجلهم بعد هزيمتهم المحققة ، حيث زعم بصلفه وغروره أن حسم المعركة سيكون لصالحه ، ففي زعمه أن جيشًا قوامه اثنا عشر ألفًا في مقابل جيش يزيد عن أربعين ألفًا يحتاج إلى الشفقة والرحمة .

★★★

(151) الشفقة كل الشفقة على جيش لُذْرِيق رغم العدد الهائل لجيشه :

في (28) من شهر رمضان (92 هـ) = (19) من يوليو سنة (711 م) دارت معركة هي من أشرس المعارك في تاريخ المسلمين ؛ جيش لا يتعدى الاثنى عشر ألفًا وهم يواجهون أكثر من خمسين ألفًا ، فالناظر العادي تأخذه الشفقة على جيش المسلمين ، بل إن الناظر المحلل يرى أن الشفقة كل الشفقة على الجيش الضخم الجرار ، فالطرفان ﴿ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ [الحج : 19] ، وشتان بين الخصمين ! شتان بين فريق خرج طائعًا مختارًا ، راغبًا في الجهاد ، وبين فريق خرج مُكرها مضطرًا مجبرًا على القتال .

★★★

(152) مواجهة غير متكافئة :

نعم مواجهة غير متكافئة لجيش أسمى أمانيه الموت في سبيل الله ، وجيش لا يعرف سوى العودة إلى الأهل والمال والولد ؛ بين جيش يقف صفًا واحدًا كصفوف الصلاة ، وجيش فيه السادة والعبيد حيث يستعبد بعضهم بعضًا ؛ فريق يقوده رجل رباني - طارق بن زياد - يجمع بين التقوى والورع والكفاءة ، والعزة والتواضع ، وجيش يقوده متسلِّط مغرور ، يعيش مترفًا منعمًا وشعبه يعيش في بؤس وشقاء ، بين

جيش توزع عليه أربعة أخماس الغنائم بعد الانتصار ، وجيش لا ينال شيئًا وإنما يذهب كله إلى الحاكم المتسلط ، بين جيش يؤيده ربّ العزة وجيش يحارب الله ربّه ويتطاول على قانونه وشرعه ، فعلى مَنْ نشفق ونحزن ؟!

★ ★ ★

(153) قوة الإيمان سرُّ الانتصار :

بدأت المعركة في شهر رمضان حيث الصيام والقرآن ، الشهر الذي ارتبط اسمه بالمعارك والفتوحات والانتصارات ، وعلى مدى ثمانية أيام دارت رحى الحرب ، وبدأ القتال الضاري الشرس بين المسلمين والنصارى ، حرب ضروس ، وقد ظل الوضع طيلة ثمانية أيام متصلة انتهت بنصر مؤزّر للمسلمين ، بعد أن علم الله صبرهم وصدق إيمانهم ، بعد تلاطم السيوف وتساقط الأشلاء وشدة بأس من الطرفين ، ولكن هيهات أن تصمد تلك القوى أمام قوة الإيمان وقوة العقيدة التي يتحلى بها الجيش المسلم .

★ ★ ★

(154) ماذا غنم المسلمون من هذه المعركة ؟ وماذا غنمت الأندلس ؟

روى ثلاثة آلاف من جند المسلمين بدمائهم أرض الأندلس ، فانتهت المعركة باستشهاد هذا العدد الضخم لتنعم الأندلس بالرقي والتحضر بعد أن طوت صفحة من صفحات الظلم والجهل والاستبداد ، كما غنم المسلمون غنائم عظيمة كان من أهمها الخيول ؛ فأصبحوا خيّالة بعد أن كانوا رجّالة .

★ ★ ★

(155) مصير رُذريك ملك القوط :

أما مصير رذريك أو لُذريق فقد اختلفت المصادر والمراجع في تحديد مصيره ؛ فالبعض ذهب إلى أنه اختفى عقب المعركة ، ولم يعثر له بأثر ، والبعض قال : إنه فرّ عقب الهزيمة على ظهر جواده ، ولكنه غرق في مياه النهر ، وذهبت بعض الروايات إلى أنه مات غريقًا وعثر على سرجه الذهبي ولم يعثر على جثته ، وذهب صاحب كتاب

الإمامة والسياسة إلى القول بأن طارق بن زياد قد ظفر بجثته فاحتزّ رأسه وبعث بها إلى موسى بن نصير ، وبعث بها موسى إلى الخليفة ؛ والمرجح من كل هذه الروايات أنه مات قتيلاً ، أو ألقى بنفسه مختارًا في الماء بعد أن فقد ملكه .

★ ★ ★

(156) خطبة طارق بن زياد في جيشه قبل المعركة :

لما اقترب جيش لُذريق من الجيش الإسلامي ، قام طارق بن زياد في أصحابه ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم **قال** : « أيها النّاس ، أين المفرّ ؟! والبحر من ورائكم والعدو أمامكم ، فليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآرب اللئام ، وقد استقبلتم عدوكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وَزَر[1] لكم غير سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أقوات أعدائكم . . . اعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه ، وأني عند ملتقى الجمعين حامل سيفي بنفسي على طاغية قومه لُذْريق فقاتله - إن شاء الله - فاحملوا معي ، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا من فتح الجزيرة بقتله ؛ فإنهم بعده يخذلون » .

★ ★ ★

(157) الشك في نسبة هذه الخطبة لطارق بن زياد :

إنه ليسوغ لنا أن نرتاب في نسبة هذه الخطبة إلى طارق ؛ فإن معظم المؤرخين المسلمين ، ولاسيما المتقدمين منهم لا يشير إليها ، ولم يذكرها ابن عبد الحكم ولا البلاذري وهما أقدم رواة الفتوحات الإسلامية ، ولم تشر إليها المصادر الأندلسية الأولى ، ولم يشر إليها ابن الأثير وابن خلدون ، ونقلها المقري عن مؤرخ لم يذكر اسمه ، كما أن هذه الخطبة بليغة مع روعة أسلوبها وعباراتها ما يحمل الشك في نسبتها ؛ لأن طارق بن زياد بربريٌّ لم يكن عريقًا في الإسلام والعروبة .

---

(1) وزر : ملجأ ، لسان العرب 5/ 282 .

(158) قصة حرق السفن بعد العبور إلى شاطئ الأندلس :

هناك واقعة أخرى جديرة بالتأمل والبحث ، وهي واقعة قد يغلب عليها لون الأسطورة ، وإن كانت قد تعرض في ثوب التاريخ الحق ، فتذكر الروايات أن طارق بن زياد أمر بإحراق السفن التي عبر عليها جيشه ، وذلك لكي يدفع جنده إلى الاستبسال والموت ، أو النصر المحقق ، ويقطع عليهم بذلك كل تفكير في التخاذل والارتداد ، **فقال لهم** : « أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم » .

★★★

(159) مدى صحة هذه القصة :

أشاعت المصادر الأوروبية هذه القصة ؛ لأن الأوروبيين لم يستطيعوا أن يفسّروا كيف ينتصر هذا الجيش الضئيل على هذه الجحافل الجرارة في بلادهم وفي عقر دارهم ، فلم يجدوا تفسيرًا مقنعًا غير هذا فعاشوها وصدقوها ، وهم معذورون لأنهم ما عرفوا تاريخ المسلمين وما درسوه ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : 249] .

أشاعوا ذلك حتى يثبتوا أن النصارى لم يهزموا في ظروف متكافئة ، وأن المسلمين لم ينتصروا إلا لظروف خاصة جدًا ، ثمّ متى يحتاج المسلمون إلى حرق سفن حتى تثبت فيهم الحماسة ، ولو حدث ذلك فلِمَ لم نجد أيّ رد فعل من موسى بن نصير أو الوليد بن عبد الملك أو فقهاء المسلمين حول حرق السفن ، مع العلم أن ليست كل السفن كانت ملكًا للمسلمين حتى يقدم طارق بن زياد على حرقها .

★★★

(160) طارق بن زياد يُسرع إلى التوغل في بلاد الأندلس :

تقرر أن يسير طارق بن زياد إلى طليطلة استغلالاً للروح المعنوية لجنوده وضعف الروح المعنوية لعدوّه وعدم وجود قائد عندهم ، فأرسل مغيثًا الرومي مولى الوليد بن عبد الملك إلى قرطبة في سبعمائة فارس ، فاقتحم أسوارها الحصينة واستولى عليها

دون مشقة ، وأرسل حملات أخرى إلى غرناطة وإلبيرة ومالقة ، فاقتحمت مالقة وفرّ سكانها إلى الجبال ، وحوصرت غرناطة قليلًا وفتحت ، ثم فتحت إلبيرة .

★★★

(161) غرناطة :

هي مدينة من مُدن إلبيرة بينها وبين وادي آش أربعون ميلًا ، وهي مُحْدَثَة من أيام الثُّوار بالأندلس ، وإنما كانت المدينة المقصودة بالفتح إلبيرة ؛ فَخَلت وانتقل أهلها منها إلى غرناطة ، ومَدَّنها وحَصَّن أسوارها ، وبنى قَصَبَتها حَبُّوس الصنهاجي ثم خلفه ابنه باريس ، فَكَمُلت في أيامه ، وعُمِّرت حتى الآن .

★★★

(162) غرناطة اليهود :

ويشق هذه المدينة نهر يسمى (إصعبة) أو (حَذَّرُه) ، وبينها وبين إلبيرة ستة أميال ، وتعرف بغرناطة اليهود لأنّ نازليها كانوا يهودًا ، وقصبتها بجوفيّها ، وهي من القصاب الحصينة ، وجُلب الماء إلى داخلها من عينٍ عذبة تجاورها .

★★★

(163) غرناطة ونهر فَلُوم :

ينقسم نهر فلوم عند مدينة غرناطة قسمين : قسم يجري في أسفل المدينة ، وقسم يجري في أعلاها ، يشقّها شَقًّا ، فيجري في بعض حمّاماتها، وتطحنُ الأرحاء عليه خلال منازلها ، ومخرجه من جبل هناك ، وتُلفظ في جَرْية مائة بُرَادة الذهب الخالص ، ويعرف بـ (الذهب المدنيّ) ، ومقبرة غرناطة بغربيّها عند باب إلبيرة .

★★★

(164) فحص إلبيرة بين (غوطة) دمشق و(شارحة) الفيوم :

و« فُحص إلبيرة » أزيد من مسافة يوم في مثله يصرفون فيه مياه الأنهار كيف شاءوا كل أوان من جميع الأزمان ، وهو أطيب البقاع نفعة ، وأكرم الأرضين تُربة ، ولا

يعدل به مكان غير غوطة دمشق وشارحة الفيوم ، ولا تعلم شجرة تستعمل وتُستغل إلا وهي أنجب شيء في هذا الفحص .

★★★

(165) (فُحص إلبيرة) ما خَلَت من شيء من مباهج الدنيا :

ما من فاكهة توصف وتُستطرف إلا وتفوقها فاكهة (فحص إلبيرة) ، ويجود فيها ما لا يجود إلا بالساحل من اللوز وقَصَب السكر وما أشبههما ، وحرير (فحص إلبيرة) هو الذي ينتشر في البلاد ، ويَعُم الآفاق ، وكتّانها يربو جيّده على كتان النيل ، ويكثر حتى يصل إلى أقاصي بلاد المسلمين ، وبها معادن جوهرية من الذهب والفضة والصُفر والحَديد والرصاص ، وجبل الثلج هو جبل يشرف على جبل إلبيرة .

★★★

(166) إفراغة :

هي مدينة بقرب (لاَرِدَة) من الأندلس ، بينهما ثمانية عشر ميلاً ، وهي على نهر الزيتون ، حسنة البناء ، لها حصن منيع لا يُرَام ، وبساتين كثيرة لا نظير لها ، حاصرها العدو في جمع كثيف ، وآلى زعيمهم ابن رُذمير على نفسه ألا يبرح حتى يأخذها عُنْوة ، وذلك في 525 هـ ، فنهد إليه يحيى بن علي بعزيمة صادقة ونية صحيحة في جموعه ، فهزمه وقتل أكثر رجاله ، وفرّ العدو وسيوف المجاهدين تأخذ منه .

★★★

(167) عُبَاب المحيط يمنع طارق بن زياد من التقدم في الفتح :

سار طارق في بقية الجيش إلى طليطلة مخترقًا هضاب الأندلس وجبال سيرا مورينا (جبل الشارّات) التي تفصل بين الأندلس وقشتالة فاستولى عليها ، وأبقى على من بقي من سكانها ، وترك لأهلها عدة كنائس ، وترك لأحبارها حرية إقامة الشعائر الدينية ، وأباح للنصارى من القوط والرومان اتباع شرائعهم وتقاليدهم ، واختار لحكمها وإدارتها (أوباس) مطرانها السابق وأخا الملك (وتيزا) ثم اخترق قشتالة ثم

ليون في وهاد ومفاوز صعبة ، وعبر جبال أشتوريش حتى أشرف على ثغر خيخون الواقع على خليج بسكونية ، فكان خاتمة زحفه ونهاية فتوحاته .

★★★

(168) طليطلة بين وجهة نظر موسى بن نصير وبراعة طارق بن زياد :

كان موسى بن نصير - الذي اتّسم بالحكمة والأناة - قد أوصى طارق بن زياد ألا يتجاوز مدينة جيّان أو لا يتجاوز مدينة قُرْطبة ، وأمره ألا يُسْرِع في الفتح في طريقه إلى العاصمة طليطلة حتى لا يحوطه جيش النصارى .

ورأى القائد المحنك طارق بن زياد أن الطريق إلى طليطلة مفتوح أمامه ، وليس فيه صعوبات تُذكر ، فاجتهد رأيه ورأى أنه إن هاجمها في هذا الوقت فلن يستطيع النصارى المقاومة ؛ لما أصابهم من الخور والضعف ، وثبتت براعة طارق فقد فتحت المدينة أبوابها له ، ودخلها دون قتال على قلة ما معه ، وانعدام المدد من خلفه .

★★★

(169) موسى بن نصير وموقفه من هذا الفتح :

أصدر موسى بن نصير أوامره إلى طارق بن زياد بوقف الفتح ، وقد اختلف المؤرخون في تعليل ذلك ؛ **فقيل** : إن موسى لم يكن يتوقع كل هذا الفوز لقائده ومبعوثه ، فلما وقف على مبلغ فوزه وتقدمه ، تحوّل إعجابه به إلى حسد وغيرة ، وخشي أن ينسب ذلك الفتح العظيم إليه دونه ، والبعض يعلل غضبه بأن طارق بن زياد قد خالف أوامر القائد وأن موسى الذي يتسم بالحيطة والحذر خشي أن ينكب المسلمون في هذه الأراضي المجهولة فتكون العاقبة وخيمة خشية أن تحيطه الجيوش النصرانية من كل جانب .

★★★

(170) موسى بن نصير في ثمانية عشر ألفًا يصل إلى الأندلس :

عبر موسى بن نصير البحر إلى إسبانيا في عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر في سفن صنعها خصيصًا لذلك ، يحفزه شغف الفتح بالرغم من شيخوخته ، فقد

انهمر المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها إلى الأندلس حين علموا أن فيها جهادًا نصرة ومددًا لطارق بن زياد ، ونزل موسى بولاية الجزيرة حيث استقبله الكونت يليان ، وذلك في رمضان سنة ثلاث وتسعين (يونية سنة 712 م) .

★★★

(171) موسى بن نصير أراد استكمال الفتح ومساعدة طارق وليس سلب النصر منه :

ادّعى البعض أن موسى حسد طارق بن زياد على فتوحاته وحاشاه أن يحدث منه ذلك ، أليس طارق بن زياد من عمّاله ودخل الإسلام على يديه ؟! ولكن الحقيقة أن موسى أراد استكمال النصر ، والدليل اتجاهه إلى الشمال الغربي ، وهو الطريق الذي لم يسلكه طارق بن زياد ، فقد قدم بالجيش فتوجّه نحو إشبيلية وفي الطريق أعاد إخضاع شذونة وافتتح قَرْمُونَة ، ثم حاصر إشبيلية حصارًا شديدًا طال مداه شهورًا حتى فتحت أبوابها أخيرًا ، وسار حتى وصل إلى مَارِدة ففتحت في عيد الفطر بعد حصار طويل ، وصالح أهلها على الجزية .

★★★

(172) شذَونة ملجأ المسلمين عند القحط (136 هـ) :

هي من الكور المُجَنَّدة ، نزلها جُنْد فلسطين من العرب ، وهي جليلة القدر ، جامعة لخيرات البر والبحر ، كريمة البقعة ، عذبة التربة ، يفيض مياهها بلا ندوى مع المحل ثمارها ، وقد لجأ إليها أهل الأندلس سنة 136 هـ ، وكانت الأندلس قد قحطت ستة أعوام ، وبقربها الجبل الأوسط فيه آثار للأوائل .

★★★

(173) مدينة قرمونة .. (صديقي) باللسان اللِّطيني :

هي مدينة في الشرق من إشبيلية ، وهي قديمة وباللسان اللِّطيني (كارب مويه) ومعناها (صديقي) ، وهي في سفح جبل عليها سورُ حجارة من بنيان الأُوَل ، كانت

تُثَلّم في الهدنة ، وجنباتها حصينة ممتنعة على المحاربين إلا من جهة المغرب ، وارتفاع سورها أربعون حجرًا ، وقد افتتحها عبد الرحمن بن محمد (305 هـ) .

★★★

(174) عبد العزيز بن موسى بن نصير وفتح البرتغال :

أرسل موسى بن نصير ابنه عبد العزيز الذي تربّى كأبيه وجدّه على الجهاد ؛ ليفتح مناطق أوسع ناحية الغرب ، وقد توغّل عبد العزيز في الغرب كثيرًا ؛ حتى إنه في فترات معدودات فتح كل غرب الأندلس ، التي تسمى حاليًا دولة البرتغال ، فقد وصل إلى لشبونة وفتحها ثم فتح البلاد الواقعة في شمالها ، وبهذا يُعَدّ عبد العزيز بن موسى ابن نصير فاتح البرتغال .

★★★

(175) لقاء السحاب ، وتعانق الأبطال ، واستكمال الفتح :

أكثرت المصادر والمراجع في الحديث عن لقاء موسى بطارق ، فذهبت بعض المراجع إلى القول بأن موسى عنف طارقًا ووبّخه ، وتذكر بعض المراجع أنه قيّده وضربه بالسوط ، وبعضها **قال** : إنه حبسه وهمّ بقتله ، ولكن ما يمكن قبوله هو أن الأمر لا يزيد عن التعنيف السريع وعتاب المحبّ ثم لقاء حار ؛ لأنهما افترقا منذ سنتين كاملتين ؛ فقد أخذت حملة طارق حتى وصلت إلى طليطلة عامًا كاملًا ، وكذلك استغرقت الحملة التي قادها موسى بن نصير حتى قابل طارقًا في المكان نفسه عامًا كاملًا .

★★★

(176) الأندلس مستباح لطارق هنيئًا مريئًا :

ما يدل على تلك العلاقة السامية بين هذين القائدين العظيمين ما جاء في نفح الطيب من أن موسى بن نصير لما سمع بانتصار طارق ، عبر الجزيرة بمَنْ معه ولحق به ، **فقال له** : « يا طارق ؛ إنه لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يمنحك

الأندلس فاستبحه هنيئًا مريئًا » ، **فقال له طارق** : أيها الأمير ؛ والله لا أرجع عن قصدي هذا ما لم أنتهِ إلى البحر المحيط ، أخوض فيه بفرسي .

★★★

(177) فتوحات عظيمة تتم على يد القائدين معًا :

بعد اللقاء اتّحدا معًا واتجها إلى منطقة الشمال ففتحا بَرْشُلُونة ثم سَرَقُسْطَة ثم أرسل موسى بن نصير سريّة خلف جبل البِرِينيه ؛ وهي الجبال التي تفصل بين فرنسا وبلاد الأندلس ، فعبرت هذه السرية هذه الجبال ، ثم وصلت إلى مدينة أَرْبُونَة ؛ وبذلك يكون موسى بن نصير قد أسس نواة لمقاطعة إسلامية سوف تكبر مع الزمان .

★★★

(178) موسى يتم فتح شمال الأندلس إلا (صخرة بلاي) :

بعد أن فتحت هذه السرية جنوب غرب فرنسا ، اتجه موسى بن نصير بجيشه إلى الشمال الغربي حتى وصل إلى آخره ، وقد ظلّ المسلمون يفتحون مدن الأندلس المدينة تلو المدينة حتى تم الانتهاء من فتح كل بلاد الأندلس ؛ إلا منطقة واحدة في أقصى مناطق الشمال الغربي وتسمى منطقة الصخرة أو صخرة بلاي ، وهي تقع على خليج بسكاي عند التقائه مع المحيط الأطلنطي .

★★★

(179) فتحٌ عسيرٌ فسيحٌ في مدة لا يصدقها أحد :

في زمن قُدِّر بثلاث سنوات ونصف - ابتدأ من سنة (92 هـ = 711 م) وانتهى في آخر (95 هـ = 714 م) - كان قد تمَّ للمسلمين فتح كل بلاد الأندلس عدا صخرة بلاي ، ولو لم تكن البراهين ثابتة في هذه المدة القصيرة لما صدّق أحد ؛ لأن شبه الجزيرة الأندلسية قطر فسيح عسير لا يسهل على أحد فتحه أو إخضاعه .

★★★

(180) فتحُ معجزةٌ في حدِّ ذاته :

والحق أنّ فتح المسلمين للأندلس معجزة في حدّ ذاته ؛ إذ لا يصدق المرء ، وهو يتتبّع أخبار هذا الفتح ، أن الذين كانوا يقومون به إنما كانوا بربرًا لم يسبق لهم عهد بالنظام ولا الجيوش ولا المعاهدات ، والحق أن الإسلام قد خطا في القرن الأول خطوات تفوق قرونًا عدّة .

★★★

(181) عملٌ منظمٌ وقائدٌ يُسلِّم الرايةَ لقائد آخر :

أكمل موسى عمل طارق ، وأكمل عبد العزيز بن موسى عمل الاثنين ، وهذا يدل على خُطّة محكمة لم يكن من الميسور وضع أحسن منها : فقد قضى على المقاومة واحتُلت العاصمة في أول وثبة ، ثم اتجهت الهمة إلى إخضاع كبريات مدن الغرب ، ثم إقليم سرقسطة ثم ختم العمل بالجنوب الشرقي ، فهذا نبوغ حربي عند هؤلاء المسلمين الأوائل .

★★★

(182) جهود عبد العزيز بن موسى بن نصير :

افتتح عبد العزيز منطقة الساحل الواقعة بين مالقة وبلنسية ، وأخمد الثورة في إشبيلية وباجة ، وافتتح لبلة وغيرها من المعاقل والحصون ، وأبدى في معاملة البلاد المفتوحة كثيرًا من الرفق والتسامح والاعتدال في تطبيق الأحكام وفرض الضرائب .

★★★

(183) معاهدة خير شاهد على اعتدال السياسة الإسلامية ولينها وتسامحها :

هذه الرسالة هي نموذج للوثائق السياسية الإسلامية في عصر الفتح ، ونصّها كالتالي : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد العزيز إلى تيودمير ، أنه نزل على الصلح ، وأنه له عهد الله وذمته أن لا ينزع عن ملكه ، ولا أحد من النصارى عن أملاكه ، وأنهم لا يقتلون ولا يسبون أولادهم ولا نساءهم ، ولا يكرهون على دينهم ،

ولا تحترق كنائسهم ما تعبد ونصح ، . . . وأنه لا يأوي لنا عدوًا ، ولا يخون لنا أمنًا ، ولا يكتم خبرًا علمه ، وأن عليه وعلى أصحابه دينارًا كل سنة ، وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير ، وأربعة أقساط طلًا ، وأربعة أقساط خلًا ، وقسطي عسل ، وقسطي زيت ، وعلى العبد نصف ذلك ، كُتب في أربع من رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة ، شهد على ذلك . . . . » .

★★★

(184) قرار مفاجئ باستدعاء القادة إلى المشرق :

أرسل الوليد بن عبد الملك رسالة مفاجئة من أقصى البلاد من دمشق إلى القائد موسى بن نصير ، يأمره أن يعود أدراجه إلى دمشق ولا يتوغل في الفتح ، وأن يصطحب معه طارق بن زياد ، ولم يَكُن بُدّ من الإذعان والاستجابة والعودة سريعًا .

★★★

(185) ما يخشاه الوليد بن عبد الملك :

كان الوليد بن عبد الملك يخشى من توغل المسلمين خاصة وأنهم قد توغلوا كثيرًا في بلاد الأندلس في وقت قصير ، فخشي عليهم من التفاف النصارى حولهم ؛ لأن المسلمين مهما زاد عددهم ومهما كبرت شوكتهم فهم قلّة ، نظرًا لأن قوتهم بعيدة عن مصدر إمدادها ، وربما كان هناك سبب آخر هو الذي جعل الوليد يستدعي القائدين ؛ إذ كان من الممكن أن يوقف الفتح دون الاستدعاء ، ولكن ثَمَّة أمرًا آخر .

★★★

(186) سرّ الاستدعاء هو الخلاف بين القائدين :

اجتهد بعض المؤرخين في القول بأن هناك أمرًا غريبًا قد نمى إلى سمع الوليد ألا وهو الخلاف الذي نشب بين القائدين موسى بن نصير وطارق بن زياد ، خاصة وأن هذا الخلاف يفرّق كلمة المسلمين ، ولم يكن المسلمون في هذه البلاد البعيدة بحاجة إلى خلاف يودي بهم جميعًا ويوردهم المهالك .

★★★

(187) سرّ الاستدعاء هو الهمّة العالية للقائد موسى ابن نصير :

قيل : إن الوليد بن عبد الملك قد وصل إلى علمه أن موسى بن نصير يريد ، بعد أن ينتهي من فتح بلاد الأندلس ، أن يفتح كل بلاد أوروبا حتى يصل إلى القسطنطينية من الغرب ، وكانت القسطنطينية قد استعصت على المسلمين من الشرق ، ومن هنا فكّر موسى بن نصير أن يخوض كل بلاد أوروبا ؛ فيفتح إيطاليا ثم يوغوسلافيا ثم رومانيا ثم بلغاريا ثم منطقة تركيا الحالية حتى يصل إلى القسطنطينية من الغرب .

★ ★ ★

(188) مقارنة بين موسى بن نصير والخارجين إلى المعاش حديثًا :

عجبًا لهذا الرجل الذي بلغ الخامسة والسبعين من عمره ، ولم يُحَل إلى الإيداع ، ولم يخرج إلى المعاش ، بل هو في أوج نشاطه ، وإنه ليضرب المثل لرجالات المسلمين وشيوخهم الذين بلغوا مثل عمره وأقل منه ، فلله دَرُّه ! شيخ كبير ومع ذلك يركب الخيول ، ويفتح المدينة تلو المدينة ، ثم يتجه للشمال الغربي ويصل إلى الصخرة يريد أن يفتحها ، بل ويريد أن ينطلق إلى فرنسا وإيطاليا حتى يصل إلى القسطنطينية ، فأي هِمّة هذه التي يمتلكها هذا الرجل ؛ إنها همة الإخلاص والإيمان .

★ ★ ★

(189) سرُّ حزن موسى بن نصير بعد الاستدعاء :

كان موسى بن نصير حزينًا لتركه ساحة الجهاد ، وقد كان محبًا له ، علَّه ينال الشهادة التي لم تُصبه ، وحزن حزنًا شديدًا على الصخرة التي لم يفتحها بعد ، واشتدّ حزنًا لأنه لم يستكمل حُلم فتح القسطنطينية من قبل الغرب كما كان يتمنى ، **قال المقري في (نفح الطيب)** : « وهو مع ذلك متلهّف على الجهاد الذي فاته ، أسيفٌ على ما لحقه من الإزعاج ، وكان يُؤمِّل عليه أن يخترق ما بقي من بلد إفرنجة (فرنسا) ، ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يصل بالناس إلى الشام الأرض طريقًا يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم ومجيئهم برًّا ، لا يركبون بحرًا » .

★ ★ ★

(190) حجٌّ ودعاءٌ وأمنيةُ العودة لساحة الجهاد :

سمع موسى بن نصير وأطاع لأمر الوليد بن عبد الملك ، الذي لم يلبث طويلًا في دمشق إلا وتُوفي الوليد وخلفه سليمان بن عبد الملك الذي كان يرى رأى الوليد ، وقصد سليمان الحج فذهب معه موسى بن نصير الذي دعا في طريقه **قائلًا** : « اللهم إن كُنت تُريد لي الحياة فأعدني إلى أرض الجهاد ، وأمتني على الشهادة ، وإن كنت تريد لي غير ذلك فأمتني في مدينة رسول الله ﷺ » ، وفي أثناء عودته بعد حجه مات في مدينة رسول الله ﷺ ثم دفن مع الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – .

★★★

(191) عاش بين الأسنَّة ومات في مدينة نبيِّ الأُمّة :

هكذا كان هَمُّ الصالحين وقلوب الموصولين برب العالمين ، فقد بلغ من الكِبر عتيًا ؛ إلا أنّه قدّم أكثر مما عاش ، ظلّ قلبه مُعَلَّقًا بحبِّ نبيّه ، ومجاهدًا في سبيل نشر دعوة ربّه ، حتى دعاه فلبّى الدعاء ؛ فكانت الخاتمة وكانت الإجابة ، عاش بين الأسنة في أقصى بلاد الأندلس إلا أنه مات بعد الحج في مدينة رسول الله ﷺ ، فلله دَرُّه من قائد وقدوة .

★★★

(192) مصير رفيق الدّرب طارق بن زياد :

أما رفيق الدرب طارق بن زياد فقد اختلفت الآراء في مصيره بعد عودته إلى دمشق ؛ **إذ تقول بعض الروايات** : إن طارق بن زياد قد استقبل في دمشق استقبالاً حسنًا ، وربما أحسن الخليفة فوق ذلك ، إذ فكر في إثابته وتعيينه واليًا على الأندلس الذي أسهم في افتتاحه بأعظم قسط ، وأن سليمان قد عدل عن تعيينه واليًا على الأندلس خشية منه ، إذ كان يتمتع بعظيم الهيبة والنفوس ، فخشي عليه من الانفراد بالأندلس ، ولكن الروايات الإسلامية لا تحدثنا بعد ذلك عن طارق بشيء ، ولا تذكر لنا أين ومتى توفي ؟ بل تَسْدِل على نهايته حجابًا عميقًا من الصمت .

★★★

(193) مصير الكونت يوليان بعد رحيل القائدين :

أما مصير الكونت يوليان الذي مَهَّدَ لفتح الأندلس ، فلم تشر إليه الرواية الإسلامية ، وبعض الروايات تشير إلى أنه عاد بعد الفتح إلى سبتة وأُقطع ما حولها من الأراضي ، وقُلِّد إمارتها جزاء خدماته ، ولكنه بقي نصرانيًا هو وبنوه الأقربون ، ثم دخل عَقِبه في الإسلام بعد ذلك ، أو أنه قُتل بعد ذلك بأعوام في ولاية الحرّ الثقفي بيد العرب لريبة في ولائه .

★★★

(194) التهاون في أمر بسيط قد يؤدي إلى ويلات عظيمة :

علمنا أن القائد المحنّك موسى بن نصير قد حزن حزنًا شديدًا ؛ لأنه لم يستكمل افتتاح الصخرة ، وقد سكنها فيما بعد طائفة كبيرة من النصارى ، فكانت النّواة للممالك النصرانية التي ستُنشأ فيما بعد وتكون صاحبة اليد الطّولى في سقوط الأندلس بعد ذلك بقرون ، فلابد أن يأخذ المسلمون كل أمورهم بالحزم والعزم وعدم الطمأنينة ، حتى يحققوا ما يهدفون إليه .

نتائج الفتح الإسلامي لإسبانيا من وجهة النظر الغربية

(195) (رينهارت دوزي) والآثار الدينية للفتح الإسلامي :

« لم تكن حال النصارى في ظل الحكم الإسلامي مما يدعو إلى كثير من الشكوى بالنسبة لما كانت عليه من قبل ، فالعرب كانوا يتحلّون بكثير من التسامح ؛ فلم يرهقوا أحدًا في شئون الدين ، وقد حمد النصارى للفاتحين كثيرًا من التسامح ، وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج ، وانقضى القرن الثامن كله في سكينة ، وقلما نشبت فيه ثورة ، ولم يبدِ رجال الدين في العصور الأولى كثيرًا من التسامح » .

★★★

(196) رأي (دوزي) عن الآثار الاجتماعية للفتح :

يقول (دوزي) : « كان الفتح العربي من بعض الوجوه نعمة لإسبانيا ؛ فقد أحدث فيها ثورة اجتماعية مهمة ، وقضى على كثير من الأجواء التي كانت تعانيها البلاد منذ قرون . . . وحطمت سلطة الأشراف والطبقات الممتازة أو كادت تمحى ، ووزعت الأراضي توزيعًا كبيرًا ، فكان ذلك حسنة سابغة وعاملاً في ازدهار الزراعة إبّان الحكم العربي . . كما حرر الرقيق من النصرانية كما فهمها أحبار المملكة القوطية ، وحسنت أحوال أرقاء الضياع ؛ إذ تمتعوا بشيء من الاستقلال والحرية » .

★★★

(197) (لاين بول) ومنائر العلم والمدنية :

يقول الأستاذ (لاين بول) : « أنشأ العرب حكومة قرطبة التي كانت أعجوبة العصور الوسطى ؛ بينما كانت أوروبا تتخبط في ظلمات الجهل ، فلم يكن سوى المسلمين من أقام بها منائر العلم والمدنيّة » .

★★★

(198) (لاين بول) وخبرة العرب الفائقة بالشئون الإدارية :

ويقول : « ما كان المسلمون كالبرابرة من القوط والوندال ، يتركون وراءهم الخراب والموت ، حاشاهم من ذلك ؛ فإن الأندلس لم تشهد قط أعدل وأصلح من حكمهم ، ومن الصعب أن نقول أنّى اكتسب العرب تلك الخبرة الفائقة بالشئون الإدارية ، فقد خرجوا من الصحراء إلى الغزو ، ولم يفسح لهم تيار الفتح مجالاً يدرسون فيه إدارة الأمم المفتوحة » .

★★★

(199) (جانيجوس) : العرب سرّ المخترعات الحديثة وأنفعها :

يقول المستشرق الإسباني جانيجوس : « لقد سطعت في إسبانيا « الأندلس » أول أشعة هذه المدينة ، التي نثرت ضوءها فيما بعد على جميع الأمم النصرانية ، وفي مدارس قرطبة وطليطلة العربية ، جمعت الجذوات الأخيرة للعلوم اليونانية بعد أن

أشرفت على الانطفاء ، وحفظتها بعناية ، وإلى حكمة العرب وذكائهم ونشاطهم يرجع الفضل في كثير من أهم المخترعات الحديثة وأنفعها » .

★ ★ ★

(200) (سُكوت) : العرب أهل السرعة والكمال والرسوخ :

يقول المؤرخ الأمريكي (سكوت) : « في أقل من أربعة عشر شهرًا ، قُضي على مملكة القوط قضاء تامًا ، وفي عامين فقط وُطِّدت سلطة المسلمين فيما بين البحر الأبيض المتوسط وجبال البرنيه ، ولا يقدّم لنا التاريخ مثلاً آخر اجتمعت فيه السرعة والكمال والرسوخ بمثل ما اجتمعت في هذا الفتح . . . وكان اعتدال الحكام الجدد قد خفف من ألم الهزيمة » .

★ ★ ★

(201) (سكوت) وفلسفة الجزية التي فرضها هذا الدين :

ويكمل (سكوت) كلامه قائلاً : « وكان دفع الجزية يضمن الحماية لأقل الناس ، وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاول شعائره دون تدخل ، كما يسمح للملحد أن يجاهر بآرائه دون خشية المطاردة ، والأحبار يزاولون شئونهم في سلام ، أما أقوال الكُتّاب النصارى التي ينسبون فيها للعرب أفظع المثالب ، فهي محض مبالغة أو افتراء » .

★ ★ ★

(202) الإسبان والحكومة الخاصة في ظل الوجود الإسلامي :

يقول المستشرق (سيمونيت) : « إنه فيما يتعلق بالقوانين المدنية والسياسية فإن النصارى الإسبان احتفظوا في ظل الحكم الإسلامي بنوعٍ من الحكومة الخاصة ، واحتفظ الناس بأحوالهم القديمة دون تغيير كبير ، وفيما يتعلق بالتشريع ؛ فإنهم احتفظوا في باب النظم الكهنوتية بقوانين الكنيسة الإسبانية ، والقوانين القوطية أو ما يعرف بقانون (التقاضي) ، يخضعون لها في كل ما لَهُ علاقة بحكومتهم ، وهي حكومة بلدية محلية ، ما لم يكن يتعارض مع القوانين والسياسة الإسلامية » .

(203) الإسبان والحكومة النظامية في ظل الحكم الإسلامي :

يقول العلاَّمة (ألتاميرا) : « إن أغلبية الشعب الإسباني الروماني والقوطي بقيت في ظل حكم المسلمين محتفظة برؤسائها ، وهم الأقماط والكونتات Condes وقضاتها وأساقفها وكنائسها ، وبالجملة بقيت محتفظة بما يشبه استقلالها المدني الكامل ، وقنع الولاة بأن يفرضوا على النصارى المحكومين الضرائب الشرعية » .

★★★

(204) المسلمون والنصارى يعيشون جنبًا إلى جنب في إسبانيا عيشة حرّة :

يقول المستشرق (كارديناس) : « إن الفضل في تسامح الولاة والأمراء الأوائل ، خلال العصور الأولى من الحكم الإسلامي ، يرجع إلى أن الشعبين المسلمين والمستعربين (النصارى) يعيشان جنبًا إلى جنب عيشة حرة » .

★★★

(205) المسلمون العرب يقتبسون من الفنون القوطية :

ويكمل (كارديناس) قائلاً : « واستطاع المستعربون في ظل الحكم الإسلامي أن يحتفظوا باستقلالهم ، ولغتهم ، وعاداتهم ، وقوانينهم ، وأحيانًا بأساقفتهم وكونتاتهم ، وأن يسهروا على صيانة الفنون القوطية التي كان العرب يقتبسون من أساليبها .

★★★

(206) اعتناق البربر والإسبان الإسلام :

يقول (دوزي) يصف موقف البربر من العرب : « اعتنق البربر سكان الأكواخ الحقيرة ، كل التعاليم بحماسة لا توصف ، ولا ريب أنهم لجهالتهم وسذاجتهم لم يدركوا شيئًا من تضارب المذاهب ودقائقها . . . وقد اعتقدوا بسهولة نظرية سيادة الشعب وهي نظرية عريقة في الإسلام عريقة في الإيمان ، وأن أقل بربري يمكن رفعه إلى العرش برأي الجماعة . . . » .

★★★

ولاة الأندلس بعد الفتح

(207) المقصود بعصر الولاة :

بعد انتهاء عهد الفتح بدأ عهد جديد في تاريخ الأندلس **يُسَمّى** : (عهد الولاة) ، الذي يبدأ من عام : (95 هـ = 714 م) ، ويستمر مدّة اثنين وأربعين عامًا ، حيث ينتهي عام (138 هـ = 755 م) ، وعهد الولاة يعني أنّ الحكم في هذه الفترة كان يتولاّه الحاكم العام للمسلمين ؛ وهو الخليفة الأموي الموجود في دمشق بترشيح من حاكم إفريقية ، حيث كانت الأندلس تابعة لإفريقيا حتى عصر الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز .

★★★

(208) عبد العزيز بن موسى بن نصير أول الولاة :

كان عبد العزيز بن موسى بن نصير قد اختاره أبوه قبل رحيله إلى المشرق (95 هـ) لولاية الأندلس ، واختار ولده عبد الله لولاية إفريقية ، وقد أقرّ سليمان بن عبد الملك هذا الاختيار ، وقد قضى عبد العزيز بن موسى في ولايته زهاء عامين غُني فيهما بتحصين الثغور ، وقمع الخروج والعصيان ، وافتتح عدة أماكن وحصون ، وأبدى همة في تنظيم الحكومة الجديدة وإداراتها .

★★★

(209) انفرادات عبد العزيز بن موسى في الأندلس :

أنشأ عبد العزيز بن موسى في فترته ديوانًا لتطبيق الأحكام الشرعية وتنسيقها ، لتوافق مشارب الرعايا الجدد ، ولتجمع حولها كلمة المسلمين من مختلف القبائل ، وشجع الزواج بين العرب والإسبان ، وتزوج هو بالملكة إيجلونا ، واختار إشبيلية عاصمة الأندلس ، ودير (سانتا روفينا) ليكون مقامًا له ولزوجته ، وفيه أجريت أول تعديلات على الطراز العربي .

★★★

(210) شهادتان من الأب لابنه ، ومن صاحب الأعلام :

قال عنه موسى بن نصير : « عرفته صوّامًا قوّامًا » ، **وقال عنه الزركلي في الأعلام** : « أمير فاتح ، ولاّه أبوه إمارة الأندلس عند عودته إلى الشام ، فضبطها وسدَّد أمورها ، وحمى ثغورها ، وافتتح مدائن ، وكان شجاعًا حازمًا ، فاضلاً في أخلاقه وسيرته » .

★★★

(211) وفاة موسى بن نصير وعزل عبد الله عن إفريقية :

نتيجة الاضطرابات والاتهامات لم يستطع عبد العزيز السيطرة على القطر الغربي ، فقد شنّ عليه خصومه دعاية قوية انتهت بالثورة عليه ، فوثب عليه جماعة من الجند على رأسهم وزيره حبيب بن عبدة الفهري ، وقتلوه أثناء صلاته بأحد مساجد إشبيلية ، وذلك في رجب (97 هـ = 716 م) وبعثوا برأسه إلى دمشق ، وبعدها بقليل عزل سليمان بن عبد الملك أخاه عبد الله بن موسى عن إفريقية .

★★★

(212) انتقال مقر الحكم من إشبيلية إلى قرطبة على إثر تولية أيوب اللخمي :

وعلى إثر مقتل عبد العزيز بن موسى ، اتفق الزعماء في إشبيلية على تولية أيوب بن حبيب اللخمي ، وهو ابن أخت موسى بن نصير ، وكان عاقلاً صالحًا ، فهدأت الخواطر نوعًا ، ولبث في ولايته ستة أشهر نقلت خلالها قاعدة الحكم من إشبيلية إلى قرطبة باتفاق الجماعة ، وهناك من ذهب إلى أنّ من نقل مقر الخلافة هو الحرّ الثقفي .

★★★

(213) الحرّ الثقفي يقمع الفتن والمنازعات بين العرب والبربر :

بعد أن تولى محمد بن يزيد إفريقية أقال أيوب بن حبيب ، وعيّن الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي ، فقدمها في ذي الحجة (97 هـ) في جماعة من وجوه إفريقية ، وأنفق صدر ولايته في قمع الفتن والمنازعات التي كانت قائمة بين العرب والبربر ، وإصلاح الجيش ، ومطاردة الخوارج والمعتدين من الجند ، وتنظيم الإدارة وتوطيد

الأمن ، إلا أن الأمر لم يستتب معه ، فعادت الدسائس والمنازعات فعزله الخليفة عمر ابن عبد العزيز بعد أن قضى في ولايته سنتين وثمانية أشهر .

★★★

(214) الأندلس ولاية مستقلة في عهد السَّمح بن مالك :

اختار عمر بن عبد العزيز السَّمْح بن مالك الخولاني ، وقرر أن تكون الأندلس ولاية مستقلة عن إفريقية تابعة للخلافة مباشرة ، لما رآه من أهميتها واتساع شئونها ، ويقال إن الخليفة عمر فكَّر في إخلاء الأندلس وإجلاء المسلمين قاطبة عنها ؛ لانقطاعهم بها ، وعزلتهم فيما وراء البحر عن باقي أقطار الخلافة ، فقيل له إن المسلمين قد تكاثروا بها واستقروا ، فعدل عن مشروعه .

★★★

(215) السَّمح وقنطرة قرطبة الشهيرة :

أنشأ السَّمح قنطرة قرطبة الشهيرة ، على نهر الوادي الكبير ؛ تحقيقًا لرغبة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، وأبدى في جميع أعماله حزمًا ورفقًا وعدلاً ، فالتفّ الزعماء حوله ، وخبت الفتنة وهدأت الخواطر واستقرّ الأمن .

★★★

(216) السَّمْح الجندي الجريء والقائد العظيم :

كان السَّمح بن مالك فوق كفايته الإدارية جنديًا وقائدًا عظيمًا ، فلمَّا انتهى من مهمة التنظيم والإصلاح ، تأهّب لاستئناف الغزو ، وتوطيد سلطان الخلافة في الولايات الجبلية ، والقواعد الشمالية ، فاخترق جبال البرنيه واستعاد روسيون وأربونة وقرقشونة ومعظم قواعد سبتمانيا وحصونها ، ثم اتجه نحو الشرق ليغزو مملكة الفرنج الجنوبية ، وزحف توًا على قاعدتها تولوشة (تولوز) ، وبدأ بذلك النضال بين العرب والفرنج في بسائط غاليس قويًا رائعًا .

★★★

(217) أَرْبُونَة :

مدينة أَرْبُونَة هي آخر ما كان بأيدي المسلمين من مُدن الأندلس وثغورها ممّا يلى بلاد الإفرنجة ، وقد خرجت من أيدي المسلمين سنة (330 هـ) ، مع غيرها ممّا كان في أيدي المسلمين من المُدُن والحصون .

★★★

(218) عدد الولاة الذين تعاقبوا على الأندلس في فترة الولاة :

إذا نظرنا إلى عهد الولاة نرى أنه قد تعاقب فيه على حكم الأندلس اثنان وعشرون واليًا ، أو عشرون واليًا ، تولى اثنان منهم مرتين ، فيصبح مجموع فترات حكم الأندلس اثنتين وعشرين فترة خلال اثنين وأربعين عامًا ؛ أي أنّ كل والٍ حكم سنتين أو ثلاث سنوات فقط .

نتائج الفتح على أهل الأندلس

(219) الإسلام دين شامل متكامل ينظم كل أمور الحياة :

وجد الإسبان في الإسلام دينًا متكاملاً شاملاً ينظم كل أمور الحياة ، وجدوا فيه عقيدة واضحة وعبادات منتظمة ، وجدوا فيه تشريعات في السياسة والحكم والتجارة والزراعة والمعاملات ، وجدوا فيه تواضع القادة الفاتحين ، وكيفية التعامل والتعايش مع الأخ والأب والأم والزوجة والجيران والأقرباء والأصدقاء ، وكيفية التعامل مع العدو والأسير ، ومع كل الناس .

★★★

(220) سرّ دخول الإسبان في دين الله أفواجًا :

لقد تعوّد الإسبان في حياتهم – قبل ذلك – فصلًا كاملًا بين الدين والدولة ، فالدين عندهم لا يعدو أن يكون مجرد مفاهيم لاهوتية غير مفهومة ، يتعاطونها ولكن لا

يستطيعون تطبيقها ، وفي التشريعات والحكم يُشَرِّع لهم مَنْ يحكمهم وَفْق هواه ، وحسبما يحقق مصالحه الشخصية ، أمّا في الإسلام فقد وجدوا أن الأمر يختلف عن ذلك تمامًا ؛ فلم يستطيعوا أن يتخلّفوا عن الارتباط به والانتساب إليه ، فدخلوا فيه أفواجًا .

★★★

(221) أهل الأندلس هم جند الإسلام وأعوان هذا الدين :

وفي مدة قليلة أصبح عموم أهل الأندلس (السكان الأصليين) يدينون بالإسلام ، وأصبح المسلمون من العرب والأمازيغ (البربر) قِلَّةً بينهم ، وأصبح أهل الأندلس هم جند الإسلام وأعوان هذا الدين ، وهم الذين اتجهوا بعد ذلك لفتح بلاد فرنسا ، قال السمح بن مالك لعمر بن عبد العزيز حين همَّ بإجلاء المسلمين من الأندلس : « إن الناس قد كثروا بها وانتشروا في أقطارها ، فاضرب عن ذلك » .

★★★

(222) نشأة جيل جديد يسمى (جيل المولدين) :

بعد أن انصهر الفاتحون بسكان القطر الأصليين وانخرطوا في العمل سويًا ، كان من جرّاء ذلك أن انتشر الإسلام سريعًا ، وظهر على إثر ذلك جيل جديد عُرف باسم (جيل المولدين) ، وهم أبناء الذين أسلموا من أهل الأندلس الأصليين ، فقد كان الأب عربيًا أو بربريًا والأم أندلسية .

★★★

(223) القضاء على الطبقية ونشر الحرية العقائدية :

كانت الطبقية سائدة في المجتمع الأندلسي ، فجاء الإسلام وساوى بين الناس جميعًا ؛ يقف الحاكم والمحكوم سويًا أمام القضاء للتحاكم في المظالم ، وأتيحت الحرية العقائدية فتركوا للنصارى كنائسهم ، وما هدموها قط ، وما كانت تحوّل مساجد إلا إذا وافق النصارى على بيعها لهم حيث كان بيع الكنائس للمسلمين يُقَدّر بأثمان باهظة ، أمّا إن رفضوا بيعها تركها المسلمون لهم .

(224) الاهتمام بتأسيس الحضارة المادية أو المدنية :

كما اهتمّ المسلمون بتأسيس الحضارة المادية أو المدنية ، فأسَّسوا الإدارة ، وأقاموا العمران ، وأنشئوا القناطر والكباري ، وأكبر دليل على ذلك القنطرة العجيبة (قنطرة قرطبة) كما أنشأ المسلمون دُورًا للأسلحة وصناعة السفن .

★★★

(225) الإسبان يقلّدون المسلمين في كل شيء :

كان من نتائج هذه المرحلة ومن السِّمات المميزة لها ، أن بدأ الإسبان يقلدون المسلمين في كل شيء ؛ حتى أصبحوا يتعلمون اللغة العربية التي يتكلمها الفاتحون ، بل كان الإسبان النصارى واليهود يفتخرون بتعليم اللغة العربية في مدارسهم .

★★★

(226) نقل حاضرة القيادة إلى قرطبة :

كان من السمات التي ميّزت هذه الفترة أن اتَّخذ المسلمون قرطبة عاصمة لهم ؛ وقد كانت طليطلة في الشمال قبل ذلك هي عاصمة الأندلس ، ولكنّ المسلمين وجدوها قريبة من فرنسا ومنطقة الصخرة ، وهما من مصادر الخطر ، فرأوها مدينة غير آمنة فهجروها إلى قرطبة القريبة من المدد الإسلامي في بلاد المغرب .

★★★

(227) الجهاد في (غالة) فرنسا حاليًّا :

كان الجهاد في فرنسا من أهم السمات المميزة لهذه الفترة من عهد الولاة ، فاتخذت خطوات كبيرة في هذه الفترة ، حيث انطلق السمح بن مالك إلى بلاد فرنسا مجاهدًا ، وكانت بفرنسا مدينة إسلامية واحدة هي مدينة أَرْبُونَة ، تلك التي فتحها موسى بن نصير بسرية من السرايا ، لكن السَّمح بن مالك فتح كل منطقة الجنوب الغربي لفرنسا ، ثم أسس مقاطعة ضخمة جدًّا وهي مقاطعة (سبتمانيا) .

★★★

(228) ولاية السمح بن مالك من حسنات الخليفة عمر بن عبد العزيز :

تُعدُّ ولاية السّمح بن مالك هي الولاية الرابعة للأندلس ، فبعد أن قُتل عبد العزيز بن موسى بن نصير تولى أيوب بن حبيب اللخمي ، ثم الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي ، ثم السَّمح بن مالك الذي تُعَدُّ ولايته على الأندلس من حسنات الخليفة عمر بن عبد العزيز في الفترة من (61 هـ = 681 م - 101 هـ = 720 م) .

★★★

(229) استشهاد السَّمح بن مالك :

أخذ السمح بن مالك الخولاني يستكمل الفتوح في جنوب غرب فرنسا ، وفي الوقت ذاته أرسل يُعَلِّم الناس الإسلام ؛ سواء في فرنسا أو في الأندلس ، إلى أن لقي ربه شهيدًا في معركة (تولوز) بطرسونة يوم عرفة سنة (102 هـ) = 9 من يونيه 721 م .

★★★

(230) طَرَسُونَة مستقر العمال والقوّاد :

هي مدينة بالأندلس ، وهي مستقر العمّال والقوَّاد بالثغور ، وكان أبو عثمان عُبيد الله ابن عثمان المعروف بصاحب الأرض اختارها محلًّا ، وآثرها على مدن الثغور منزلاً ، وكانت تردُ عليه عُشُر مدينة أربونة وبرشلونة ، ثم عادت طرسونة من بنات تَطيلة عند تكاثر الناس بتطيلة وإيثارهم لها ؛ لفضل بقعتها واتساع خطَّتها .

★★★

(231) الولاية الأولى لعبد الرحمن الغافقي :

لمّا سقط السّمح بن مالك شهيدًا في أرض الجهاد ، اختار أهل الأندلس عبد الرحمن ابن عبد الله الغافقي رَحِمَهُ اللَّهُ أميرًا عليهم ، واستطاع بمهارته العسكرية أن يجمع شتات المسلمين ، ويعود إلى الأندلس في ذي الحجة (102 هـ) ، ولم تدم هذه الولاية إلا شهرين ، فقد عزله يزيد بن أبي مسلم عامل إفريقية ، وولى بدلاً منه عنبسة بن سحيم رَحِمَهُ اللَّهُ في صفر (103 هـ) .

(232) جهود عبد الرحمن الغافقي في هذه الفترة الوجيزة :

لمّا أقرّت الجماعة الغافقي واليًا للأندلس حتى يأتي الحاكم الجديد على إثر مقتل السّمح ، ارتدّ إلى الجنوب توًا ، واستطاع أن يخمد خلال هذه الفترة الوجيزة بوادر الخروج التي ظهرت في الولايات الجبلية الشمالية ، وأن يستبقي الجزية على أربونة وغيرها من قواعد سبتمانيا[1] ، ولبث يخمد الفتن ، ويصلح الأمور حتى قدم عنبسة بن سحيم الكلبي .

★ ★ ★

(233) ولاية عنبسة بن سحيم الكلبي :

اختاره بشر بن صفوان الكلبي والي إفريقية واليًا للأندلس ، وبعد أن رفض يزيد بن عبد الملك الذي خلف عمر بن عبد العزيز اعتبار الأندلس ولاية مستقلة ، عادت الأندلس تابعة في إدارتها لإفريقية كما كانت ، وقدم عنبسة في صفر (103 هـ) ، وأنفق حينًا في تنظيم الإدارة ، وضبط النواحي ، وإعداده لغزوات جديدة بعد إصلاح الجيش .

★ ★ ★

(234) عنبسة بن سحيم والتوغل في فرنسا :

كان رحمه الله قائدًا تقيًا ورعًا ، وإداريًا فذًّا ، ومجاهدًا حق الجهاد ، حكم بلاد الأندلس في الفترة من (103 هـ = 721 م) وحتى (107 هـ = 725 م) ، وقد وصل في جهاده مدينة (سانس Sens) التي تبعد عن باريس بنحو ثلاثين كيلومترًا ، وهذا يعني أنّ نحوًا من 70 ٪ من أراضي فرنسا كانت بلادًا إسلامية .

★ ★ ★

(235) أسقف باجة يشهد لعنبسة بالحِذق والمهارة :

يرى (إيزيدور) أسقف باجة في ذلك العصر أن فتوحات عنبسة كانت فتوحات

---

(1) سبتمانيا : هي ساحل (الريفييرا) الآن ، وتعدُّ من أشهر المنتجعات السياحية في العالم .

جِذق ومهارة أكثر منها فتوحات بطش وقوة ؛ ولذلك تضاعف في أيامه خراج بلاد الغال (فرنسا) ، وافتتح قرقشونة صلحًا بعد أن حاصرها مدة ، وأوغل في فرنسا فعبر نهر الرون إلى الشرق ، وأصيب بجراحات في بعض الوقائع فاستشهد وهو في طريق عودته إلى الأندلس (شعبان 107 هـ = ديسمبر 725 م) .

★★★

(236) باجة مدينة يوليوس قيصر :

هي من أقدم مدن الأندلس ، بُنيت في أيام القياصرة ، وهي من الكُوَر المجنَّدة ، وهي من أول المدن اختطاطًا ، وإليها ينتهي يوليوس قيصر ، وهو الذي سمّاها باجة ، وحَوْزَ باجة وخِطّتها واسعة ، ولها معاقل موصوفة بالمنعة والحصانة .

وتفسير باجة في كلام العجم : (الصُلْحُ) .

★★★

(237) مِنْ أعلام باجة :

ومنها الإمام القاضي أبو الوليد الباجي ، سليمان بن خلف ، شارح الموطأ ، الفقيه الأديب ، العالم المتكلم ، رحل إلى الحجاز والعراق ، ولقي العلماء ، وتجوّل ثلاثة عشر عامًا ، وصنّف في الأصول والفروع ، **يقول** :

إِذَا كُنْتُ أَعْلَمُ عِلْمًا يقينًا ... بأنَّ جَمِيعَ حَيَاتِي كَسَاعَهْ

فَلِمَ لا أكُونُ ضَنِينًا بها ... وَأَجْعَلُها في صَلاحٍ وَطَاعَه

★★★

(238) سبب تفاقم الخلل والاضطراب في الأندلس بعد وفاة عنبسة :

توالى على الأندلس مدى الأعوام الخمسة التي تلت وفاة عنبسة ، ستة ولاة ، **أولهم** : **عزرة بن عبد الله الفهري** ، الذي عدّ بعض المؤرخين ولايته غير رسمية ، فلبث شهرين ، ثم **يحيى بن سلمة الكلبي** في شوال (107 هـ) ، وامتد حكمه عامين ونصف لم تقع فيهما حوادث أو غزوات تذكر ، ثم **عثمان بن أبي نسعة الخثعمي** في

شوال (110 هـ) ، فلبث في منصبه ستة أشهر ثم عزل ، وخلفه حذيفة بن الأحوص القيسي فلم تطل ولايته سوى أشهر ، ثم **الهيثم بن عبيد الكلابي** أو الكناني في (111 هـ) ، وكان هذا التتابع سببًا في تفاقم الخلل والاضطراب في الأندلس ، وما لبث أن توفي الهيثم فاختارت الجماعة مكانه **محمد بن عبد الله الأشجعي** فلبث في منصبه شهرين حتى عُين **عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي** .

★★★

(239) ولاية عبد الرحمن الغافقي الثانية :

كان عبد الرحمن الغافقي جنديًا عظيمًا ، ظهرت مواهبه الحربية في غزوات غاليا ، وحاكمًا قديرًا بارعًا في شئون الحكم والإدارة ، ومصلحًا كبيرًا يضطرم رغبة في الإصلاح ، بل كان بلا ريب أعظم ولاة الأندلس وأقدرهم جميعًا ، حيث رحّبت الأندلس قاطبة بتعيينه ، وأحبه الجند لعدله ورفقه ولينه ، وجمعت هيبته كلمة القبائل ، وعاد الوئام نوعًا في الإدارة والجيش ، واستقبلت الأندلس عهدًا جديدًا .

★★★

(240) عبد الرحمن الغافقي والحسم العسكري :

تميّز القائد عبد الرحمن الغافقي من الناحية العسكرية بالحسم ، وهو مبدأ في غاية الأهمية ، ويحتاج إليه القائد ، حتى لا تتشتّت الأمور ويبعد الهدف في ظل التّراخي عن اتخاذ القرار وتأخير ذلك عن وقته ، كما تميّز أسلوبه العسكري النابع من فكره الصائب بالتوازن ، بين ما يملك من قوى وما يريد من أهداف ، إضافة إلى مبدأ الإعداد قبل التلاقي .

★★★

(241) المقصود بمبدأ الإعداد قبل التلاقي :

الإعداد قبل التلاقي ؛ **أي** : إعداد الجنود والشعب كله قبل المعركة إعدادًا قويًا من كافة النّواحي ، والتأكد من توافر كل أنواع القوة ؛ بداية من قوة الإيمان بالله ، مرورًا بقوة التماسك والأخوة بين الأفراد جميعًا ، الجيش والشعب ، وانتهاءً بقوة الساعد

والسلاح ، وهي القوة المادية ، وعدم الاستهانة أو التقليل من شأن أي نوع من أنواع هذه القوى ، فإن القصور في أيٍّ منها يجلب الهزيمة على الجيش كله .

معركة بلاط الشهداء

توربواتيه

(242) عبد الرحمن الغافقي يستكمل فتوحات عنبسة :

فتح عنبسة بعض البلاد ، ولا نستطيع القول بأنه فتح جنوبي غاليا أو حوض الرون ؛ لأنه في الواقع لم يفعل شيئًا لتثبيت أقدام المسلمين فيما وصلوا إليه من البلاد ، ولكنه على أي حال الفاتح المسلم الوحيد الذي وصل إلى هذا المدى في فتوحه ، وربما جاز عنبسة حملة عقبة الكبرى مع اختلاف الظروف .

★★★

(243) ظروف الأندلس لم تكن تسمح بمواصلة الفتوح :

لم تكن ظروف المغرب والأندلس تسمح بمواصلة الفتوح بالقوة التي عهدناها في المقاتلين ، وذلك بسبب الخلافات التي دبّت حديثًا بين العرب أنفسهم من ناحية ، وبين العرب والبربر من ناحية أخرى ، ثم إن حملة عنبسة أثارت مخاوف أوروبا الغربية كلها ، فقد اقتحمها العرب اقتحامًا وأوغلوا في داخل بلادها دون أن يستطيع أحد مقاومتهم .

★★★

(244) القائم بأمر مملكة الفرنجة يفكر بضرورة القيام بعمل حاسم :

لقد شعر القائم بأمر مملكة الفرنجة إذ ذاك ، وهو شارل مارتل – أو كارل – ، بأنه لابد أن يقوم بعمل حاسم إذا عاد العرب مرة أخرى ، وبالفعل بدأ يستعد للقاء حاسم ، فأخذ يجمع القوات والسلاح والأزواد ، وصالح أمراء برغندية ، واتفق مع رجال سبتمانية ومع الدوق أودو ليقوموا بعمل حاسم ضد المسلمين .

★★★

(245) انشقاق في صفوف المسلمين يودي بهم جميعًا :

ومن سوء الحظ أنه وقع انشقاق في صفوف المسلمين المقيمين في الثغر الأعلى الأندلسي – حوض الإيرو – ، فكان له أثر سيئ على سير الفتوح فيما بعد ، فإن (الدوق أودو) كان قد حالف المسلمين ، بل صاهر قائدًا بربريًا من قوادهم يسمى (مونوسة) كان مركزه في الناحية الغربية من جبال البرانس ، ولم يرضَ المسلمون عن هذا الصهر ؛ لأن (مونوسة) بدأ يأخذ جانبي (أودو) ورجال (أقطانية) ، وانتهى الأمر إلى انفصاله عن المسلمين بمن معه من الرجال .

★★★

(246) حماس عبد الرحمن الغافقي لا يلتفت إلى سياسة أو كياسة :

كان عبد الرحمن الغافقي جنديًا عنيفًا بالغ الحماس ، لا يلتفت إلى سياسة أو كياسة مما قلل فرص النصر الكبير أمامه ، فقد خرج للنصر في غاليًا مغاضبًا لعبيدة بن عبد الرحمن الفهري عامل إفريقية ، وكان قد اختلف مع مونوسة اختلافًا شديدًا ، فزاد نفور مونوسة وانضمت إليه جماعات من البربر كثيرة العدد والعتاد .

★★★

(247) عبد الرحمن الغافقي وصداقة لدوق أودو :

لم يحاول عبد الرحمن الغافقي أن يكسب صداقة الدوق (أودو) ، بل لم يعمل على إيقافه على الحياد ، وإنما عبر جبال ألبرت في صيف (732 م) من ممرات تشغالة ، فأقصي رأسًا إلى قلب بلاد أودو ، فاضطر إلى طلب العون من رجال الفرنجة .

★★★

(248) حملة عبد الرحمن الغافقي والاختلاف في عدد جنده :

خرج عبد الرحمن الغافقي لحملته الكبيرة في أوائل (114 هـ = 664 م) ، وكان معه أربعون ألفًا أو خمسون أو سبعون ألفًا ، على اختلاف الروايات ، أغلبهم من

البربر ، في حين تذهب الروايات النصرانية إلى أن عدد المسلمين كان أربعمائة ألف وهذا عدد مبالغ فيه جدًا .

★ ★ ★

(249) التوغل في بلاد فرنسا في اتجاه الشمال :

توجّه عبد الرحمن بجنوده ناحية فرنسا ، ودخل مناطق لم يدخلها السابقون ، فوصل إلى أقصى غرب فرنسا ، وأخذ يفتح المدينة تلو المدينة ، ففتح (أرل) ثم (بودو) ثم (طلوشة) ثم (تور) ثم وصل إلى مدينة (بواتيه) وهي المدينة التي تسبق (باريس) مباشرة ، والفارق بينها وبين باريس مائة كيلو متر تقريبًا ، وبينها وبين قرطبة حوالي ألف كيلومتر ، مما يعني أنه توغّل كثيرًا في اتجاه الشمال .

★ ★ ★

(250) عبد الرحمن الغافقي يعسكر بجيشه :

وفي مدينة (بواتيه) عسكر عبد الرحمن الغافقي في منطقة تُسَمَّى البلاط - أي القصر في اللغة الأندلسية - وعند قصر قديم مهجور كان بهذه المدينة ، بدأ في تنظيم جيشه لملاقاة جيش النصارى .

★ ★ ★

(251) تفاصيل معركة (بلاط الشهداء) :

إن لهذه المعركة خصيصة لا نجدها في أي معركة أخرى ؛ وهي أن المصادر الإسلامية تصمت صمتًا غريبًا لا نعرف له تفسيرًا عن أحداث المعركة ، وعن أسرار النصر والهزيمة ، الأمر الذي يجعلنا في حيرة غريبة : هل نعتمد على المصادر النصرانية لنأخذ منها أحداث تاريخنا أم نصمت كما صمتوا ؟

★ ★ ★

(252) سبب مقنع وراء الصمت الرهيب للمصادر الإسلامية :

أُدهش الدكتور حسين مؤنس لقلة تفاصيل هذه المعركة ، واجتهد في معرفة السبب

فلم يجد إلا أن **قال** : « الواقع أن المسألة لا تُعلل إلا بشيء واحد : هو أن هزيمة المسلمين كانت من الشدة بحيث كان أوائل الرواة ينفرون حتى من مجرّد ذكرها من فرط الألم والتشاؤم ، فاندرجت في مدارج النسيان ، وتعاقبت عليها العصور فلم يبق منها غير أنها كانت هزيمة مروعة بين سنتي (114 و 115 هجرية) » .

★★★

(253) لقاء مُرتقب وقوي :

دارت المعركة - على الأرجح - في (12 أو 13) أكتوبر 732 م = أواخر شعبان 414 هـ ، واستمرت المعركة إلى أوائل رمضان من نفس العام ، أي ما يقرب من أسبوع أو يزيد قليلاً ، وكان اللقاء على بعد عشرين كيلومترًا شمال بواتيه في الطريق إلى تور وجنوبي مجرى اللوار ، وكانت معركة حامية الوطيس ، بذل كلا الجانبين أقصى وسعه في القتال ، وصبر المسلمون صبرًا طويلاً .

★★★

(254) اهتزاز في مؤخرة جيش المسلمين حيث الغنائم :

حمل المسلمون على الفرنج حملة كادوا ينتصرون ، إلاّ أن فرقة من فرسان الفرنج استطاعت أن تنفذ إلى معسكر الغنائم خلف جيش المسلمين ، وهنا صاح الصائح على الغنائم ، فقفلت فرقة من الفرسان من قلب الجيش الإسلامي إلى الخلف مدافعة عن الغنائم فاهتز قلب الجيش ، ثم اهتز وضع الجيش جميعًا ، وعبد الرحمن الغافقي ينادي في الناس يحاول تجميعهم حتى أصابه سهم ألقاه من على فرسه شهيدًا .

★★★

(255) لمّا صارت الطامة طامتين تبعها انسحاب بذكاء :

عندما أحس المسلمون باستشهاد قائدهم ، صارت الطامة طامتين ، فارتبكت حركة الجيش ، واستمر القتال حتى هبط الليل فتحاجز الفريقان ، وانتهزت فلول المسلمين الفرصة فتسللت من مكان المعركة تحت الظلام ، فلما أصبح الفرنجة لم يجدوا

للمسلمين أثرًا ، ولكنهم وجدوا ذخائر عظيمة فانتهبوها ولم يفكروا في تتبع المسلمين ، فسلمت البقية منهم وعادت إلى أرغونة .

★ ★ ★

(256) الفرنجة يتقدمون في حذر من مضارب المسلمين :

لمّا أصبح اليوم التالي ، تقدّم الفرنجة في حذر من مضارب المسلمين فإذا هي خالية ، وقد فاضت بالغنائم والأسلاب والخيرات ، فظنوا الأمر خدعة ، وتريثوا قبل أن يجتاحوا المعسكر وينتهبوا ما فيه ، ولم يتبعوا المسلمين خشية أن يكون المسلمون قد أعدّوا لهم شركًا ، أو ربما يكون شارل مارتل قد اطمأن إلى العودة إلى بلاده سالمًا غانمًا منتصرًا .

★ ★ ★

(257) الهزيمة في تاريخنا ترتبط بالغنيمة :

يبدو أن الهزيمة في تاريخنا ترتبط بالغنيمة ؛ فقد فُتن الصحابة - رضوان الله عليهم - في أُحُد بالغنائم وخالفوا أمر نبيهم ﷺ ، فكانت الغلبة للمشركين ، ولقد وقفنا مرغمين عند آخر مدى وصلت إليه فتوحاتنا في شمال فرنسا بسبب الغنائم ، وتداعت أحلام المسلمين في فتح أوروبا بسبب الغنيمة .

★ ★ ★

(258) تراجع الحضارة العربية أمام الهمجية البربرية الأوروبية :

إن هذا النصر الفرنجي يعدُّ نصرًا كارثيًا من وجهة النظر الأوروبية ، حيث فطن بعض المنصفين من مؤرخي أوروبا ، **قال أناتول فرانس** : « إن أهم تاريخ في حياة فرنسا هو معركة بواتيه - بلاط الشهداء - حين هَزمَ شارل مارتل الفرسان العرب - المسلمين - في بواتيه سنة (732 م) ، ففي ذلك التاريخ بدأ تراجع الحضارة العربية أمام الهمجية والبربرية الأوروبية » .

★ ★ ★

سِرُّ هذه الهزيمة

(259) بُعد المعركة عن بلاد الإسلام حيث المدد وقرب الفرنجة من بلادهم :

دارت المعركة على بعد (400 كم) تقريبًا شمال جبال ألبرت ، وجبال ألبرت تبعد (900 كم) عن قرطبة ، وهذه مسافة شاسعة جدًّا تجعل موالاة الجيوش بالمؤن والأزواد والأمداد أمرًا عسيرًا ، فلو أرسل الغافقي رسالة استنجاد إلى قرطبة فإن حاملها لا يصل في أقل من شهرين ، في حين كان الفرنجة يحاربون في بلادهم وبين أهل عشيرتهم .

★★★

(260) جيش خليط من البربر والعرب فحدث الشقاق :

كانت الغالبية العظمى من المسلمين البربر ، وكان الجيش يزخر بهم ، ولم تكن العلاقات بينهم وبين العرب على ما ينبغي في هذه الظروف ، ولم يكن لدى عبد الرحمن الغافقي من السياسة وبُعد النظر ما يمكنه من إزالة أسباب الخلاف الجيشي ليستطيع السيطرة الكاملة على قواته .

★★★

(261) كان الوقت خريفًا :

كان الوقت خريفًا ؛ وهو موسم الأمطار الثقيلة في هذه النواحي ، والمسلمون لا يستريحون للبرد والمطر ، وكانت تلك المناطق كلها غابات ، والفارس العربي لم يكن يحسن الحرب في الغابات ، ثم إن خيول المسلمين الضامرة قد تأثرت دون شك بالبرد والأمطار ، ولم تعد تستطيع الحركة بنفس الخفة التي تعمل بها في الجو الدافئ الجاف .

★★★

(262) عبد الرحمن الغافقي والخطة المحكمة للقتال :

يبدو أن عبد الرحمن الغافقي كان جنديًا عظيمًا ، ولكن كانت تنقصه القدرة على

وضع خطة محكمة للقتال كما فعل حسان بن النعمان وطارق بن زياد ، بل ظلّ سائرًا حتى لقيه الفرنجة .

★★★

(263) ضخامة الغنائم من عوامل الهزيمة :

رغم ضخامة حملة عبد الرحمن الغافقي تلك ، إلاّ أنه كانت هناك مشكلة كبيرة تكاد تفتك بها ، وهي أن هذه الحملة كانت قد فتحت مدنًا كثيرة حتى وصلت إلى بواتيه ؛ فجمعت من الغنائم الكثير الذي زاد وثقُل في أيدي المجاهدين ، وهنا بدأ المحاربون ينظرون إلى هذه الغنائم ، ويُفْتَنون بهذه الأموال الضخمة التي حصَّلوها .

★★★

(264) عدد قتلى المسلمين في المعركة :

بالغت الروايات الأوروبية كثيرًا في أعداد قتلى المسلمين في هذه المعركة ، فتذكر بعضها أن قتلى المسلمين في بلاط الشهداء بلغ خمسة وسبعين وثلاثمائة ألف مسلم ، وهو بلا شك رقم مبالغ فيه جدًا ؛ لأن جيش المسلمين لم يتعدَّ خمسين ألفًا أو ثمانين ألفًا في أقصى التقديرات .

★★★

(265) عبد الرحمن الغافقي قائد المعركة الفاصلة :

كان قائد المعركة الأخيرة عبد الرحمن الغافقي آخر مسلم قاد جيشًا إسلاميًا منظمًا لاجتياز جبال البرانس ، ولفتح فرنسا ، وللتوغل - بعد ذلك - في قلب أوروبا ، وهُزم الغافقي. . . سقط شهيدًا في ساحة (بلاط الشهداء) إحدى معارك التاريخ الخالدة الفاصلة ، وتداعت أحلام المسلمين في فتح أوروبا ، وطووا صفحتهم في هذا الطريق .

★★★

كلمات علماء الغرب على هذا اللقاء بين الإسلام والنصرانية

(266) اللقاء الذي أنقذ البريطانيين من نير القرآن المدني والديني :

قال إدوارد جيبون : « إن حوادث هذه الموقعة أنقذت آباءنا البريطانيين وجيراننا الغاليين (الفرنسيين) من نير القرآن المدني والديني ، وحفظت جلال رومة ، وأخرت استعباد قسطنطينة ، وشدّت بأزر النصرانية ، وأوقعت بأعدائها بذور التفرق والفشل » .

★★★

(267) هي النجاة للإنسانية والضمان للسعادة مدى قرون :

ويعتبر المؤرخ أرنولد الموقعة : « إحدى هاته المواقف الرهيبة لنجاة الإنسانية وضمان سعادتها مدى قرون » .

★★★

(268) وضعَ حدًّا لفتوح العرب في غرب أوروبا :

ويقول السير (إدوار كريزي) : « إن النصر العظيم الذي ناله (كارل مارتل) على العرب سنة 732 م وضع حدًّا حاسمًا لفتوح العرب في غرب أوروبا ، وأنقذ النصرانية من الإسلام ، وحفظ بقايا الحضارة القديمة ، وبذور الحضارة الحديثة ، ورد التفوق القديم للأمم الهندية الأوروبية على الأمم السامية » .

★★★

(269) إنقاذ الأمم الغربية النصرانية من قبضة الإسلام الفتّاكة :

يقول (فون شليجل) في كلامه عن الإسلام والإمبراطورية العربية : « ما كاد العرب يُتمّون فتح إسبانيا حتى تطلّعوا إلى فتح غاليا وبرجونية ، ولكن النصر الساحق الذي غنمه بلاد الفرنج وبطلهم كارل مارتل أنقذ أمم الغرب النصرانية من قبضة الإسلام الفتّاكة ، الهدّامة » .

(270) (كارل مارتل) يحفظ هيبة النظم النصرانية المشرفة على الفناء :

يقول (رانكه) : « إن فاتحة القرن الثامن من أهم عصور التاريخ ، ففيها كان دين محمد ينذر بامتلاك إيطاليا وغاليا ، وقد وثبت الوثنية كرة أخرى إلى وراء الرّين ، فنهض إزاء ذلك الخطر فتى من عشيرة جرمانية هو (كارل مارتل) ، وأيّد هيبة النظم النصرانية المشرفة على الفناء ، بكل ما تقتضيه غريزة البقاء من عزم ، ودفعها إلى بلاد جديدة » .

الأحداث التي تلت بلاط الشهداء

(271) تولية عبد الملك بن قَطَن (114 هـ - 116 هـ) على الأندلس :

بعد نبأ استشهاد الغافقي عيّن عبيدة بن عبد الرحمن القيسي والي إفريقية عبد الملك بن قَطَن الفِهري على الأندلس ، وبعث للخليفة هشام بن عبد الملك يخبره بذلك فأقرّه الخليفة على ذلك ، وكان في رمضان أو شوال (114 هـ = 732 م) .

★★★

(272) عبد الملك بن قطن وتثبيت أمر المسلمين في المناطق الفرنسية :

كان همّ عبد الملك هو تثبيت أمر المسلمين في المناطق الفرنسية بعد أن بدأت تتهاوى بعد فجيعة توربواتيه ، وقد نجح في ذلك بعزمه وبانقلاب سكان جنوب فرنسا على شارل مارتل ، حيث كان يعاملهم بصلف وكبرياء ويطلق فيهم جنوده ، فاستطاع عبد الملك أن يعيد تنظيم المسلمين بقيادة يوسف الفهري الذي فتح مدنًا من آرل ، وأبنيون ، وفالانس ، وليون ، وأخضع إقليم دوفينيه الذي يمتد شرق نهر الرون ويشمل جزءًا كبيرًا مما يعرف اليوم بالرفييرا الإيطالية ، واشتغل بعد ذلك بإعادة سلطان نواحي جبال ألبرت .

★★★

(273) سياسة جديدة للمسلمين في هذه المناطق :

وهكذا نلاحظ أن المسلمين قد اتخذوا سياسة جديدة لحكم ما بأيديهم من فرنسا ألا

وهي إقامة حاميات قوية في المدن وتحصين قلاعها ، واتخاذ هذه القلاع مراكز للحكم والحرب ، كما كان في ليون ، وأبنيون التي يسميها المسلمون صخرة أبنيون ، وآرل ، وغيرها .

★★★

(274) عزل عبد الملك بن قطن وتولية عقبة بن الحجاج السلولي :

كان عبد الملك مع جهاده إلا أنه كان ظلومًا جائرًا عنيفًا سيئ السياسة ، فلم يجد والي إفريقية عبيد الله بن الحبحاب بُدًّا من عزله ، بعد أن كثرت شكاوى الأندلسيين منه ، فكان عزله في رمضان (116 هـ = 734 م) بعد سنتين من ولايته الأولى ، واختار لولاية الأندلس مجاهدًا فذًا يسمى عقبة بن الحجاج السلولي الذي تولى من سنة (116 هـ = 734 م) إلى سنة (123 هـ = 741 م) .

★★★

(275) عقبة بن الحجاج بين خيارين فاختار الأندلس :

وقد خُيّر عقبة بين إمارة إفريقية بكاملها (كل الشمال الإفريقي) وبين إمارة الأندلس ، ففضل إمارة الأندلس ؛ لأنها أرض جهاد ؛ لملاصقتها لبلاد النصارى ، **قال ابن عذارى** : « أقام عقبة بالأندلس بأحسن سيرة وأجملها ، وأعظم طريقة وأعدلها » ، وقال المقري : « وَوَلي عقبة بن الحجاج السلولي من قبل عبيد الله بن الحبحاب فأقام خمس سنين محمود السيرة ، مجاهدًا مظفرًا » .

★★★

(276) عقبة يُعلِّم الأسرى الإسلام :

قام عقبة خلال سنوات إمارته بأكثر من سبع حملات داخل فرنسا ، وكان ينزل إلى الأسرى بنفسه يعلمهم الإسلام ؛ حتى إنه أسلم على يديه ألف من الأسرى .

★★★

(277) عُقبة يعيد أمجاد الإسلام وجهاده :

بدأ عقبة يعيد أمجاد الجهاد الإسلامي في بلاد فرنسا ، فثبَّت أقدام المسلمين في روفانس - جنوب شرقي فرنسا - ، واستولى على بلاد الدوفينيه - شرقي ليون - وفتح مدينة سان بول ، وفتح مدينة أربُونَة عاصمة مقاطعة سبتمانيا ، وقرقشونة إحدى مدنها ، واتسعت فتوحات المسلمين حتى وصلت إلى مقاطعة بيدمونت بشمال إيطاليا .

★★★

(278) نهاية الفترة الأولى من عهد الولاة باستشهاد عقبة :

واصل عقبة جهاده لإقرار الفتح في المدن الأندلسية لاسيما في الشمال الغربي في أرض جيليقية ، والتي لم تكن قد فتحت حتى الآن ، وبلغ في ذلك غاية ما يستطيع ، إلا أنه قد واجه بسالة نادرة ، وظل مجاهدًا حسن السيرة بين جنده إلى أن استشهد سنة (123 هـ = 741 م) ، وباستشهاده انتهت الفترة الأولى من عهد الولاة .

★★★

(279) ثورات وأفكار لم تعهدها الأندلس :

بعد استشهاد عقبة وفي الفترة من (123 هـ = 741 م) وحتى (138 هـ = 755 م) ، تحكمت العصبيات القبلية والعنصرية البغيضة في معاملات ولاة الأندلس سواء مع العرب أو مع البربر (الأمازيغ) ، مما أدى إلى ظهور ثورات متعددة ، ودخول أفكار جديدة لم تشهدها الأندلس من قبل .

★★★

(280) أحداث جسام كادت تعصف بالإسلام في الأندلس كليّة :

تولى عبد الملك بن قطن الفهري الأندلس للمرة الثانية (123 هـ = 742 م) ، وتجدد الصراع العنصري البغيض بين العرب والبربر ، وظهرت طائفة الخوارج الذين أشعلوا الحروب وقادوا الثورات على عمال بني أمية ، الذين أساءوا استعمال السلطة

والمعاملة مع البربر مما أتاح للبربر اعتناق الأفكار الخارجة عن الدين لنيل حقوقهم المغتصبة من جور الولاة .

★★★

(281) ثورة الخوارج والتغلغل في صفوف البربر (الأمازيغ) :

بدأت الفتنة البربرية على يد الخوارج الذين تغلغلوا في صفوفهم ، وخرجوا بقيادة ميسرة المطغري - أو المدغري - على حاكم طنجة عمر بن عبد الله المرادي وقتلوه ، وزحفوا إلى بلاد السوس في الغرب وقتلوا عاملها إسماعيل بن عبيد الله .

★★★

(282) معركة الأشراف المنكرة :

وصلت كل هذه الأنباء إلى عبيد الله بن الحبحاب والي إفريقية ، فجمع جموعه وجيّش جيوشه ؛ ليتدارك الأمر قبل فواته وتعاظم قوة الخارجين عليه ، فالتقى الجيشان من العرب والبربر عند وادي شليف ، وكانت الهزيمة المنكرة للعرب ، فقد قُتل فيها أشرافهم وفرسانهم وأبطالهم ؛ لذلك سميت بمعركة الأشراف وذلك في سنة (123 هـ = 742 م) .

★★★

(283) هشام بن عبد الملك يغضب غضبة عربية :

بلغت أخبار الهزيمة الخليفة هشام بن الملك ، فغضب غضبته الشهيرة ؛ **وقال** : « والله ! لأغضبنّ لهم غضبة عربية ، ولأبعثنّ لهم جيشًا أوله عندهم وآخره عندي » ، حيث عزل عبيد الله بن الحبحاب ، وبعث كلثوم بن عياض القشيري على رأس جيش بلغ ثلاثين ألفًا ، وعهد له بولاية إفريقية وضبط أمورها ، وجعل معه ابن أخيه بَلْج بن بشر القشيري وثعلبة بن سلامة العاملي .

★★★

(284) الدائرة تدور على العرب مرة أخرى :

التقى الجيشان العربي بقيادة كلثوم بن عياض والأمازيغي (البربري) بقيادة خالد بن حميد الزِّناتي ، واقتتلوا قتالاً شديدًا ، لكن دارت الدائرة على العرب ، وقتل قائدهم كلثوم بن عياض ، واستطاع بَلْج بن بشر أن ينجو بنفسه وببعض من جنده ، وتحصَّنوا بمدينة سَبْتَة ، وفرض الأمازيغ الحصار على بَلْج لمدة سنة كاملة ، وكانوا طوال هذه السنة يستغيثون بعبد الملك بن قَطن والي الأندلس ، ولكن بلا مجيب .

★ ★ ★

(285) ثورات الخوارج في الأندلس تعصف بكبريات عواصم الأندلس :

ثارت ثورة الخوارج في الأندلس بقيادة البربر (الأمازيغ) ، وزحفوا باتجاه المدن الكبرى للسيطرة عليها من خلال ثلاثة جيوش ، وفق خطة ذكية أدركت مواطن الضعف في الولاية الأندلسية ؛ **فالأول** : اتجه إلى طليطلة عاصمة الثغر الأدنى ، **والثاني** : اتجه إلى قرطبة عاصمة الأندلس ، **والثالث** : اتجه إلى الجزيرة الخضراء في أقصى الجنوب للبلاد .

★ ★ ★

(286) العرب يُشَتِّتُون البربر ويسحقون ثورتهم :

كانت المواجهة الأولى بين بَلْج بن بشر والجيش الأمازيغي (البربري) الثالث المتجه ناحية الجزيرة الخضراء في جنوب الأندلس ، ووقعت المعركة في ذي القعدة (113 هـ) على مقربة من شَنْعَنة ، وأثبت فيها الجنود الشاميون بقيادة بَلْج شجاعة وإقدامًا رجَحَت كِفَّة النصر فيها للعرب ، وفي التوقيت نفسه كانت قرطبة تصدّ هجمات الجيش الأمازيغي (البربري) الثاني ، وبعدها انضم بشر لعبد الملك بن قطن فهزما الجيش البربري هزيمة ساحقة ، حتى لم يبق من الأمازيغ (البربر) إلا الشريد ، ثم جرت معركة طاحنة عند وادي سُلَيط سُحق فيها الجيش البربري الأول ، وسُحقت ثورتهم ، وتشتت جمعهم ، وتفرقوا في البلاد ، ولم تقم لهم بعدها قائمة .

★ ★ ★

(287) صراع على أرض الأندلس بين العرب القيسية واليمنية :

دار صراع بين عبد الملك بن قطن وبلج بن بشر ، بعد الانتهاء من القضاء على ثورة البربر ، إذ رفض بلج العودة إلى إفريقية ، وأعلن نفسه واليًا على الأندلس ، وانحازت العرب اليمانية إلى بلج وهجموا على ابن قطن في قرطبة واعتقلوه وصلبوه ، وتوجهت جموع المتحالفين مع قطن إلى قرطبة ، ودارت معركة ضارية أصيب فيها بَلْج بن بشر بسهم تسبب في موته بعدئذٍ ، وظلا في قتال مستمر حتى أرسل حنظلة بن صفوان والي إفريقية أبا الخطَّار حسام بن ضرار الكلبي لإنقاذ الموقف في الأندلس ، بعد أن كادت العصبية تعصف به ، وذلك في رجب سنة (125 هـ = 743 م) ، وقد رضي البلديون والشاميون به .

* * *

(288) أبو الخطّار يظهر العدل والإنصاف :

وصل أبو الخطّار إلى الأندلس فأظهر العدل والإنصاف ، وأطلق سراح الأسرى والسبي ، وتوحدت كلمة المسلمين في الأندلس ، أما أهل الشام فقد أُنزلوا في الكُوَر ، ومن هنا عاد الاستقرار والهدوء النسبي إلى الأندلس حينًا .

* * *

(289) العصبية القبلية تغلب أبا الخطّار :

يبدو أن داء العصبية والقبلية كان متجذرًا في النفوس ، فما هي إلا أيام حتى غلبت النزعة القبلية على أبي الخطّار وهو يمني متعصب ، فقد تحاكم عنده قيسي ويمني فحكم لليمني على القيسي رغم أن القيسي كان أبلغ حجة ، فشكاه القيسي للصُميل زعيم القيسية ، فذهب الصميل لأبي الخطّار ، فأهانه أبو الخطار ، فجمع الصميل قومه واستقطب بعض الشخصيات اليمنية الساخطة على أبي الخطار من اللخميين والجذاميين ومنهم ثوابة بن سلامة العاملي الجذامي ، حيث وعده الصُميل بالولاية إن هو انتصر على أبي الخطّار .

* * *

(290) لقاء مرتقب بين أبي الخطّار والصُّميل عند وادي لكة :

عجل أبو الخطّار إلى لقاء الصُميل وقومه القيسية ، وكان اللقاء عند وادي لكة في رجب (127 هـ = أبريل 745 م) ، وقد تفرّق جمع أبي الخطّار بعد أن تقاعس الكلبيون عن قتال بني عمومتهم من اللخميين والجُذَاميين ، ووجد أبو الخطّار نفسه وحيدًا ، فعزم على الفرار إلى قرطبة ، ولكن الصُميل قبض عليه وسجنه وخلعه ، وولّى مكانه ثوابة بن سلامة الجُذَامى عام (128 هـ = 745 م) .

★★★

(291) أبو الخطّار يتخذ خطوات عملية لاستعادة ملكه :

اجتمع رجال اليمنية من أنصار أبي الخطار لنصرته ، واستطاعوا التغلب على حُرّاسه ، وأخرجوه من السجن بقرطبة ، فأقام بين قبائل كلب وحمص ، واعترفوا به واليًا شرعيًا على الأندلس ، فتوجه أبو الخطار إلى قرطبة ليأخذها فخرج عليه ثوابة بن سلامة ، فتفرق الناس عن أبي الخطّار ، فانسحب بجيشه ليعيد الكرة مرة أخرى .

★★★

(292) الصّميل بن حاتم يرصد المعركة ويديرها من خلف الأستار :

ولم ينعم ثوابة بن سلامة بملك الأندلس طويلاً ، فقد وافاه الأجل بعد عام من ولايته في المحرم (129 هـ = 746 م) ، وبقيت الأندلس أربعة أشهر دون والٍ ، مع أن الصُميل كان يستطيع أن ينادى بنفسه واليًا ، إلا أنه لم يفعل ، فقد اكتفى برصد اللعبة السياسية وإدارتها من وراء الستار .

★★★

(293) ولاة كُثر في مقابل عقلٍ مدبر يقظ :

تميزت هذه الفترة من عهد الولاة بكثرة المرشحين للولاية ، ولكل منهم أتباعه ، فهذا أبو الخطار الكلبي ، وهذا يحيى بن حريث الجذامي ، وهذا عمرو بن ثوابة مُدعيًا

أنه أحق بالولاية بعد أبيه ، وفوق ذلك كله كان عقل الصُّميل بن حاتم وتدبيره ، وليس أدل على ذلك من **قوله** : « نُقَدّم رجلاً يكون له الاسم ، ويكون لنا الحظّ » .

★★★

(294) مِنّا أمير ومنكم أمير :

اشتد النزاع بين القيسية واليمنية ، حتى استطاع الصّميل الوصول إلى اتفاق يقضي بتقاسم السلطة بين القيسيين واليمنيين على شكل تعاقب سنوي في الحكم ، واقتنع الطرفان ، وتولّى (يوسف بن عبد الرحمن الفهري) وهو قيسي بعدما أقنع الصّميل يحيى بن حريث وأعطاه كورة ريَّة فرضي بها وقنع ، على أن يجتمع اليمنية بعد عام من تاريخ (جمادى الأولى 129 هـ = 747 م) ليختاروا الشخصية اليمنية التي ستلي الأمر بعد يوسف الفهري .

★★★

(295) تجدُّد الصراع بين القيسية واليمنية :

بعد استتباب الأمر ليوسف الفهري عزل الصميل يحيى بن حريث عن كورة رَيَّة ، حتى لا تقوى شوكته مرة أخرى ويكثر أنصاره من اليمنية ، فثارت روح العصبية مرة أخرى ، فدارت معركة كبيرة (130 هـ = 747 م) تسمى معركة شقندة ، واستمر القتال سجالاً حتى استعان الصميل بعوام السُّوق وغوغائهم فكان كل همهم القتل ، مما جعل الرعب يدب في اليمنية ، فقتل أبو الخطار بعدما وقع في الأمر ، وخارت قوى اليمنية فأثخن القيسية فيهم القتل والتشريد حتى دانت البلاد للفهري والصُّميل لا ينازعهما فيها أحد .

★★★

(296) يوسف الفهري يتخلص من الصُّميل :

أراد يوسف الفهري التخلص من الوصايا الفعلية عليه من قبل الصميل ، فأمر بتعيينه على إقليم سَرَقُسْطة (132 هـ – 750 م) ، وقبل الصُّميل لأن بلاده كانت تمرّ بفترة قحط

ومجاعة عظيمة ، وسلم من هذه المجاعة إقليم سرقسطة ، فكان في حال من الرغد والخير ، كما أن يوسف قد أرسل الصّميل إلى سرقسطة ليذل به اليمنية وهم أكثر أهلها .

★★★

(297) النزاع يعود مرة أخرى بين اليمنية والقيسية :

خلا الجو ليوسف الفهري في قرطبة ، ولكن ضعف شخصيته ، وقلة حنكته السياسية جعلت الناس يثورون عليه ، فثار عليه عامر بن عمرو العَبْدريّ وهو يمني ، فأرسل يوسف إلى الصميل يطلب منه النصح ، فأشار عليه بقتل عامر بن عمرو ولكنه خشي من ذلك ، وفطن عامر لذلك فاتفق مع اليمنية في سرقسطة وحاصر الصميل وتقاعس يوسف في نصرة الصميل ، فقام أتباع الصميل القيسية وانضم إليهم نفر من بني أمية ، فما إن سمع اليمنية بمقدم هذه الجموع حتى أسرعوا على الفور بفك الحصار ، فانطلق الصميل ناحية قرطبة ، ثم هاجم عامر العبدري سرقسطة واستولى عليها ، فعاد الصميل ويوسف إلى سرقسطة فأوقعا العبدري والزهري في الأسر وأُمرا بقتلهما .

★★★

(298) الأندلس تغيب عن الأذهان في فترة الصراع المشرقي على السلطة :

نتيجة للصراع على السلطة بين أفراد البيت الأموي منذ (125 هـ) وحتى (132 هـ) فقد فُقِدت كثير من الأراضي الإسلامية في فرنسا ، وظهرت مملكة نصرانية في الشمال عند منطقة الصخرة تسمى (مملكة ليون) ، وانفصل إقليم الأندلس عن الخلافة الإسلامية على يد يوسف الفهري ، وانقسمت الأندلس إلى فرق متناحرة وثورات لا نهاية لها ، وظهر فكر الخوارج الأمازيغ من جديد ، حتى ضاعت قضية الأندلس وغابت تمامًا عن الأذهان بقيام الدولة العباسية (132 هـ) .

★★★

(299) إصلاح الأندلس يحتاج إلى معجزة إلهية :

نتيجة لما سبق عرضه فقد أجمع المؤرخون على أن الإسلام في بلاد الأندلس كاد أن

ينتهي ، وذلك في عام (138 هـ = 755 م) ، وأصبح الأندلس في حاجة إلى إصلاح وإلى معجزة إلهية ، وبالفعل حدثت المعجزة بفضل من الله ومنّه وكرمه ، وذلك بدخول عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموي إلى الأندلس ، وذلك في شهر ذي الحجة (138 هـ = 756 م) .

★★★

(300) إماطة اللثام عن شخصية الصّميل الهمام :

الصّميل شخصية فريدة في بابها ، تجمع معظم النواحي الإيجابية والسلبية في كثير من العرب الجاهليين ، الذين دخلوا الإسلام دون أن يمس الإيمان قلوبهم ، فهو شجاع لا يهاب الموت ، كريم يجود بكل ما في يده دون تردد ، شهم لا يرتكب ما يمس المروءة ، وهو سيد مهذب يعرف كيف يعامل الناس ، شاعر يقول شعرًا يسيرًا ، ويعجب بالشعر الجيد ، أمي لا يعرف من القرآن إلا نزرًا يسيرًا ، عنيف في خصومته ، شديد الحقد لا ينسى ثأره ، ومسرف في العطاء لا يكاد يبقي شيئًا ، وكان لا يتورع عن شرب الخمر ، ذكي خبيث لا يفوته أمر ولا يتردد في القضاء على خصومه ، كسول في معظم أوقاته ، شديد الأذى لخصومه .

★★★

(301) الهدوء النّسبي يسود الأندلس :

في نهاية ولاية الصميل بن حاتم ويوسف الفهري ، وهي ولاية طويلة ميزتها الوحيدة أن الهدوء النسبي ساد البلاد أثناءها ، فلم نعد نسمع عن الخلافات العنيفة بين طوائف المسلمين من عرب وغير عرب ، ولكن وضع الأندلس يحتاج إلى أكثر من هذا الهدوء ، يحتاج إلى حكم قوي نشط ، فالقطر الأندلسي قد خضع للمسلمين ، ولكنه لم يتحول إلى بلد إسلامي بعد ، فقد كانت غالبية السكان نصرانية ، ولو استمر الأمر على الخلاف لتلاشى أمر المسلمين تمامًا من الأندلس .

★★★

(302) الأمويون يُحْصَدُون في الشرق دون رحمة :

قامت الدولة العباسية (132 هـ = 749 م) على مذابح واسعة النطاق أنزلها العباسيون بالأمويين انتقامًا منهم نتيجة - بزعمهم - لما ارتكبوه بآل البيت ، فحُصد الأمويون دون رحمة ، وقُتِل كل من كان مُؤهّلاً منهم لتولي الخلافة ، فقتلوا الأمراء وأبناء الأمراء وأبناء أبناء الأمراء إلا قلة ممن لم يستطيعوا الوصول إليهم .



الفصل الثالث

قيام الدولة الأموية الأندلسية

(303) أبناء معاوية بن هشام بن عبد الملك والمصير المحتوم :

من نتائج حصد الأمويين بلا هوادة أن قتل من أبناء معاوية بن هشام بن عبد الملك ، وكانوا أربعة ذكور عدا البنات ، اثنان ، فقد قتل الابن الأول فيمن قتل من الأمويين في دمشق عندما دخلها العباسيون ، أما الثاني فقد قتل في مذبحة « دير الجماجم » ، وفرّ الثالث والرابع ، فقد كانا في بعض قرى العراق عندما أقبل جند العباسيين للقضاء عليهما ، ففرا معًا .

★★★

(304) مصير الأخوين الهاربين :

كان أولهما عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، وكان في التاسعة عشرة من عمره ، وأخ صغير له في الثالثة عشرة ، اختبأ في مكان على ضفة الفرات ، ثم لجآ إلى أحد الصيادين ليعينهما على العبور ، فخانهما هذا الرجل ودلّ العسكر عليهما ففرا على وجهيهما وألقيا بنفسيهما في الماء ليعبرا سباحة ، ووقف الجنود على الشاطئ يدعونهما إلى العودة ويعدونهما بالأمان ، وارتد الأخ الأصغر ليعود ، وحذره أخوه فلم يسمع له ، فلم يكد يصل إلى الشاطئ حتى قُتل .

★★★

(305) عبد الرحمن بن معاوية بعد العبور :

وعَبَر عبد الرحمن بن معاوية النهر وهو لا يستطيع أن يتكلم ، أو يفكّر من شدة الحزن على أخيه ابن ثلاث عشرة سنة ، ثم اتجه إلى بلاد المغرب ؛ لأن أمه كانت من إحدى القبائل البربرية (الأمازيغ) فهرب إلى أخواله هناك ، في مسيرة هروب طويلة جدًا ؛ عبر فيها الشام ومصر وليبيا والقيروان .

★★★

(306) قصة الاختراق والوصول إلى الأخوال :

اخترق عبد الرحمن فلسطين ومصر ، ولحق به مولياه بدر وسالم ، أنفذتهما إليه أخته (أم الأصبغ) مع شيء من المال والجواهر ، ثم جاز إلى برقة والتجأ إلى أخواله بني نفزة ، وهم من برابرة طرابلس ، وكانت أمه بربرية منهم تدعى (راح) ، وأقام لديهم طويلًا يرقب الفرص حتى تتهيأ له محاولة الاستيلاء على إفريقية ، خاصة وأن هذا الأمل لم يكن بعيدًا عن ذهن الجريء المغامر .

★★★

(307) عبد الرحمن بن معاوية في (برقة) :

وصل عبد الرحمن بن معاوية إلى برقة ، وظل مختبئًا فيها خمس سنين إلى أن هدأت المطاردات ، ثم خرج إلى القيروان ، وكانت القيروان حينئذ في حكم (عبد الرحمن بن حبيب الفهري) ، وكان قد استقلّ فعليًا بالشمال الإفريقي عن الدولة العباسية ، وكان يرغب في أن يحكم الأندلس ؛ إذ الأندلس تبعٌ للمغرب .

★★★

(308) عبد الرحمن بن حبيب الفهري ومطاردة اللاجئين :

كان عبد الرحمن بن حبيب يخشى على سلطانه من ظهور بني أمية ، فطارد اللاجئين منهم ، وقتل ولدين للوليد بن يزيد بن عبد الملك ، واعتقل آخرين وصادر أموالهم ، ولما شعر بظهور عبد الرحمن الأموي حاول القبض عليه ، ولكن عبد الرحمن استطاع أن يتجنب المطاردة ، وفرّ مع صحبه إلى المغرب الأقصى ، وتجوّل حينًا في تلك الأنحاء ، ولقي كثيرًا من الصعاب والخطوب ، وكان يرى الموت والأسر ينذرانه في كل خطوة ، وأقام حينًا مختفيًا عند شيخ من شيوخ البربر يدعى (وانسوس) الذي كانت له فيما بعد لديه خطوة ، وكان أثناء تجواله يدرس أحوال الأندلس وأخبارها .

★★★

(309) لماذا الخوف من عبد الرحمن بن معاوية ومطاردته ؟! :

كان عبد الرحمن بن حبيب صاحب القيروان ، والحاكم الفعلي لمنطقة الشمال الأفريقي ، يعلم أن عبد الرحمن بن معاوية وهو الأموي سليل بيت الخلافة الأموية التي فتحت هذه البلاد ، ونصَّبت هؤلاء الولاة على مقاليدها ، وكانت تملك عزلتهم وتوليتهم ، لا يسعه أن يجلس في بيته قانعًا من الحياة بالعيش الطيب فحسب بل لابد له أن يطلب حقه في ملك آبائه وأجداده ، فما هي إلا بلادهم التي افتتحوها وملكوها وحكموها بالإسلام .

★★★

(310) عبد الرحمن بن معاوية بين الشرعية والانقلاب :

كان حكم بني أمية حكمًا شرعيًا لهذه البلاد - الأندلس - بعد أن فتحوها بجهادهم ، بينما انقلاب العباسيين على الأمويين موضع أخذ ورد وقيل وقال ، فظهور أموي في بلاد المغرب والأندلس يفتح في ذهن صاحب المغرب وصاحب الأندلس بابًا من الخوف والتوجُّس والانزعاج ؛ إذ الأموي أحق بحكم تلك البلاد ، وهي من ميراث أجداده العظام .

★★★

(311) نبوءة طريفة :

أجمعت كتب التاريخ على أن (مسلمة بن عبد الله) - الفاتح العظيم وفارس بني أمية - كان يتنبأ بزوال ملك بني أمية في المشرق ، ثم هروب فتى منهم لإحيائه في بلاد المغرب مرة أخرى ! وذهب البعض إلى أن الفتى هو عبد الرحمن بن معاوية هو مَنْ سيقيم ملك الأمويين في المغرب بعد زواله في المشرق .

★★★

(312) النتائج المترتبة على هذه النبوءة :

كان المؤرخون في هذه الفترة قد قاموا بتفسير جُلّ الأحداث في ضوء هذه النبوءة ؛

منها : إصرار العباسيين على مطاردة عبد الرحمن بن معاوية خاصة ، واتجاه عبد الرحمن إلى بلاد المغرب دون غيرها ، ورعاية هشام بن عبد الملك وحبه لحفيده عبد الرحمن دون سواه ، وسعي عبد الرحمن بن حبيب لقتل عبد الرحمن بن معاوية في القيروان .

★★★

(313) مدى صحة هذه النبوءة :

الحقيقة إن تاريخنا قد امتلأ كثيرًا بمثل هذه النبوءات التي لا نستطيع الجزم بمدى صحتها من كذبها ، إذْ لم تذكر المصادر المعاصرة أن هذه النبوءة قد ذكرت في كتب معاصرة للدولة ؛ لافتقار الدولة في ذلك الوقت للمؤرخين في بداية القرن الثاني ، وكثيرًا ما يُلصق التاريخ بالنبوءات ، ثم تسير الأحداث خلف النبوءة وكأنها وحيّ ، كما حدث في قصة سيف الدين قطز الذي تنبأ المنجم لخاله جلال الدين بن خوارزم شاه بأن غلامًا من أهل بيته سيهزم التتار ويكون له شأن عظيم .

★★★

(314) لماذا اتجه عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس دون غيرها ؟ :

بلغ عبد الرحمن بن معاوية أن عبد الرحمن بن حبيب يطلبه ليقتله ، فخرج من القيروان إلى (تادلا) ، ومنها إلى قبيلة نفزة ، ولم يكن الوضع هناك آمنًا بسبب الخوارج الذين يكرهون الأمويين ، فلم يَعُد أمامه إلا بلاد الأندلس ، فلو جرينا وراء النبوءة لوجدناها مطلبه وغايته وهدفه القديم ، ولكن بالنظر الدقيق نجد عبد الرحمن بن معاوية كان مطلوبًا في أي قطر من بلاد المسلمين من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب .

★★★

(315) دور المولى (بدر) في سير الأحداث :

منذ هذه اللحظة يبدأ تدخل المولى (بدر) الذي ربط مصيره بمصير سيده الشاب وتفانى بلا حدود في خدمته ، وفي هذا المقام تجدر الإشارة إلى أنه بجوار كل مؤسسي الممالك في المغرب الإسلامي ، يظهر دائمًا خادم أمين يدير الأحداث ويعين

المغامرين والأمراء المخلوعين في بحثهم عن مملكة أو إمارة ، تجلى هذا في دور الخادم سلامة مع سيف الدين قطز .

★★★

(316) المولى (بدر) يدرس الموقف :

في سنة (136 هـ = 753 م) بدأ عبد الرحمن بن معاوية يُعِدُّ العُدّة لدخول الأندلس ، فأرسل مولاه بدرًا لدراسة الموقف ، ومعرفة القوى المؤثرة في الحكم فيها ، فلقد كانت الأندلس في تنازع بين اليمنية والقيسية وهما عماد الدولة الأندلسية التي يحكمها عبد الرحمن بن يوسف الفهري .

★★★

(317) المولىٰ (بدر) يَجْمع بين عبد الرحمن ومحبي الدولة الأموية :

راسل عبد الرحمن بن معاوية كل محبي الدولة الأموية عن طريق مولاه بدر ، حيث اشتهر بنو أمية على مرّ العصور بالسخاء والسياسة والحكمة ، واكتساب ثقة الناس ، وحسن معاملتهم ، والجهاد ، وفتح البلاد ، مما كثّر من أتباعهم في جميع الأقطار ، وعرض عليهم فكرته وعزمه على دخول الأندلس مع طلب المعونة والنصرة والمدد .

★★★

(318) خطوات مؤثرة توصل عبد الرحمن إلى موالي بني أمية :

خطا المولى بدر خطوات مؤثرة ووصل إلى موالي بني أمية وشيخهم - أبي عثمان - ، وحاول الاتصال بالقيسية فتخوف الصُّميل من سيطرة عبد الرحمن بن معاوية على الموقف وأخبر بدرًا بذلك ، فذهب إلى اليمنية فرضوا وتمّ لهم الأمر .

★★★

(319) نجاح مُبْهر للمولى (بدر) في مهمته :

نجح (بدر) في مهمته ، فأرسل رسولاً إلى عبد الرحمن **يقول له** : « إن الوضع أصبح جاهزًا لاستقبالك هناك ، وحينما سأله عن اسمه ، **قال** : تمّام ، **قال** : وما كنيتك ؟

قال : أبو غالب ، **فقال** : الله أكبر ! الآن تم أمرنا ، وغلبنا بحول الله تعالى وقوته » .
وبدأ يعد العدة ، ويجهز السفينة التي أخذته منفردًا إلى بلاد الأندلس .

★★★

(320) صاحب أكثر الشخصيات تأثيرًا في الأندلس :

الحقيقة أن (بدرًا) مولى عبد الرحمن الداخل من أكثر الشخصيات تأثيرًا في قصة عبد الرحمن الداخل ، وله دور كبير منذ لحظة الهروب من الشام ، ثم قيامه بالسفارة بينه وبين مواليه ، وكان مؤثرًا في أخطر الأمور ، **مثل** : توليه الأندلس ، وتوثيقه للتحالف ، ثم دوره كقائد للجيش ، وبعدها ينتهي نهاية مأساوية وغامضة ، دون أن يعرف أحد الأسباب الحقيقية ، الأمر الذي أثار حيرة المؤرخين ، والمعلومات التي جمعت عنه قليلة جدًا .

★★★

(321) عبد الرحمن الداخل في إشبيلية بالأندلس :

نزل عبد الرحمن ساحل الأندلس ، فاستقبله مولاه بدر ، وبدأ عبد الرحمن يجمع الأمويين والمعارضين ليوسف بن عبد الرحمن من حوله ، ودخل التحالف الأمويون الهاربون إلى الأندلس مع اليمنية وعلى رأسهم أبو الصباح اليحصبي ، الذين كان مستقرهم إشبيلية ، فاجتمعوا هناك وبايعه أبو الصباح على القتال والنصرة .

★★★

(322) عبد الرحمن الداخل يعرض على الفهري أن يكون أحد رجاله :

وقبل القتال أرسل عبد الرحمن بن معاوية عدّة رسائل إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهري يطلب ودّه ، على أن يُسلّم له الإمارة ، ويكون الفهري رجلًا من رجاله في بلاد الأندلس بحكم أنه حفيد هشام بن عبد الملك ، لكن يوسف رفض ذلك ، وجهّز جيشًا لمحاربة عبد الرحمن بن معاوية ومن معه .

★★★

(323) ذكاء شديد يفوق سِن الخامسة والعشرين :

لمّا أصبح الحل العسكري هو الحل الحتمي ، وكان القيسية هم عماد يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، واليمنية هم ذراع عبد الرحمن بن معاوية الأيمن ، وقبل القتال سمع أبو الصباح قولة من اليمنيين **تقول** : « إن عبد الرحمن بن معاوية غريب عن البلاد ، ثم إنّ معه فرسًا عظيمًا أشهب ، فإن حدثت هزيمة فسيهرب من ساحة القتال ، ويتركنا وحدنا للفهريين » ، فلما وصلت تلك القولة لعبد الرحمن ذهب بنفسه إلى أبي الصباح ، **وقال له** : « إن جوادي هذا سريع الحركة ، ولا يُمكِّنني من الرمي ، فإن أردت أن تأخذه وتعطيني بغلتك فعلت » ، فأعطاه الجواد السريع وأخذ منه البغلة يُقاتل عليها ، **وحينئذ قال اليمنيون** : إن هذا ليس بمسلك رجل يُريد الهرب ، إنما هو مسلك مَنْ يُريد الموت في ساحة المعركة .

★★★

(324) موقعة (المصاهرة) التاريخية :

التقى المسلمون بسيوفهم ، وكان الحل العسكري هو الحل الحتمي في ذلك الوقت (ذي الحجة 138 هـ = مايو 756 م) ، ودارت معركة قوية انتصر فيها عبد الرحمن بن معاوية ، وفرّ يوسف الفهري وتشرد في نواحي الأندلس حتى قتل في قرية قريبة من طليطلة ، ثم حُبس الصميل ومات في معتقله مخنوقًا .

★★★

(325) ميلاد عصر جديد في تاريخ الغرب الإسلامي :

انتهى اللقاء بنصر حاسم لعبد الرحمن بن معاوية ، ووصل قرطبة ونزل دار الإمارة مساء ذلك اليوم ، ثم صلّى بالناس وخطب على منبر قرطبة ، ويعتبر ذلك اليوم ميلاد دولة عبد الرحمن الداخل في الأندلس ، بل ميلاد عصر جديد في تاريخ الغرب الإسلامي كله .

★★★

(326) قَوْلة تتردد في أصداء التاريخ إلى يومنا هذا :

من عادة المنتصر تتبع المهزوم والقضاء على فلوله ، وحين أراد جيش عبد الرحمن أن يتتبع القيسية ، قال لهم عبد الرحمن قولة تنمُّ عن علم ونبوغ وفهم وفكر صائب ، **وتقدير للأمور** : « لا تستأصلوا شافة أعداءٍ ترجون صداقتهم ، واستبقوهم لأشد عداوة منهم » ؛ لأن هؤلاء الذين ستقاتلونهم اليوم هم من جنودنا غدًا وعون لنا على أعدائنا النصارى وغيرهم في ليون وفرنسا .

★★★

(327) إنسانية عبد الرحمن وحسن سيرته في الأندلس :

كانت الهزيمة كبيرة على يوسف الفهري وأنصاره ، لدرجة أن عبد الرحمن لم يجد في طريقه إلى قصر قرطبة أحدًا ، وسيطر جنوده على ما كان في يد جنود يوسف ، وأرادوا التشفي من يوسف ونسائه ، فمنعهم من ذلك ، وكسا من عَري من أولاد يوسف ، وردّ ما قدر على ردّه ، وأقام بظاهر قرطبة ثلاثة أيام حتى يترك الفرصة لأهل يوسف الفهري أن يجمعوا أمرهم وأن يخرجوا بأمان .

★★★

(328) كلمات أسرَّها عبد الرحمن في نفسه ولم يبدها :

بعد انتهاء المعركة رفض عبد الرحمن بن معاوية سبي أولاد يوسف وحريمه ، وهنا غضب اليمنية وساءهم ذلك ، وداخلهم أن عبد الرحمن الداخل تعصب لنسبه المضري ، بل وصل الأمر بأبي الصباح اليحصبي أن **قال** : « يا معشر يَمَنْ ؛ هل لكم في فتحين في يوم ، قد فرغنا من يوسف وصميل ، فلنقتل هذا الفتى المقدام ابن معاوية ؛ فيصير الأمر لنا ، نقدِّم عليه رجلًا منا ، ونحلّ عنه هذه المضرية » ، فلم يجبه أحد لذلك ، ووصلت هذه الأخبار إلى عبد الرحمن ، فما كان منه إلا أن أسرّها في نفسه ولم يبْدها لهم .

★★★

(329) لماذا أسرَّ عبد الرحمن هذه الكلمات الخطيرة ؟ وما دلالة ذلك ؟

لم يُعلِم عبد الرحمن الناس بما وصل إليه ، ولكنه أصبح على حذر شديد من أبي الصباح اليحصبي ، فهو لم يُرد أن يحدث خللًا وشقًا في الصف الإسلامي في هذه الأوقات المليئة بالثورات والمعارك الداخلية ، فالهمّ الأكبر هو تجميع الناس ضد النصارى ، فلما تحين الفرصة عزل أبا الصباح بعد إحدى عشرة سنة ، وبذا استطاع أن يمتلك زمام الأمور في الأندلس كلها .

سياسة عبد الرحمن الداخل

في إدارة الدولة الجديدة

(330) الثنائية الثقافية للشعب الأندلسي :

ابتداءً من أيام عبد الرحمن الداخل ، لا تتعجب عندما تعرف أن لغة الحديث في القصر والشارع وشئون الأُسَر والأسواق كانت مزيجًا بين العربية والإسبانية ، في حين كانت الفصحى لغة الدولة والدين والأدب والعلم والرسميات ، وقد صاحب هذه الثنائية الثقافية الشعب الأندلسي على طول تاريخه .

★★★

(331) العهد الجديد لا يعترف بعنصرية بغيضة :

قامت دولة عبد الرحمن على عون كبير من العرب اليمنيين والبربر البلديين ، وقد تصور اليمنيون البلديون أن انتصار عبد الرحمن معناه أن الدولة صارت دولتهم ، وأنهم يستطيعون الآن أن يستمروا في الفوضى والاستخفاف بالناس والأموال والإغراق في العصبيات ، ولكنهم فوجئوا بعهد جديد لا يعترف بقيسي أو يمني ، ولا يفرق بين شامي أو بلدي أو بربري ، إنما الجميع في وطن واحد ، ولابد لهم من الخضوع جميعًا لقرطبة العاصمة .

★★★

(332) خطة عبد الرحمن الداخل في معالجة الثائرين عليه :

كان عبد الرحمن يعتمد في خطة المعالجة السريعة للخارجين عليه على استخدام الفرق الطيارة من الفرسان تحت قيادة واحدة من كبار رجال دولته ، وقد يسير هو بنفسه ، وقد استطاع القضاء على ثورة العلاء بن مغيث الحضرمي في باجة ، ثم القضاء على ثورة سعيد اليحصبي المعروف بالمقري ، ثم القضاء على ثورة اليمنيين في نبلة في جنوب غرب الأندلس ، وعلى محاولة مماثلة في إشبيلية ، وكانت أصعب ثورة واجهته ولم يستطع القضاء عليها إلا بعد عناء شديد هي ثورة شقيا (أو شعيا) بن عبد الواحد الذي زعم أنه من أبناء فاطمة الزهراء ، وقد قامت في شنتيرية (160 هـ) .

★ ★ ★

(333) ثورة العلاء بن مغيث الحضرمي وتأييد أبي جعفر المنصور :

راسل أبو جعفر المنصور ، المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ، العلاء بن مغيث ليقتل عبد الرحمن الداخل ويضم الأندلس إلى أملاك الدولة ، وأرسل له الراية السوداء ، ولكن عبد الرحمن قضى كعادته عليه ، وهنا **قال أبو جعفر** : « قتلنا هذا البائس - يعني العلاء - ، ما لنا في هذا الفتى من مطمع - يعني عبد الرحمن الداخل - ، الحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر » .



(334) مَنْ صقر قريش من الملوك ؟

ذُكر أن أبا جعفر المنصور **قال يومًا لبعض جلسائه** : **أخبروني** : مَنْ صقر قريش من الملوك ؟ **قالوا** : ذاك أمير المؤمنين الذي راض الملوك ، وسكَّن الزلازل ، وأباد الأعداء ، وحسم الأدواء . **قال** : ما قلتم شيئًا ! **قالوا** : فمعاوية ؟ **قال** : لا ، **قالوا** : فعبد الملك بن مروان ؟ **قال** : ما قلتم شيئًا ، **قالوا** : يا أمير المؤمنين ؛ فمن هو ؟ **قال** : صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية ، الذي عبر البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلدًا أعجميًا ، منفردًا بنفسه ، فمصّر الأمصار ، وجنّد الأجناد ، ودوّن الدواوين ، وأقام مُلكًا عظيمًا بعد انقطاعه ، ووطّد الخلافة بالأندلس ، وافتتح

الثغور ، وقتل المارقين ، وأذلّ الجبابرة الثائرين » ، **فقال الجميع** : صدقت والله يا أمير المؤمنين .

★★★

(335) سبب سقوط مدن المسلمين :

في خلال الأربع والثلاثين سنة الممتدة من بداية حكم عبد الرحمن الداخل وحتى نهايته ، كان هناك أكثر من خمس وعشرين ثورة في كل أنحاء الأندلس ، وفي السنوات الأربع الأولى من بداية دخول عبد الرحمن إلى الأندلس (138 - 142 هـ = 755 - 759 م) ، سقطت كل مدن المسلمين التي كانت في فرنسا ، وذلك بعد أن حكمها الإسلام طيلة سبع وأربعين سنة متصلة .

★★★

(336) عبد الرحمن الداخل يبدأ بإنشاء جيش قوي :

اعتمد عبد الرحمن الداخل على عنصر المولدين وضمّ الفصائل المُضرية سواء كانت من بني أمية أو من غيرهم ، كما اعتمد على الصقالبة[1] ، وأكثر من استخدام المماليك من غير العرب لاسيما البربر حتى صار له منهم أربعون ألفًا ، ووصل تعداد جيش عبد الرحمن الداخل مائة ألف فارس ، كما أنشأ دورًا للأسلحة ، ومصانع للسيوف والمجانيق ، وكان من أشهر هذه المصانع مصانع طُلَيطلة ، ومصانع يرديل .

★★★

(337) ميزانية الدولة بين يدي عبد الرحمن الداخل :

كان عبد الرحمن يقسم ميزانية الدولة السنوية إلى ثلاثة أقسام : قسم ينفقه بكامله على الجيش ، والقسم الثاني لأمور الدولة العامّة من مؤن ومعمار ومرتبات ومشاريع وغير ذلك ، والقسم الأخير كان يدّخره لنوائب الزمان غير المتوقعة .

★★★

(1) **الصقالبة** : هم أطفال نصارى ، كان قد اشتراهم عبد الرحمن الداخل من أوروبا ، ثم قام بتربيتهم وتنشئتهم تنشئة عسكرية إسلامية صحيحة .

(338) عبد الرحمن الداخل والعناية بالعلم والعلماء والجانب الديني :

اهتم عبد الرحمن بن معاوية اهتمامًا كبيرًا بالعلم والجانب الديني ، وعمل على نشر العلم وتوقير العلماء ، واهتم بالقضاء والحسبة ، وكان أكبر عمل قام به هو بناء مسجد قرطبة الذي أنفق عليه ثمانين ألفًا من الدنانير ، وكان من العلماء في أيامه معاوية بن صالح بن حدير الحضرمي ، وكان من جُلّة أهل العلم ومن كبار المحدثين ، ومن العلماء سعيد بن أبي هند والذي لقبه الإمام مالك بن أنس بـ (الحكيم) لما عُرف عنه من رجاحة عقله .

★★★

(339) عبد الرحمن الداخل والعناية بالجانب الحضاري المادي :

اهتم عبد الرحمن الداخل بالإنشاء والتعمير وتشييد الحصون والقلاع والقناطر وربط الأندلس أوله بآخره ، وأنشأ الرُّصافة ، وهي من كبرى الحدائق في الإسلام ، وقد أنشأها على غِرار الرصافة التي كانت بالشام ، والتي أسسها جَدُّه هشام بن عبد الملك ، وقد أتى لها عبد الرحمن بالنباتات العجيبة من كل بلاد العالم ، عسى أن تنتشر هذه الزراعات والنباتات في كل بقاع الأندلس .

★★★

(340) سياسة عبد الرحمن الداخل في الحفاظ على دولته من أطماع الأعداء :

استطاع صقر قريش أن يؤمن حدود دولته ، حيث علم أن الخطر الحقيقي يكمن في دولتي (ليون) في الشمال الغربي ، و(فرنسا) في الشمال الشرقي من بلاد الأندلس ، وقام بتنظيم الثغور وأعدّ جيشًا قويًا على الثغور المقابلة لبلاد النصارى ، وقد تعلم من آبائه وأجداده الجهاد المستمر وبصورة منتظمة كل عام ، فقد اشتهرت (الصوائف)[1] في عهده ، وهو ما يطلق عليه (الهجوم الإجهاضي المسبق) .

★★★

(1) **الصوائف** : وهو خروج المسلمين للجهاد في الصيف ، وبصورة منتظمة ؛ وذلك حين يذوب الجليد ، وكان يتناوب عليهم فيها كبار القواد بهدف الإرباك الدائم للعدو .

(341) صقر قريش في عيون المؤرخين :

قال عنه ابن حيّان الأندلسي : « كان عبد الرحمن راجح الحلم ، راسخ العلم ، ثاقب الفهم ، كثير الحزم ، نافذ العزم ، بريئًا من العجز ، سريع النهضة ، متصل الحركة ، لا يخلد إلى راحة ، ولا يسكن إلى دعة ، ولا يكِلُ الأمور إلى غيره ، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه ، شجاعًا مقدامًا ، بليغًا مفوّهًا ، شاعرًا محسنًا ، سمحًا سخيًّا ، كان يحضر الجنائز ، ويُصلي عليها ، ويصلي بالناس إذا كان حاضرًا الجُمع والأعياد » .

★★★

(342) صقر قريش الإنسان :

كان عبد الرحمن الداخل شخصية تُشخصُ إليها الأبصار ، وتبهر القلوب ، وإذا اجتمعت الشورى على رأي كان نافذ العزم في تطبيقه ، ومع هيبته عند أعدائه وأوليائه إلا أنه كان يتبسّط مع الرعية ، ويعود مرضاهم ، ومع شدة حذره وقلة الطمأنينة كان يسير بلا حارس ، ومع طول مدة حكمه إلا أنه لم يُؤثَر عنه أيُّ خلق ذميم أو فاحش ، بل مدحه العلماء بالعلم والفضل وحسن الخلق .

★★★

(343) حياة صقر قريش في سطور :

كانت حياة القائد والصقر عبد الرحمن الداخل وقفًا على الجهاد وإقامة الدولة الإسلامية ، وتثبيت بُنيانها ، وإرساء دعائمها ، وردّ الطامعين فيها ، فكانت الأيام التي عاشها في طمأنينة وراحة لا تزيد على أيام قليلة ، فقد كانت حياته حركة مستمرة في تنظيم الجيوش ، وعقد الرايات ، وتوجيه القوات ، وتحصين الثغور ، والقضاء على الفتن والثورات ، ووضع أسس البنيان الحضاري .

★★★

(344) وفاة صقر قريش :

عاش عبد الرحمن الداخل تسعًا وخمسين سنة ، منها تسع عشرة سنة في دمشق

والعراق قبل سقوط دولة الأمويين ، وستّ سنوات فرارًا من بني العباس وتخطيطًا لدخول الأندلس ، وأربع وثلاثون سنة في المُلك ببلاد الأندلس ، وتُوفي بقرطبة ودُفن بها في (جمادى الأولى 172 هـ = أكتوبر 788 م) .

الإمارة الأموية وفتراتها الثلاث

(345) فترة القوة تبدأ من حكم عبد الرحمن الداخل إلى حكم عبد الرحمن الأوسط :

بدأ تأسيس عهد الإمارة الأموية في عهد عبد الرحمن الداخل الذي استمر حكمه قرابة أربعة وثلاثين عامًا ، واستمرت قوة هذه الإمارة مائة عام منذ (138 هـ = 755 م حتى 238 هـ = 852 م) ، وتعتبر هذه الفترة هي فترة القوة والمجد والحضارة والهيمنة الكاملة للدولة الإسلامية على ما حولها من مناطق ، وقد خلف عبد الرحمن الداخل ثلاثةِ من الأمراء ، هم : هشام بن عبد الرحمن ، والحكم بن هشام ، وعبدِ الرحمن الأوسط .

★★★

(346) هشام بن عبد الرحمن شبيه عمر بن عبد العزيز في علمه وعمله :

استقر أمر عبد الرحمن الداخل على ابنه هشام خليفة له ، ورغم أنه أصغر من أخيه سليمان ، إلا أنه كان أكفأ منه وأفضل ، وكان الناس يشبهونه بالخليفة عمر بن عبد العزيز في علمه ، وعمله ، وورعه ، وتقواه ، وقد بايعه العوام بعد وفاة أبيه حيث كان بـ(ماردة) ، وعاد إلى قرطبة بعد ستة أيام ، وكان ذلك سنة (172 هـ = 788 م) .

★★★

(347) لقاء عند جَيّان بين الإخوان :

كان سليمان بن عبد الرحمن الداخل بطليطلة ، ولما علم بالأمر غضب وأعلن الثورة على أخيه ، وجهز جيشًا توجه به إلى قتال أخيه في قرطبة ، وانضم إلى سليمان

أخوه عبد الله الأصغر ، ودارت الحرب بين الإخوة ، انتهت بهزيمة سليمان وفراره إلى طليطلة ، فبادره هشام بالهجوم ، ففر إلى قرطبة فهاجمه أهلها ، ففر إلى ماردة فردّه واليها ، ثم إلى مُرسية ثم إلى بلنسية ، إلى أن يئس وطلب الأمان فأمّنه أخوه كما أمّن عبد الله من قبل ، وتركهما يذهبان إلى الشمال الإفريقي .

★★★

(348) اللغة العربية في عهد هشام تُدرَّس في معاهد اليهود والنصارى :

كان هشام بن عبد الرحمن محبًا للعلم والعلماء ، يقرّب إليه العلماء والفقهاء ، ورغب في نشر اللغة العربية ، وبذل في ذلك مجهودًا وافرًا وعظيمًا ، حتى أصبحت اللغة العربية تُدرس في معاهد اليهود والنصارى داخل أرض الأندلس .

★★★

(349) أبرز التغيرات الجوهرية في عهد هشام بن عبد الرحمن الداخل :

كان من أبرز التغيرات الجوهرية ، التي تمت في الأندلس في عصره ، انتشار المذهب المالكي فيها بعد أن كانت البلاد من قبل على مذهب الأوزاعي ، وكانت له صولات وجولات مع النصارى ، وبرز في عصره علماء ، منهم (صعصعة بن سلامة) الشامي ، الذي كان يعمل بالإفتاء أيام عبد الرحمن الداخل ، ومن المحدثين في عصر هشام عبد الرحمن بن موسى ، وقد توفي صعصعة وعبد الرحمن بن موسى في خلافة هشام بن عبد الرحمن .

★★★

(350) وفاة شبيه خامس الخلفاء الراشدين :

توفي هشام بن عبد الرحمن الداخل في صفر (180 هـ = إبريل 796 م) ، فكانت خلافته سبع سنين وتسعة أشهر ، وتوفي رحمه الله وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأربعة أشهر وأربعة أيام ، ودُفن في القصر ، وصلّى عليه ابنه الحكم .

★★★

(351) أمير لا يشبه أباه ولا يتَّبع الحكمة في معاملة الثائرين كجدِّه :

بعد هشام تولى الحكم ابنه الحكم في (180 هـ = 796 م) وحتى (206 هـ = 821 م) ، ولكنه لم يكن على شاكلة أبيه ، إذ كان قاسيًا ، فارضًا للضرائب ، مهتمًا بالشعر والصيد ، ولم يكن كجده في التعامل مع الثائرين ، إذ وصل به الأمر في أخريات حياته أن حرق بيوت الثائرين ونفيهم خارج البلاد .

★ ★ ★

(352) الحكم بن هشام وثورة الرَّبض :

الرّبض : هم قوم يعيشون في إحدى ضواحي قرطبة ، ثاروا ثورة عظيمة على الحكم بن هشام ؛ بسبب ما عرف عنه من اللهو والمجون وشرب الخمر ، وقتله لجماعة من أعيان قرطبة ، فكان ردّ فعل الحكم أن حَصّن قرطبة ، وحفر الخنادق حولها ، وسوّرها ، وقرّب منه جنوده ، فزحفوا إلى القصر ، فقاتلهم قتالاً شديدًا هو وجنده حتى تغلب عليهم ، ثم أحرق وخرّب ديارهم ، وقتل ثلاثمائة من وجهائهم وصلبهم ، وطردهم خارج البلاد .

★ ★ ★

(353) النتائج المترتبة على سوء العلاقة بين الحاكم والمحكوم :

نتيجة هذه الأفعال التي قام بها ، والظلم الذي استشرى ، ساءت العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، فسقطت بعض البلاد الإسلامية في يد النصارى ، **مثل** : برشلونة التي أصبحت تُمثّل إمارة نصرانية صغيرة في الشمال الشرقي ، عُرِفت في التاريخ باسم إمارة أرجوان ، وكانت متاخمة لحدود فرنسا بجوار جبال البرينيه في الشمال الشرقي للبلاد .

★ ★ ★

(354) اعتذار وتوبة وحسن اختيار :

مَنّ الله على عبده الحكم قبل وفاته بعامين بأن تاب الله عليه ، ورجع عن ظلمه ، واستغفر واعتذر للناس عن ذنوبه ، ثم اختار من أبنائه أصلحهم ، وإن لم يكن الأكبر ؛ ليكون وليًا لعهده .

(355) عبد الرحمن الأوسط بين الداخل والناصر :

تولى بعد أبيه ؛ وسمي بالأوسط لأنه توسط بين عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الناصر ، وقد حكم من (206 هـ = 821 م) وحتى (238 هـ = 852 م) أي في نهاية عصر القوة من عهد الإمارة الأموية ، وفترة حكمه هي من أفضل فترات تاريخ الأندلس ، حيث استأنف الجهاد ، وهزم النصارى في هزائم عدّة ، وكان محبًا للعلم ، هادئ الطباع ، محبًا للناس .

★★★

(356) أمير شبيه بالوليد بن عبد الملك :

قال الصَّفدي عنه : « كان عادلاً في الرَّعية بخلاف أبيه ، جوادًا فاضلًا ، له نظر في العلوم العقلية ، وهو أول من أقام رسوم الإمرة ، وامتنع عن التبذُّل للعامة ، وهو أول من ضرب الدراهم بالأندلس ، وبنى سور إشبيلية ، وأمر بالزيادة في جامع قرطبة ، وكان يُشَبّه بالوليد بن عبد الملك ، وكان محبًا للعلماء مقربًا لهم ، وكان يقيم الصلوات بنفسه ، ويُصَلّي إمامًا بهم في أكثر الأوقات . . . وهو أول من أدخل كتب الأوائل في الأندلس ، وعرَّف أهلها بها ، وكان حسن الصورة ذا هيئة ، وكان يكثر تلاوة القرآن ، ويحفظ حديث النبي ﷺ ، وكان يُقال لأيامه أيام العروس ، وافتتح دولته بهدم فندق الخمر وإظهار البرّ ، وكان حسن التدبير في تحصيل الأموال وعمارة البلاد بالعدل ، حتى انتهى ارتفاع بلاده في كل سنة ألف ألف دينار .

★★★

(357) أشهر علماء عصر عبد الرحمن الأوسط عباس بن فرناس :

عباس بن فرناس (274 هـ = 887 م) كنيته أبو القاسم ، كان من أهل قرطبة ، ومن موالي بني أمية ، وبيته في برابر (تاكرنا) ، وكان فيلسوفًا شاعرًا وله علم بالفلك ، وهو أول من استنبط في الأندلس صناعة الزجاج ، وصنع (الميقاتة) لمعرفة الأوقات ، ومثّل في بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها ، وهو أول طيار اخترق الجو ، وأراد تطيير جثمانه ، فكسا نفسه الريش ، ومَدّ له جناحين طار بهما في

الجو مسافة بعيدة ، ثم سقط فتأذى في ظهره ؛ لأنه لم يعمل له ذنبًا ، ولم يدرِ أن الطائر إنما يقع على زِمِكّه[1] .

★★★

(358) ظاهرة (التسوُّل) لم تعرف في بلاد الأندلس :

اهتم عبد الرحمن الأوسط بالعمارة والاقتصاد والتجارة ، فكثرت الأموال ، وتقدمت وسائل الريّ ، ورصفت الشوارع ، وأنيرت ليلاً في هذا العمق القديم جدًا في التاريخ ، في وقت كانت أوروبا تعيش في ظلمات الجهل وظلام دامس ، ولم يكن يوجد في الأندلس ما يسمى بـ (التسول) ؛ إذ لا تجد فيها سائلاً إلا أن يكون صاحب عذر ، فالتسول مستقبح عندهم .

★★★

(359) حرب العصابات ، و(غزوات الفايكنج) أيام عبد الرحمن الأوسط :

حرب العصابات : هي حروب همجية كانت يقوم بها النورمان من أهل إسكندنافيا (الدنمارك والنرويج وفنلندا والسويد) ، وكانوا يقومون بغزوات عرفت بـ (غزوات الفايكنج) حيث أغاروا على أماكن متفرقة من بلاد العالم ، وليس لها من همّ إلا جمع المال وهدم الديار ، فهجمت على إشبيلية من طريق البحر في أربع وخمسين سفينة ، وأفسدوا فيها ، ودمروها ، ونهبوها ، وهتكوا أعراضها ، ثم ذهبوا إلى شَذونة وألمريَّة ومُرسية ، وأشاعوا الرُّعب والفزع .

★★★

(360) رد فعل عبد الرحمن الأوسط تجاه النورمان :

لمّا علم عبد الرحمن الأوسط بذلك جهّز جيشًا وأعدّ عدّته ، وفي مائة يوم كاملة دارت بينه وبينهم معارك ضارية ، أغرق خلالها خمسًا وثلاثين سفينة للفايكنج ، وانتصر المسلمون انتصارًا مؤزًا ، وعاد النورمان إلى بلادهم خاسئين خاسرين ، وقام

---

(1) **زمك الطائر** : ذَيْله وذَنَبه . لسان العرب « زمك » (10/ 436) .

عبد الرحمن بعدها بتطهير البلاد وتحصينها فأنشأ الأسوار حول إشبيلية ، فظلت بعده من أحصن حصون الأندلس ، وأنشأ أسطولين قويين على المحيط الأطلسي والبحر المتوسط ففتح بهما جُزُر البليار ، وبلغت البلاد في عهده شأنًا عظيمًا .

★★★

(361) وفاة (الرضا) عبد الرحمن الأوسط :

كانت آخر غزوة سيّرها عبد الرحمن الأوسط إلى جليقيّة في ربيع سنة 179 هـ ، وبعدها بقليل توفي في الثالث من صفر بسنة 180 هـ = 18 أبريل 796 م ، في نحو الأربعين من عمره ، بعد أن حكم نحو ثمانية أعوام ، وكان أبيض ، أشهل مشربًا بحمرة ، وبعينيه حول ، وكنيته أبو الوليد ويلقب بالرضا ، وفي عهده ساد الأمن والاستقرار ربوع الأندلس بالرغم مما وقع خلاله من الثورات المحلية .

★★★

(362) استحداث نظام الوزارة :

نظام الوزارة هذا من المبتكرات الكبرى في التنظيم السياسي الأندلسي ؛ لأن تاريخ البيت الأموي كان غنيًا بالشخصيات ذات الكفاية التي أطلقتها باستمرار البيوت الموازية ، ومنذ أيام عبد الرحمن الداخل لم يتجه البيت الأموي إلى إيجاد وظيفة الوزير بصورتها واختصاصاتها ، وإنما وجدت هذه الوزارات فيما بعد ، بظهور شخصيات ممتازة حقًا من أمثال عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، وعيسى بن شهيد ، وهو ما جعل من الضروري أن يحوز أولئك الرجال ألقابًا ثابتة .

★★★

(363) أشهر الوظائف والألقاب في البيت الأموي بعد استحداث نظام الوزارات :

ظهرت شخصيات وألقاب بعد عبد الرحمن الداخل ، إذ وجدنا عبد الكريم بن عبد الواحد يصبح قائد الجيوش مدة طويلة ، ويصبح عيسى بن شهيد قائدًا أيضًا ، ثم نجد لقبًا آخر يضاف إلى ابن مغيث وهو الحاجب ، وترتبط بوظيفة الحاجب كل

الاختصاصات التي كانت للوزير في المشرق ، وتصبح الحجابة في الأندلس كالوزارة في المشرق ؛ إذ يصبح الحاجب هو ثاني شخصية في الدولة بعد الأمير .

★★★

(364) توزيع الاختصاصات الإدارية بين رجال الدولة :

وقد وزعت الاختصاصات الإدارية بين رجال من أفراد الدولة ، فهذا للمال ويسمى الخازن ، وذلك للأمن ويسمى صاحب الشرطة ، وذلك للمنشآت ويسمى صاحب الأشغال ، ثم نجد لقب الوزير يعطى لهؤلاء على أنه لقب تشريف أو درجة وظيفية في أول الأمر ، ثم بعد ذلك يرتبط باختصاص معين ، فتجد الوزير عيسى بن شهيد يقود الصوائف ويسمى بالوزير القائد ، ويوسف بن بخيت يتولى شئون المال ويسمى بالوزير الخازن .

★★★

(365) استحداث منصب (رئيس الوزراء) في عهد الأوسط :

ومن أيام عبد الرحمن الأوسط نجد الوزير في الأندلس له معنى الوزير في أيامنا واختصاصاته ومسئولياته ، ويصبح الحاجب رئيس الوزراء ، فهو الوزير الكبير ، وهو الذي يلقى الأمير كل يوم ويناقشه في شتى المسائل .

★★★

(366) اجتماع مجلس الوزراء في عهد عبد الرحمن الأوسط :

وبعد أن يتلقى الحاجب (رئيس الوزراء) الأوامر من الأمير ، نجده يجتمع كل يوم مع أصحاب الوزارة في دار خاصة عرفت باسم (بيت الوزارة) ، وفي هذ البيت يجلس الوزراء على ترتيب معين في هيئة دائرة ، لكل واحد منهم وسادة يجلس عليها ، ووسادة الحاجب أعلى من بقية الوسائد ، ونجد لكل واحد من الوزراء ديوانه وكتّابه ؛ أي سكرتاريته .

★★★

(367) وماذا بعد اجتماع مجلس الوزراء ؟

والمسائل تُدرس وتتخذ فيها القرارات ، ثم يأخذها الحاجب إلى الأمير ، ويعرضها عليه ، فما يتفق عليه يدخل ديوان الأمير لتحرر له الصيغة الديوانية أو القانونية المناسبة ، ثم يقدمها إلى الأمير الوزير صاحب العرض لتختم بخاتم الأمير ثم بخاتم الدولة ، وتصدر على النحو الذي تصدر به المراسيم اليوم ، وتكون سارية المفعول من يوم صدورها .

★★★

(368) الوظيفة الكبيرة أو (الخطط) :

كانت الوظيفة الكبيرة تسمى في الأندلس بـ (الخطة) ، مثل : خطة الوزارة ، وخطة الخيل ، وخطة الأعنّة[1] ، وخطة الكتابة ، وهي تعادل ديوان الإنشاء في المشرق ، وخطة المظالم ؛ ويراد بها النظر في الشكاوى المقدمة ضد رجال الدولة ، وتطبيق الأحكام على طبقات أهل المملكة ، وخطة القيادة ، وخطة الأشغال ، وخطة البحر .

★★★

(369) ثالث شخصية في الدولة (قاضي الجماعة) :

كانت خطة القضاء من الخطط الكبرى في الأندلس ، ويراد به قضاء الجماعة أو قضاء قرطبة ، وصاحبها يشبه وزير العدل ، فهو يتولى القضاء ويوزع القضاة على المدن والأقاليم ، وهو ثالث شخصية بعد الأمير والحاجب ، وكان أدنى خطأ ظاهر منه يؤدي إلى عزله ، وكان له سلطة على الأمير نفسه في مسألة العدالة ، وكان من واجباته الحيلولة بين رجال القصر وكبار الموظفين وبين ارتكاب المخالفات ؛ ولهذا كان القاضي رجلًا مرهوب الجانب ، وكان الكثيرون يتحاشون هذه الوظيفة خوفًا من عدم استطاعتهم إقامة العدل أو تحرزًا من خدمة أمراء لا يرضون عن تصرفاتهم .



---

(1) الأعنة : المفرد عِنَان ، وهو ما تمسك به الدابة .

(370) الفقهاء المشاورون ومكانتهم في الأندلس :

كان إلى جانب الأمير عدد كبير من الشيوخ ذوي العلم الواسع والخلق المتين والدين القويم ، يشاورهم الأمير في كبار شئونه ، وخاصة الدينية ، وقد أراد الأمير أن يستفيد من مكانة أولئك الفقهاء الكبار في نفوس الناس ، فقربهم إليه ، واختار من بينهم أوسعهم علمًا ، وكان يعتبرهم أهل الشورى ، وأول من نسمع عنهم يحيى بن يحيى الليثي أيام عبد الرحمن الأوسط الذي أصبح من أكبر شخصيات الدولة ، فقد عُيِّن وزيرًا للعدل .

★★★

(371) عمل الفقهاء المشاورين فرادى أم جماعات :

ولم يكن للفقهاء المشاورين هيئة تحويهم معًا لتتخذ قرارًا ، بل كان الأمير يستشيرهم فرادى ، فقد يستدعيهم ، وقد يرسل لهم القضايا في بيوتهم ليبدوا آراءهم فيها ، وكان يحيى الليثي كبير المشاورين في عهد الأوسط ، إذ كان لا يُقدَّر شيءٌ في شئون القضاة إلا برأيه ، وقد استبدّ بأمر القضاة حتى ثقل عليهم ، فلما مات **قال ابن عذارى** : « في هذه السنة مات يحيى بن يحيى الليثي واستراح القضاة من همه » .

★★★

(372) أكابر القضاة في الأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط :

وقد تعاصر أيام عبد الرحمن الأوسط ثلاثة ، يعدون من أكابر الفقهاء في تاريخ الأندلس كله ، **هم** : عبد الملك بن حبيب ، ويحيى بن يحيى الليثي ، وعيسى بن دينار ، وقد **قيل** : إن عبد الملك عالم الأندلس ، وعيسى بن دينار فقيهها ، ويحيى ابن يحيى عاقلها » .

★★★

(373) طلائع الشعر الشعبي في عصر عبد الرحمن الأوسط (الموسوم بالزجل) :

وفي عصر عبد الرحمن الأوسط نرى طلائع الشعر الشعبي الأندلسي ، وهو شعر

يصاغ في عامية أهل الأندلس ، ولكنه يلتزم أوزان الشعر العربي ، وخاصة السهل الجاري منها كالرمل والرجز ، وقد عرف هذا الشعر بالزجل ، والزجل الذي يقال في كل بلاد العروبة ولد في الأندلس في الغالب ، ونحن نسمع عنه أول ما نسمع في تلك البلاد .

★★★

(374) لغة الحوار بين أهل الأندلس في هذه الفترة :

وعامية أهل الأندلس خليط من العربية والبربرية والأيبرية الرومانية ، كان يقول : « كيروكاس ولما » ، أي : « أريد كأس ماء » ، و« مي آلما حزن دا اليوم » ، أي : « نفسي حزينة اليوم » ، و« اشتريت من السوكر سبانيا بلانكا » ، أي : « اشتريت من السوق غطاء رأس أبيض » .

★★★

(375) ظهور (الموشح) الأندلسي :

بعد ازدهار الزجل في الأندلس ، ظهر (الموشح) ، وهو ابتكار أندلسي ، فقد كانوا يأخذون مركز إحدى الأغاني الشعبية باللغة الإسبانية الدارجة ، وينسجون على منواله أربعة أشطار أو خمسة تنتهي بذلك المركز الذي يسمى (خرجة) ، ثم أربعة أبيات أخرى عربية تنتهي بنفس الخرجة ، وهكذا .

الـــــــســــــــر حـــــــق ‏ ‏ ‏ وأنـــــا بـــــه أشـــــهـــــد

أضـــــل الـــــعـــــشـــــق ‏ ‏ ‏ مـــــهـــــجـــــتـــــي ولا يـــــنـــــفـــــد

وابـــــن صـــــدقـــــو ‏ ‏ ‏ مـــــن خـــــريـــــدة تـــــنـــــشـــــد

★★★

(376) انتشار (الموشح) في بلاد الإسلام :

وانتقل الموشح إلى بلاد الإسلام كلها ، وأصبح نوعًا جاريًا من الشعر يجمع بين العربية الفصيحة والعاميّة الدارجة ، وكان أول ظهوره على يد مقدم بن معافي القبري الذي نشأ أيام عبد الرحمن الأوسط .

(377) شاعر الأندلس الأول حتى أوائل عصر عبد الرحمن الناصر :

كان من أكبر شعراء الشعر الفصيح في ذلك الوقت أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه ، صاحب كتاب (العقد الفريد)[1] ، وكان شاعرًا أشبه بالرسمي للأمراء ، يقول شعرًا كثيرًا ، ولكنه اقتصر كثيرًا على المديح والتهاني والفخر والمراثي ، وقد احتفظ بمكانة ممتازة ، إذ ظل شاعر الأندلس الأول حتى توفى أيام عبد الرحمن الناصر في سنٍّ عالية ، وله أرجوزة في تاريخ أمراء الأندلس أدرجها في كتاب (العقد الفريد) ، وقد ترجمت إلى الإسبانية نظرًا لأهميتها التاريخية .

★★★

(378) شاعر الأندلس الثاني (مؤمن بن سعبن) :

على عكس ابن عبد ربه كان معاصره مؤمن بن سعبن ، فقد كان رجلًا متداخلًا كثير الوقوع في الناس ، دائم الدعاية ، فنال الناس من أذاه شيء كثير ، وآذوه ، ولكن حياته غير السعيدة بخيرها وشرها ، بحلوها ومرّها ، تصوّر لنا جوانب شتى من حياة الناس في الأندلس .

★★★

(379) شاعر الأندلس الثالث (أبو بكر بن هذيل) :

أما شاعر الأندلس الثالث فهو أبو بكر بن هذيل ، كان شاعرًا مجيدًا ، يحسن إنشاد أشعار الروضيات والوصفيات ، وقد شهد وهو صغير جنازة ابن عبد ربه فآلى على نفسه أن يبلغ شأوه ، ووصل إلى ما أراد بجده ودأبه ، وكان ضريرًا .

★★★

(380) أعظم بحار مسلم (ليون الطرابلسي) :

في أواخر القرن الثالث الهجري ، ظهر شرقي بحر الروم أعظم بحار في ذلك

---

(1) **العقد الفريد** : كتاب جامع شامل في الأدب العربي الجاهلي والإسلامي ، يصور لنا مفهوم العرب الأوائل للأدب ، وهو الأخذ من كل شيء بطرف الثقافة العامة .

العصر ، وأعظم بحّار مسلم على الإطلاق ، وهو أمير البحر الذي تعرفه الرواية البيزنطية باسم ليون الطرابلسي ، ويسميه المؤرخون المسلمون (غلام زرافة) ، وكانت أعظم غزوة قام بها هي غزوة (تسالونيكا) في (291 هـ = 904 م) ، حيث سار من طرسوس نحو بلاد الروم ففتح مدينة (أنطاكية) وهي تعادل القسطنطينية ، وهي (تسالونيكا) حيث فتحها بالسيف عنوة فقتل خمسة آلاف رجل وأسر مثلها ، واستنقذ من أسرى المسلمين مثلها ، وغنم ستين مركبًا من مراكب الروم بما فيها من المتاع والمال والرقيق ، فقسمها مع غنائم أنطاكية فكان السهم ألف دينار .

★★★

(381) غزو المسلمين رومة (236 - 256 هـ) :

كانت مملكة العالم (رومة) لا تزال في ذلك العهد ، الذي فقدت فيه منعتها القديمة ، تتمتع بلمحة من هيبتها الذاهبة ، وكان القوط والوندال واللومبارد قد غزوها مرارًا وأثخنوا في أنحائها الضخمة القتل ، ولكنهم احترموا أحياءها ومعاهدها المقدسة ، وفي سنة (231 هـ = 846 م) سارت حملة كبيرة من صقلية نحو الشمال بحذاء الشاطئ الإيطالي ، وضربوا الحصار على مدينة القياصرة ، فارتاع البابا ، واهتز الشعب الروماني فرقًا ورعبًا ، وبادر الإمبراطور لويس الثاني ملك الفرنج بإرسال حملة لرد الغزاة ، وكاد النصر يكون حليف المسلمين لولا خلاف الزعماء المسلمين أنفسهم ، وتوالت حملات السرايا المسلمة ؛ ففي (256 هـ = 870 م) نشط أمراء البحر المسلمون في ثغور إفريقيا والأندلس ، وقصدوا شواطئ إيطاليا ، وبين مدّ وجزر ونصر وهزيمة اضطر البابا يوحنا الثامن إلى أن يفاوض المسلمين على الجلاء مقابل دفع جزية سنوية قدرها خمسة وعشرون ألف مثقال من الفضة .

★★★

(382) نشأة الأسطول :

كان نتيجة للخطر النورماني المحدق ، أن تنبّه عبد الرحمن الأوسط إلى أهمية الأسطول ، فبدأ بإنشائه إنشاء محكمًا ، واتخذ له دور الصناعة والقواعد في لشبونة ،

وإشبيلية ، وولية ، وألمرية ، وبلنسية ، ومالقه ، ولم تنقض سنوات حتى كان للأندلس أسطولان قويان أحدهما في المحيط الأطلسي ومركزه لشبونة ، والثاني في البحر المتوسط وقاعدته مالقه ، ومن منتصف القرن التاسع الميلادي يظهر الأندلس كقوة بحرية كبرى ، وتبدأ قطع البحرية والأسطول ترسو كعماد من عمد قوة إمارة قرطبة .

★★★

(383) من ثمرات إنشاء الأسطول قيام ولاية الجزائر الشرقية :

كانت أولى ثمرات قيام ذلك الأسطول فتح الجزائر الشرقية المعروفة بالبليار سنة 234 هـ – 848 م ، وضمها إلى الأندلس ، ومن ذلك الحين تصبح جزائر البليار الكبرى الثلاث ، ميورقه ، ومنورقه ، ويابسة ، من ولايات الإمارة الأندلسية ، وقد أنشئت ولاية الجزائر الشرقية سنة (235 هـ = 849 م) .

★★★

(384) فتنة تعصب نصرانية منبعها رهبان النصارى :

ظهرت في أيام عبد الرحمن فتنة تعصب نصرانية أثارها نفر من الرهبان ، وكان أولئك الناس يؤكدون لأتباعهم قبل ذلك أن الإسلام باطل ، وأن دولته لا تلبث أن تزول ، فلما رأوا الثقافة العربية الإسلامية تغزو الشباب النصراني انفجرت مراجل حقدهم ، فجاهروا الإسلام بالعدوان وإهانة المقدسات علنًا أمام الناس ، فيقتادون إلى القضاة فيحكمون عليهم بالإسلام ، وهنا يزعمون أنهم يموتون شهداء حتى يستثيروا عواطف الناس ويوهموهم بأن المسلمين يقتّلون في النصارى .

★★★

(385) ولاية العهد في مملكة الأندلس :

لم يكن في الأندلس نظام خاص لولاية العهد ، بل كانت ولاية العهد ، كما هو مأثور ، حقًّا مفوضًا للأمير أو الإمام ، يجريه وفق المصلحة العامة ، ولم يكن انحصاره في ولد الأمير أو أسرته سوى تقليد من تقاليد السياسة والعصبية ، سارت عليه الدولة الأموية ، فوضعت بذلك في الدول الإسلامية أسس العروش المتوارثة ، وكان

من الطبيعي بعد أن ظفر عبد الرحمن الأموي بالإمارة أن يحيي تراث أسرته المندثرة في المشرق ، فكوّن أسرة ملوكية جديدة تتعاقب في العرش ، وتعيد بالأندلس مجد الدولة الأموية الذاهب .

★★★

(386) فترة الضعف من بعد عبد الرحمن الأوسط :

بدأت مرحلة الضعف من سنة (238 هـ = 852 م) وحتى (300 هـ = 913 م) ، **أي** : حوالي اثنتين وستين عامًا ، حيث تولى بعد عبد الرحمن الأوسط ابنه محمد ابن عبد الرحمن الأوسط ، ثم اثنان من أولاده ؛ **هما** : المنذر وعبد الله ، فانفتحت الدنيا على الأمراء والناس ، وكثرت القبلية ، وانتشر الظلم حتى عمّ الدولة ، وتركوا الجهاد ، وقد نشأت هذه المساوئ منذ عهد القوة أثناء وبعد موقعة بلاط الشهداء .

★★★

(387) مكانة عبد الرحمن الأوسط في الشعر :

يحتل عبد الرحمن الأوسط في تاريخ الشعر الأندلسي مكانًا يفوق مكانة أسلافه ، فقد نظم بعض المقطعات الشعرية في جاريته طروب ، كما ردّ على الشاعر عبد الملك ابن الشَّمَر حينما مدحه ، كما أنه استقدم (زرياب)[1] المغني المشهور الذي أدخل إلى الأندلس الموسيقا والغناء .

★★★

(388) زرياب على أعتاب الأندلس :

كان (زرياب) تلميذًا لإسحاق الموصلي في بغداد ، ثم وقعت بينهما مجافاة ؛ لأن (زريابًا) أبدى من المهارة في حضرة الرشيد ما فاق به أستاذهُ ، فأكل الحسد قلب الموصلي ، فرأى (زرياب) ألا مناص من الخروج عن العراق ، فخرج إلى الغرب

---

(1) **زرياب** : طائر أسود مغرّد .

ناجيًا بنفسه من غضب أستاذه ، وعرض خدماته على الحكم الربضي فدعاه إلى القدوم عليه في قرطبة ، فسار (زرياب) حتى بلغ الجزيرة الخضراء .

★ ★ ★

(389) زرياب مُوسيقيّ القصر :

لمّا ولي عبد الرحمن الحكم أدخل زريابًا في خدمته ، وفرض له عطاءً قدره مائتا دينار في الشهر ، وقرر له ثلاثة آلاف دينار في كل من العيدين ، وفرض له كذلك مائتي مُدٍّ من الشعير ، ومثلهما من القمح ، هذا إلى حدائق وقصور وهبةٌ تقدر قيمتها بأربعين ألف دينار ؛ فأقبل (زرياب) وأصبح موسيقي الأمير .

★ ★ ★

(390) زِرْيَاب يُدخل في الأندلس (الفن والموضة) :

اختلف زرياب مع إبراهيم الموصلي في الشرق فاتجه نحو الأندلس ، وكانت - في غالب الأمر - لا تعرف الغناء ، ومع ذلك استقبلوه أحسن استقبال ، وعظّموه ، وأحسنوا وفادته حتى دخل على الخلفاء ، وبيوت العامة ونواديهم ، وأخذ يغني للناس ويعلمهم ما قد تعلمه في بغداد من الغناء وتأليف ما يسمى بـ (الموشحات الأندلسية) ، وفنون الموضة ، وملابس الشتاء والصيف والربيع والخريف ، وملابس خاصة بكل مناسبة من المناسبات العامة والخاصة .

★ ★ ★

(391) زِرْياب وحكايات الأمراء ، والأساطير ، والروايات :

أخذ الناس في الأندلس يسمعون زريابًا وهو يحكي لهم حكايات الأمراء والخلفاء والأساطير والروايات ، وما إلى ذلك حتى تعلّق الناس به بشدة ، وبالغناء خاصة ، وكثر المطربون في الأندلس ، وانتشر الرقص الذي انتشر أولاً بين الذكور ثم انتقل إلى النساء ، والغريب أن زرياب دخل الأندلس في زمن عبد الرحمن الأوسط .

★ ★ ★

(392) زِرياب يحول بين الناس والطاعة :

رغم انتعاش الحركة العلمية والدينية وكثرة العلماء وانتشار مجالسهم ، إلا أن وجود زرياب في الأندلس في هذه الفترة وكلامه المنمّق وإيقاعه الرّنان ، قد صرف الناس عن سماع العلماء والبعد عن مجالسهم وسماع قصص السلف الصالح ، بل ووصل الأمر إلى الانصراف عن القرآن الكريم إلى سماع أساطيره وأعاجيبه وقصصه .

★ ★ ★

(393) زِرياب من قوّاد التنوير والنهضة :

على الرغم من وفاة زرياب منذ أكثر من ألف ومائتي عام ، إلا أن زرياب قد فاز بشهرة واسعة حتى يومنا هذا ، فإذا سألت أهل الأندلس عن عبد الرحمن الداخل أو الأوسط أو الناصر أو السّمح بن مالك أو طارق بن زياد أو عقبة بن الحجاج ، لا يكادون يعلمون عنهم شيئًا ، إلا أنهم يعرفون زريابًا وسيرته وتفاصيل حياته ، وتُغنّى موشحاته في تونس والمغرب والجزائر ، وتُدَرّس سيرته كرجل من قوّاد التنوير والنهضة ، وحربه ضد الجمود ، وكفاحه من أجل الفن ، ولا يعلمون أن زِريابًا هذا كان سِرًا من أسرار سقوط بلاد الأندلس ، فقد عمَّ بسببه المجون والخلاعة والطرب والرقص والموضة ، فكان بداية الانحلال .

★ ★ ★

(394) يحيى الغزال ذلك الرجل الحكيم :

وفي نفس العصر الذي عاش فيه (زرياب) عاش (يحيى بن الحكم البكري) (154 هـ – 250 هـ) ، وكان رجلًا من طراز آخر غير طراز (زرياب) ، وكان أصله من (جيان) ، وكانوا يلقبونه بـ (الغزال) لجماله ، وكان رجلًا حكيمًا أرسله عبد الرحمن الأوسط في سفارة إلى بلاط ملك الزمانيين ؛ فاستمال قلوب الناس بظرفه ، ثم نفاه بعد ذلك الأوسط من الأندلس بسبب هجائه المقزع لـ (زرياب) فذهب إلى العراق ، وقد نظم أرجوزة في (فتح الأندلس) كانت جميلة طويلة عرض فيها أسباب الفتح والوقائع التي جرت بين المسلمين والنصارى .

(395) تمام بن علقمة صاحب الأرجوزة المشهورة :

عاش تمام بن عامر بن علقمة في الفترة من (184 هـ = 801 م) وحتى (283 = 896 م) ، وهو صاحب الأرجوزة المشهورة في ذكر افتتاح الأندلس ، وتسمية ولاتها والخلفاء فيها ، ووصف حروبها من وقت دخول طارق بن زياد إلى آخر أيام عبد الرحمن بن الحكم ، وكان عالمًا أديبًا .

★ ★ ★

(396) سعيد بن جودي النموذج الصادق للفارس العربي :

عاش في هذه الفترة أيضًا النموذج الصادق للفارس العربي سعيد بن جودي ، الذي كان يمثل العصبية العربية في بعض أدوار صراعها مع عمر بن حفصون ، وكانت له أشعار عديدة في الحرب والأسر ذات عاطفة مشبوبة ، وشعر في الغزل والتغني بالهوى العذري الميئوس منه في (جيجان) مغنية (عبد الله) الذي أصبح أميرًا على الأندلس .

★ ★ ★

(397) عمر بن حفصون وعمل لم يتكرر كثيرًا في التاريخ الإسلامي :

هو رَجُل كان من المولدين من أهل الأندلس الأصليين ، وكان قاطعًا للطريق يتزعم عصابة تضم أربعين رجلاً ، زاد نشاطه وكثر رجاله حينما ركن الناس إلى الدنيا وتركوا الجهاد ، تزعم الثورات في الجنوب وأرهب الناس ، وقام بعمل لم يتكرر كثيرًا في التاريخ الإسلامي عامة والأندلس خاصة ألا وهو التحوّل من الإسلام إلى النصرانية حتى يعضّد حكمه بتأييد مملكة ليون ، وسمى نفسه صمويل ، وذلك بعد اثنين وعشرين عامًا من ثورته ، فتركه أصحابه ولكن نال التأييد من مملكة ليون ، فتجرأت الممالك النصرانية على الإسلام من الشمال وعمر بن حفصون في الجنوب فاتفقا على إضعاف دولة الإمارة في بلاد الأندلس .

★ ★ ★

(398) ثورات أندلسية تهدد الأندلس في مرحلة ضعفها :

قامت ثورات عدّة منها ثورة (صمويل) عمر بن حفصون سابقًا الذي ضمّ كل حصون إِسْتجة وجيّان وغرناطة واتخذها عاصمة له وسمّاها (بابشتر) ، ثم ثورة ابن حجاج في إشبيلية حيث كانت تمدّ عمر بن حفصون في ثورته ضد قرطبة ، وفي شرق الأندلس ثورة في بَلَنسية ، وفي الشمال الشرقي ثورة رابعة في سَرَقسطة ، وفي غرب الأندلس ثورة يقودها عبد الرحمن الجلِّيقي ، وسادسة في طُليطلة ، فمع كثرة وتنامي هذه الثورات لم يستطع المسلمون السيطرة إلا على ثورة قرطبة وما يجاورها فقط ، فانفرط العقد تمامًا (300 هـ = 913 م) وانتهبت الأندلس بين كثير من القواد ، في حروب متتالية ، والكل يبغي الملك والمال .

★★★

(399) ممالك نصرانية في الأندلس الإسلامية :

تكونت مملكتان نصرانيتان في الأندلس هما : مملكة ليون والتي كانت تساعد صمويل (عمر بن حفصون) ، وكان مقرها الشمال الغربي ، ومملكة أرجوان في الشمال الشرقي وعاصمتها بَرْشلونة ، ثم مملكة أو إمارة نافار (نباره) ، وتعرف الآن باسم (إقليم الباسك) ، فتجرأت هذه الممالك وهاجمت شمال الأندلس ، وبدأت تقتل المسلمين المدنيين في مدن الأندلس الشمالية .

★★★

(400) الأخ يقتل أخاه رغبة في الحكم والمال :

ظهر أمر خطير في إمارة الضعف والانحلال والغناء والرقص والموضة ، حيث قتل المطرف بن عبد الله أخاه ولي العهد محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، وهذا يعبر عن مدى المأساة والفتنة في ذلك الوقت ، وأصبح الوضع في غاية الخطورة .

★★★

(401) أثر ظهور الدولة الفاطمية في المغرب :

من أسباب ضعف الحكم في الأندلس ظهور دولة العبيدين (الفاطمية) ، فقد ظهرت عام (296 هـ = 909 م) ، حيث كانت دولة شيعية همها الأول إقامة دولة شيعية والقضاء على الدولة السنّية ، فانتشرت بصورة عجيبة في بلاد المغرب والجزائر وتونس ثم وصلت إلى مصر والشام الحجاز ، وأعلن ابن حفصون الطاعة لها حبًا في المدد .

★ ★ ★

(402) تردّي الأوضاع في العالم الإسلامي وانقسامه إلى دويلات صغيرة :

لو ألقينا نظرة سريعة على العالم الإسلامي في هذه الفترة ، لوجدناه يتردى في وحل الانقسام والانشقاق ، حيث نجد مصر والشام يحكمهما الإخشيديون ، والموصل يحكمها بنو حمدان ، والقرامطة يحكمون البحرين واليمامة ، وبنو بويه يحكمون أصبهان ، وخراسان يحكمها نصر الساماني ، وطبرستان يحكمها الدَّيلم ، وكرمان يحكمها محمد بن إلياس ، والخلافة العباسية لا تجد أمامها إلا بغداد ، وهنا لابد من القول بأن الأندلس كانت في حاجة إلى معجزة تشبه معجزة عبد الرحمن الداخل ، وإلا لا مفر من إحكام النصارى قبضتهم على بلاد الأندلس جميعها .

★ ★ ★

(403) معجزة للمرة الثانية تجعل ملك الأندلس أعظم ملوك أوروبا ! :

نعم ، التاريخ يعيد نفسه ، وها هي المعجزة تتحقق بفضل من الله ومَنّه وكرمه وجوده ، فيهب لهذه البلاد أميرًا جديدًا يحقق الأمن والاستقرار ، وينشر السلم والسلام والإسلام في جميع الأركان ، ويوحد الصفوف ، ويقوي الأركان ، ويعلي من شأن الأندلس حتى تصبح أقوى ممالك العالم على الإطلاق ، ويصبح هو أعظم ملوك أوروبا في زمانه بلا منازع ، وبشهادة الأوروبيين أنفسهم ، إنه عبد الرحمن الناصر رَحِمَهُ اللهُ

★ ★ ★

الفصل الرابع

الأندلس في عصر الخلافة الأموية

(404) مَنْ هو صاحب مرحلة الإحياء والبعث في بلاد الأندلس ؟

إنه عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ، الذي ولد بقرطبة وعاش بها ، الذي نشأ يتيمًا ، فبعد مولده بعشرين يومًا قتل عمه أباه ليكون وليًا للعهد ، وجَدُّه السادس صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية ، وأُمُّه (ماريا) أو (مرته) أو (مزنة) ، ربَّاه جَدُّه عبد الله صاحب التقوى والورع الذي قتل ولده جزاء قتله أخاه ، بعد أن تأكد من براءة أخيه مما اتّهم به ، واهتم بحفيده اهتمامًا كبيرًا ، ولعلّ ذلك عطفٌ وشفقةٌ عليه بعد مقتل أبيه .

★★★

(405) نجابة مبكرة من عبد الرحمن الناصر :

إنه أمير المؤمنين الناصر لدين الله أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد ، كان شديد النجابة والنبوغ ، رغم حداثة سِنّه فقد أبدى تفوقًا ملحوظًا في العلوم والمعارف ، ودرس القرآن الكريم والسّنة النبوية المطهرة ، وسنّه لم يتجاوز العاشرة ، وبرع في النحو والشعر والتاريخ ، وكان ماهرًا في فنون الحرب والفروسية ، وكان جدّه يرشحه لمختلف المهام ، ومن هنا تعلّقت الآمال بهذا الفتى النابه ، وأضحى مرشحًا لولاية العهد .

★★★

(406) عبد الرحمن الناصر وخاتم الإمارة :

قيل : إن جده قد رشحه لولاية العهد ، وذلك بأن برئ بخاتمه إليه حينما اشتد عليه المرض كإشارة باستخلافه ، حيث كانت سيرة صقر قريش تلهم المؤسس الثاني للدولة الأموية متمثلة في العناء والمشقة والجهاد والإرادة الفولاذية ، فخاض كل هذا ليحقق ما يصبو إليه ، ويضعه التاريخ في مصاف العظماء والمؤسسين للدول .

★★★

(407) من نوادر التاريخ ألا ينازع الناصرَ في ولاية العهد أحدٌ :

ومن الطرائف التي تندر في التاريخ ، أن لا أحد من أعمام عبد الرحمن الناصر ، ولا من أعمام أبيه ، حاول أن يعترضه في المنصب أو ينازعه فيه ، بل كانوا أول من بايعوه حتى تكلّم بلسانهم عمّه أحمد بن عبد الله **قائلاً** : « والله لقد اختارك الله على علم للخاص منّا أو العام ، ولقد كنت أنتظر هذا من نعمة الله علينا ، فأسأل الله إيزاع الشكر ، وتمام النعمة ، وإلهام الحمد » .

★★★

(408) إشارات عامة في نشأة عبد الرحمن الناصر :

قُتل أبوه بعد ثلاثة أسابيع من مولده ، تولى الحكم وعمره اثنتان وعشرون سنة هجرية - إحدى وعشرون سنة ميلادية ، رُبّي منذ نعومة أظافره تربية تكاد لا تتكرر في التاريخ ؛ رُبّي على سعة العلم وقوة القيادة ، وحب الجهاد ، وحسن الإدارة ، والتقوى والورع ، والصبر والحلم ، والعزة والكرامة ، والعدل مع القريب والبعيد ، والانتصار للمظلوم ، وهي رسالة لكل الآباء : « إنْ لم تكن عبد الرحمن الناصر فليكن ابنك أو حفيدك عبد الرحمن الناصر » ، فحينما تولّى عبد الرحمن الناصر الحكم كان على ثقة شديدة بالله ثم ثقة بنفسه أنه قادر على التغيير ؛ حيث الأمل في الإصلاح ، فحمل على عاتقه مهمة شديدة وعملاً قويًا .

★★★

(409) عبد الرحمن الناصر يُغَيّر التاريخ بَدْءًا من قرطبة :

لمّا تولى الناصر الحكم كانت قرطبة وبعض القرى تحت يديه ، فقد تقسمت الأندلس بين الثّوار والنصارى ، فأول ما قام به هو (تنظيف قرطبة) ، فغير البطانة وعزل مَنْ رآه غير صالح للمنصب الذي هو فيه ، وولّى من رأى فيهم الكفاءة والمقدرة وحُسْن تدبير الأمور ، وقرّب العلماء وأعلى من شأنهم ، ورضخ لأوامرهم ونواهيهم ، واجتهد قدر طاقته في تطبيق الشريعة الإسلامية الغرّاء .

★★★

(410) عبد الرحمن الناصر وتقريع المنذر بن سعيد :

كان عبد الرحمن الناصر يحضر خطبة الجمعة ، فخطب المنذر بن سعيد كبير علماء قرطبة ، وكان شديدًا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان الناصر قد ابتنى قصرًا لنفسه ، فأسرف المنذر في التقريع والتلميح على عبد الرحمن الناصر ، فلما عاد عبد الرحمن الناصر إلى بيته **قال** : « والله لقد تعمدني منذر بخطبته ، وما عنى بها غيري ، فأسرف عليّ ، وأفرط في تقريعي ، ولم يُحسن السياسة في وعظي ؛ فزعزع قلبي ، وكاد بعصاه يقرعني » .

فأشار عليه علماء السلطان بعزله عن خطبة الجمعة ، فردّ عليه **قائلًا** : « أمِثْلُ منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه يُعْزَل ؟ يُعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد ، سالكة غير قصد ؟! هذا والله لا يكون ، وإني والله لأستحي من الله ألا أجعل بيني وبينه عَزَّوَجَلَّ في صلاة الجمعة شفيعًا مثل منذر في ورعه وصدقه » ، وما عزله حتى مات . . والله لنعم الحاكم أنت ، وكم يحتاج حكامنا إلى التعلم منك ، فقد خشيت الله في السرّ والعلن ، فثبتك الله في الحل والحرم .

★★★

(411) ماذا فعل عبد الرحمن الناصر بعد تثبيت دعائم البيت من الداخل ؟

بعد تنظيف قرطبة وتهيئة الجو للحكم والإدارة ، نظر إلى الثورات الخارجية ، فأرسل عباس بن عبد العزيز القرشي إلى قلعة رباح ، التي ثار فيها زعيم البربر الفتح بن موسى بن ذي النون ، ومعه حليفه أرذبلش فقضى عليهما بعد معارك طاحنة ، وقتل أرذبلش وبُعث برأسه إلى قرطبة فعلقها الناصر على باب السّدة لإرهاب الثائرين ، وطهرت قلعة رباح بعد شهر من جلوسه على كرسي الملك (300 هـ = 913 م) .

★★★

(412) استرداد إسْتِجة وهدم أسوارها وقنطرتها :

في جمادى الأولى (300 هـ) أرسل سرية إلى الغرب فاستردت إستجة التي كان

يسيطر عليها صمويل (ابن حفصون) ، فحققت النصر على العصاة ، وهدمت أسوار المدينة والقنطرة الواقعة على نهر (شنيل) لتعود معزولة لا يمكنها الثورة مرة أخرى .

★★★

(413) خروج عبد الرحمن للقضاء على صمويل (ابن حفصون) :

قرر عبد الرحمن الناصر أن يخرج بنفسه على رأس حملة عسكرية للقضاء على المرتد صمويل ليثير في الجنود الحماسة والعزم ، فبكّر إليه ونهض بنفسه حيث أصبح قتاله واجبًا دينيًا بعد ارتداده ، وكان ابن حفصون أقوى الثائرين ، وتركه دون مواجهة يقوّي شوكته ويغري صغار الثائرين ، ويحرج حاكم قرطبة ، والمعركة واضحة جلية بين المسلمين والمرتدين .

★★★

(414) هزائم متتالية لابن حفصون ونجاحات متعددة لعبد الرحمن الناصر :

استمرت الحملة طيلة ثلاثة أشهر (شعبان ورمضان وشوال 300 هـ) ، استرد فيها مدينة جيّان من أكبر حصون الأندلس ، كما استرد ما يقرب من سبعين حصنًا من أمهات المعاقل الثائرة ، وهَزم صمويل (ابن حفصون) المرتد العنيد في معارك عدة وهزائم منكرة .

★★★

(415) سبب قوة (ابن حفصون) وصعوبة القضاء عليه :

كانت قوة ابن حفصون كبيرة ، وإمداداته كثيرة ، فقد كان يأتيه المدد من الشمال حيث دول النصارى ، ومن الجنوب حيث العبيدية (الفاطمية) فضلًا عن إمدادات مدينة إشبيلية التي كان يحكمها حاكم مسلم من بني الحجاج ، لكنه كان متمردًا على قرطبة ومن فيها ، وكان يملك جيشًا مسلمًا كبيرًا .

★★★

(416) قطع الإمدادات عن صمويل (ابن حفصون) :

وجد الناصر أنه لا سبيل في القضاء على ابن حفصون سوى بقطع الإمدادات عنه ، فتوجّه إلى إشبيلية في الغرب ، وفي أقل من عام من ولايته استطاع الاستيلاء عليها (301 هـ) ، ثم توجه إلى الجنوب حتى وصل إلى جبل طارق ليقطع الإمدادات التي كانت تأتيه من الفاطميين ، ثم توجه إلى المحيط الأطلسي ليقطع الإمدادات التي كانت تأتيه من الدولة النصرانية في الشمال فتمّ له ، حيث وجد مراكب لابن حفصون على البحر المتوسط فأحرقها ، وبذلك قطع عنه جميع الإمدادات والمساعدات التي كانت تساعده وتعينه في حربه مع عبد الرحمن الناصر .

★★★

(417) صلح ومعاهدة من جانب (ابن حفصون) :

لم يجد صمويل بدًا من طلب الصلح والمعاهدة ، على أن يتنازل عن اثنين وستين ومائة حصن من حصونه ، ويأمن الناصر جانب صمويل ، وتم الصلح ووافق الناصر ؛ لأن البلاد كانت تشهد موجة من الانقسامات والثورات ، فأراد الناصر أن يتفرغ لها ، فضلاً عن أنه أَمِنَ عدوه .

★★★

(418) الأندلس بين عبد الرحمن وخمسة متمردين :

استولى عبد الرحمن الناصر على (قرطبة ، وإشبيلية ، وجيان ، وإستجة) ، وهي جميعًا من حصون الجنوب ، وحصون أخرى تمثل جميعًا سدس مساحة الأندلس ، وقد زال خطر ابن حفصون رغم الحصون التي كان يمتلكها إلا أن قطع الإمدادات عنه قد حجّمه ، وكانت طليطلة في شمال قرطبة تشهد تمرّدًا ، وسَرَقُسْطه في الشمال الشرقي مشتعلة ، وبلنسية في شرق الأندلس تشهد ثورة عارمة ، وغرب الأندلس يقوده عبد الرحمن الجلّيقي .

★★★

(419) عبد الرحمن الناصر يحرج المتمردين أمام شعوبهم :

رغم كل هذا التمرد إلا أن عبد الرحمن الناصر قد فاجأ الجميع وترك كل هذه الثورات واتجه صوب الشمال حيث إحدى ممالك النصارى (مملكة ليون) ، فأرسل أحد قادته فانتصر ، ثم كانت الكرّة عليه فهزم ، ثم انتصر ، ثم أرسل جيشًا كبيرًا أوقع بهم هزيمة مريرة ، وكأنه أراد أن يرسل رسائل عدّة منها : إن العدو الحقيقي هو النصارى في الخارج (مملكة ليون ومملكة نافار) ، وإحراج المتمردين أمام شعوبهم ، وتحريك العاطفة في قلوب المسلمين نحوه ، فهو يضطلع بمجابهة الأعداء الحقيقيين .

★★★

(420) هَدِية من رَبّ العالمين بعد ست سنوات من حكمه :

أتت هدية من رب البرية لعبده عبد الرحمن الناصر ، ألا وهي موت صمويل وهو على نصرانيته (306 هـ = 919 م) ، ذلك الثائر الأخطر في تاريخ الأندلس منذ الفتح ، والذي ظلت ثورته تُؤَرّق بلاط العاصمة الأندلسية ثلاثين عامًا ، وهذه بداية النهاية لمعاقل وحصون ابن حفصون التي تنازعها أولاده فافترقوا ، أضف إلى ذلك انضمام الكثيرين إلى عبد الرحمن الناصر ، فَسَهل عليه الاستيلاء على كل معاقل ابن حفصون (316 هـ) .

★★★

(421) الأندلس تحت راية واحدة خلال ستة عشر عامًا :

تحرك الناصر في (308 هـ = 921 م) نحو الشمال بجيش كثيف ، وانضم إليه صاحب طليطلة خوفًا منه ، فوقعت غزوة (موبش الكبرى) بين الناصر وجيوش نافار وليون مجتمعة ، فانتصر انتصارات باهرة وضم مدينة سالم ، وبعد أربعة أعوام من غزوة موبش (312 هـ = 924 م) قام بحملة على مملكة نافار فاكتسحها ، وضم مدينة بنبلونة عاصمة (نافار) ، وفي (316 هـ = 928 م) أرسل حملة لضم شرق الأندلس لقمع التمرد فضمها إلى أملاكه ، ثم حملة في العام نفسه إلى غرب الأندلس فهزمت

عبد الرحمن الجليقي فضمّ غرب الأندلس إلى أملاكه من جديد ، وبذلك وبعد ستة عشر عامًا من الكفاح المضني يكون الناصر قد وحّد الأندلس كلها تحت راية واحدة ، ولم يتجاوز عمره آنذاك ثمانية وثلاثين عامًا بعد ، فحينما بدأ بالهجوم على ممالك النصارى كان عمره ثلاثين عامًا ، فياله من قائد فذّ !

★★★

(422) إعلان الخلافة الأموية في الأندلس (316 هـ = 928 م) :

لفظت الخلافة العباسية أنفاسها الأخيرة بعد استيلاء الأتراك فعليًا على حكم البلاد ، وإن كان قد أجلسوا الخليفة القادر بالله على كرسي الحكم ، فقد قتل الخليفة المقتدر بالله على يد مؤنس المظفر التركي ، وقد أعلن الفاطميون العبيديون الخلافة الفاطمية ، فرأى نفسه وقد وحّد الأندلس ، فواتته الظروف لأن ينصب نفسه خليفة ، ولقب نفسه أمير المؤمنين ، وسمّى الإمارة الأموية بالخلافة الأموية ، ومن هنا بدأ عهد جديد في الأندلس من (316 هـ = 928 م) وحتى (400 هـ = 1010 م) أي نحو أربع وثمانين سنة متصلة ، وهو يُعَدُّ استكمالاً لعهد الإمارة الأموية ، مع فروق في شكليات الحكم وقوة السيطرة والسلطان لصالح الأخير .

★★★

(423) سياسة عسكرية توسعية وخيانة داخلية :

بعد إعلان الخلافة بثلاث سنوات (319 هـ = 931 م) ، وجّه الناصر جيشًا نحو الجنوب حيث جبل طارق فغزا بلاد المغرب ، فضمّ سبتة وطنجة ، وفي سنة (323 هـ = 925 م) حدثت خيانة من حاكم مملكة الشمال الشرقي (سرقسطة) محمد بن هشام النجيبي ، حيث تحالف مع مملكة ليون النصرانية ، فهاجم المدينة وأمسك بقواد هذا الجيش وأمر بإعدامهم أمام أعين الجميع .

★★★

(424) دهاء وذكاء من حاكم نابغ حازم يتصف بالعفو :

بعد الهزيمة أعلن حاكم سرقسطة محمد بن هشام النجيبي ندمه وعودته إلى

عبد الرحمن الناصر ، فقبل الناصر اعتذاره وأعاده إلى حكم سرقسطة بذكاء ودهاء الساسة ؛ إذ استطاع بذلك أن يربح كل قلوب النجيبيين ، بهدف الاستعانة بهم في الحرب على الخارج ملتمسًا بمنطق الحزم وقت الحزم والعفو عند المقدرة ، ومن سرقسطة أرسل حملة إلى أرض العدو في الشمال بقيادة نجدة بن حسين الصقيلي ، وأمر بالخروج معه محمد بن هشام النجيبي ، وعادت الحملة بغنائم وافرة إلى سرقسطة .

★★★

(425) واقعة (حنين) جديدة وهي المسماة (موقعة الخندق) أو (سمورة) :

التاريخ يعيد نفسه ، فالأمور لا تسير على وتيرة واحدة ، وليس هناك بشر لا يخطئ ، ولكل جواد كبوة ، ففي سنة (327 هـ = 939 م) وبعد سبعة وعشرين عامًا من حكمه ، وقد بلغ الجيش الإسلامي في الأندلس شأوًا عظيمًا حيث ناهز المائة ألف مقاتل ، فاتجه به إلى مملكة (ليون) النصرانية ليحاربهم ، فهزموا هزيمة منكرة ، وإذا أكثر من خمسين ألفًا من المسلمين بين القتل والأسر ، وفرار عبد الرحمن الناصر مع النصف الآخر عائدين بأكبر خسارة وأثقل هزيمة في واقعة (حنين) جديدة المسماة (موقعة الخندق) ، وهو درس رباني قاسٍ على عبد الرحمن الذي قد دخل في نفسه ونفوس الجنود الاغترار بكثرتهم ، **ولسان حالهم يقول** : « لن نهزم اليوم من قوة » .

★★★

(426) ملوك النصارى يطلبون الأمان والمعاهدة على الجزية :

لم يعرف الناصر اليأس ، ولم يَخَفْ تكرار الهزيمة ، جمع العلماء والفقهاء وبدأ يحفز الناس ، وأعدّ العُدّة وقام بحرب عظيمة على النصارى (329 هـ = 941 م) تلتها حملات مكثفة وانتصارات تلو الانتصارات من (329 هـ إلى 335 هـ) حتى أيقن النصارى بالهلكة ، فطلبوا الأمان والمعاهدة على الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ، وإن لم يمنع ذلك نشوب بعض الحروب التي استمرت حتى آخر عهد الناصر (350 هـ = 961 م) .

★★★

(427) عبد الرحمن الناصر والدولة العبيدية (الفاطمية زعمًا) :

لما قويت دولة العبيديين (الفاطميين) أراد عبد الرحمن الناصر أن يشغلهم عنه حتى لا يفكروا في غزو الأندلس ، فكان يراسل حكام سبتة وطنجة ويمد الثائرين على العبيديين بالسلاح ، فها هو سيتولى على سبتة وطنجة ، وتقوى شوكة العبيديين بقيادة جوهر الصقلي ، وتهاجم سواحل الأندلس وتحرق السفن وتخرِّب كل ما تستطيع تخريبه ، فكان ردّ الناصر عنيفًا وردّ الصاع صاعين ، فعلم العبيديون أن لا طاقة لهم بالأندلس فلم يعيدوا الكرة ، وظلت المناوشات بين الجانبين منذ (319 هـ - 347 هـ) ، ثم لم يلبث أن مرض الناصر (349 هـ) ثم توفي (350 هـ) .

★★★

(428) عبد الرحمن الناصر ذلك القائد العسكري المحنّك وأسلوب المباغتة :

كان فكر عبد الرحمن الناصر العسكري معقدًا جدًا ؛ إذ كان يعتمد أحيانًا على المباغتة الزمنية ، فيسير الجيوش في أوقات غير متوقعة ، وأحيانًا المباغتة المكانية فيسير جيوشه شمالاً صوب النصارى في وقت قد اشتدت فيه الثورات في الجنوب والغرب ، ثم المباغتة على مستوى العمليات ، إلى جانب اهتمامه بتعداد الجيوش وتجهيزها وتنوعها بين الكبر والصغر ، وقد يكتفي بإرسال قائد ، وأحيانًا يدير دفة المناورة بنفسه .

★★★

(429) عبد الرحمن الناصر بين إدارة العمليات والقيادة القتالية :

كان عبد الرحمن الناصر متنوعًا في فكره العسكري ، فأحيانًا يقود الجيش بنفسه كما فعل في حربه مع النصارى في ليون ونافار ؛ ليحمس الجيش ويجذب الشباب المسلم ويلهب الشعور بالجهاد ، فإذا ما استتب له الأمر في البلاد اقتصر دوره على إدارة العمليات ، فيشرف على إعداد الجيوش ووضع الخطط تحسبًا لأي مجازفة قد تضرّ بالإسلام والمسلمين كما حدث في معركة الخندق ، لقد ظلت الأندلس طيلة عهده في حرب مستمرة ومتواصلة في كافة الميادين والجبهات .

★★★

(430) مملكة (ليون) النصرانية في الأندلس الإسلامية :

عظم شأن النصارى في الأندلس ، في نهاية القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي نتيجة لكثرة الثورات وتنازع القواد المسلمين على الملك ، فجاء القرن العاشر الميلادي وقد خلفت مملكة ليون مملكة جلِّيقيّة ، والتي كانت تضم ولاية قشتالة ، وبلغت من القوة والبأس درجة أهلتها لأن تخوض صراعًا عنيفًا مع عبد الرحمن الناصر ؛ إذ بلغ الصراع ذروته وهزم الناصر في موقعة شنت إشتين (917 هـ) ، وتوالت الغارات على الممالك الإسلامية حتى وفاة ملكها أردونيو الثاني (1925 هـ) .

★★★

(431) مملكة (ليون) بين النزاع والشتات والخلاف :

بعد موت أردونيو خلفه أخوه فرويلا ، ولم يبق في الحكم سوى عام واحد ثم مات لتبدأ مرحلة نزاع عنيفة بين الأخوين ساشو وألفونسو ولدي أردونيو ، فقد انتصر ألفونسو في أول الأمر بمعاونة ملك نافار ، ثم عاود سانشو الكرة وهزم ألفونسو فجهز ألفونسو جيشًا بمعاونة ملك نافار وأعاد الحكم لنفسه ، وبعد قليل مات سانشو (929 هـ) ليستقر الحكم لألفونسو ، ثم تموت زوجته فيزهد في الحكم ويتنازل لأخيه راميرو الثاني (رذمير) ، ثم يعاود ألفونسو الرغبة في الحكم بعد الرهبنة ويزحف بأنصاره إلى ليون ، فيجهز راميرو جيشًا كبيرًا ويسمل عيني أخيه ، وعيون أبناء عمه فرويلا الثلاثة ليطمئن إلى أن أخاه لن يثور عليه مجدّدًا .

★★★

(432) راميرو يقود الصراع ضدَّ عبد الرحمن الناصر :

كان راميرو صليبيًا متطرّفًا يسعى سعيًا حثيثًا إلى إضرار المسلمين أينما وجد السبيل إلى ذلك ، ويغير على الأراضي الإسلامية ، ويحرّض الثوار على عبد الرحمن الناصر ، ويخوض المعارك بنفسه ، حتى قاد معركة الخندق ضد عبد الرحمن الناصر ، والتي دارت فيها الدائرة على المسلمين تحت أسوار مدينة سمورة (327 هـ = 939 م) .

★★★

(433) مملكة (قشتالة) بين الانفصال والانضمام لمملكة (ليون) :

كانت مملكة (قشتالة) في القسم الشرقي من مملكة (ليون) ، وكان سكانها من البشكش وأهل ألبة ، وكان ملوك الجلالقة قد غزوها وأضافوها إلى مملكتهم ، ولكن زعماء قشتالة حاولوا مرة بعد مرة الانفصال عن (ليون) في عهد (أردونيو الثاني) فحاربهم وأخضعهم ، وحاول الكونت (فرنان كونثالث) مرات عديدة أن ينفصل بها فلم يفلح ، وظلت (قشتالة) تابعة لـ (ليون) .

★★★

(434) مملكة (نافار) والحرب بين سانشو وأردونيو :

نشأت هذه المملكة في القرن التاسع الميلادي ، وتولى المُلك فيها سانشو غرسيه الأول (905 م) ، الذي خاض معارك عديدة مع المسلمين أيام الأمير عبد الله ، وفي أوائل عهد عبد الرحمن الناصر توفي سانشو وخلفه ولده غرسيه وكان طفلاً ، فتولى رعايته عمه (خمينو غرسيس) ثم أمه الملكة (طوطة) التي ظلت تحكم باسمه طويلاً ، حيث كانت (نافار) ترتبط برباط المصاهرة مع المملكتين النصرانيتين الأخريين ، فقد كان أردونيو الثالث ملك ليون متزوجًا من أوراكا ابنة الملكة طوطة ، وكان فرنان كونثالث كونت قشتالة متزوجًا من ابنة أخرى لطوطة ، فكانت (طوطة) تحتل مكانة عظيمة في الممالك الثلاث ، وفي نهاية المطاف ضعفت شوكة (نافار) ولزمت السكينة حينًا .

★★★

(435) عبد الرحمن الناصر ومدينة الزهراء :

تميز عصر عبد الرحمن الناصر بالجانب المعماري ، إذ أنشأ (مدينة الزهراء) ، تلك المدينة التي بنيت على طراز رفيع جدًا ، استجلب لها الناصر الموادّ من القسطنطينية ، وبغداد ، وتونس ، وأوروبا ، وصممت على درجات مختلفة ؛ سُفلى للحراس والكتبة والعمال ، وعليا للوزراء وكبار رجال الدولة ، وأعلى الدرجات في منتصف المدينة حيث قصر الخلافة الكبير .

(436) عبد الرحمن الناصر وقصر الزهراء :

هو قصر شيّده عبد الرحمن الناصر ، لم يُبْن مثله في ذلك الوقت ، وكان من معجزات زمانه ؛ إذ كان الناس يأتون من أوروبا ومن كل أقطار العالم الإسلامي كي يشاهدوه ، ولو لم يكن فيه إلا السطح الممرد المشرف على الروضة المباهي لمجلس القبة لكفى ، فهو يجمع بين إتقان الصنعة وفخامة الهمة وحسن المستشرف ، وبراعة الملبس والحلة ما بين مرمر مسنون وذهب موضون ، لا تهتدي الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عن جماليات هذا القصر ، فسبحان الله على هذا الجمال !

★★★

(437) عبد الرحمن الناصر ومدينة قرطبة (جوهرة العالم) :

اتسعت مدينة قرطبة في عهد عبد الرحمن الناصر ، وبلغ تعداد سكانها نصف مليون مسلم ، وكانت تُعدّ ثاني أكبر مدينة في تعداد السكان في العالم بأسره بعد (بغداد) ، حيث كان عدد سكانها يبلغ مليونين ، وكان عدّة الدور بداخلها للرعية دون الوزراء وأكابر أهل الخدمة مائة وثلاثة عشر ألف دار ، ومساجدها ثلاثة آلاف ، وعدة الدور بقصر الزوراء أربعمائة دار لسكنى السلطان وحاشيته وأهل بيته ، والحمامات تسعمائة حمام ، ومسجد قرطبة آية في الفن المعماري ، محرابه عبارة عن رخامة واحدة على شكل محارة ، **وقد أطلق على قرطبة في ذلك الحين** : (جوهرة العالم) .

★★★

(438) الفكر الاقتصادي للناصر يتفق مع فكر عبد الرحمن الداخل :

كانت البلاد في عصره تعيش في رغد من العيش منقطع النظير ، وقد كثرت الأموال فبلغت ميزانية الدولة ستة ملايين دينار ذهبي ، **قسمها كجدّه صقر قريش إلى** : ثلث للجيش ، وثلث للبناء والمعمار والمرتبات ، وثلث للادخار لنوائب الزمن .

★★★

(439) طرق الزراعة تنتقل من الأندلس إلى أوروبا في عهد عبد الرحمن الناصر :

نمت الزراعة نموًّا عظيمًا ، وتنوعت أشجار الفواكه والمزروعات من قصب السكر والأرز والزيتون والكتان ، وجعل هناك مزارع خاصة لتربية دودة القز ، ونظم أفنية للري وأساليب جرّ المياه ، وجعل تقويمًا للزراعة لكل موسم ، ومنها انتقلت طرق الزراعة إلى أوروبا .

★★★

(440) عبد الرحمن الناصر وتنوّع الصناعات في عهده :

وكما اهتم الناصر بالزراعة فقد أولى اهتمامًا كبيرًا بالصناعة ، إذ اهتم باستخراج الذهب والفضة والنحاس ، وصناعة الجلود والسفن وآلات الحرث والأدوية ، مع إنشاء أسواق كثيرة متخصصة لعرض وتداول مثل هذه البضائع ، فكثرت الأسواق كأسواق النحاسين وأصحاب اللحوم وأسواق الزهور .

★★★

(441) ضبط النظام والأمن في عهد عبد الرحمن الناصر :

كما غيّر الخطة العامة للشرطة التي كانت تقوم على محورين أساسيين **وهما** : الشرطة العليا ، والشرطة الصغرى ، فجعلها في (317 هـ) **على ثلاث مراتب** : الشرطة العليا ، والشرطة الوسطى ، والشرطة الصغرى ، وقسّم خطة المظالم في (325 هـ) إلى خطتين بعدما كانت خطة واحدة تقوم على العرض والمظالم ، فجعل العرض خطة مستقلة بذاتها ، والمظالم خطة مستقلة .

★★★

(442) عبد الرحمن الناصر ومكتبة قرطبة وعمل النساخين :

ازدهر في عهده العلم والتعليم ، واهتم بمكتبة قرطبة ، وزاد في حجمها حتى بلغ عدد الكتب فيها أربعمائة ألف كتاب ، في زمن لم تظهر فيه الطباعة بعد ، وإنما كان الاعتماد على جهود النساخين اليدويين الذين ينسخون الكتب من المكتبة لمن يريد .

علماء نبغوا في عصر عبد الرحمن الناصر

(443) حسان بن عبد الله بن حسان المتفرد (278 هـ - 334 هـ) :

هو من أهل إسْتِجَة ، وقد وصف بأنه كان نبيلاً في الفقه ، وحافظًا للرأي ، ومعتنيًا بالحديث والآثار ، ومتصرفًا في علم اللغة والإعراب ، والعروض ومعاني الشِّعر ، مع بصره بالفرض وعلم العدد ، ولمكانته العلمية **قيل عنه** : « لم يكن في إستجة قبله ولا بعده مثله » .

★★★

(444) محمد بن عبد الله الليثي (قاضي الجماعة) (ت : 339 هـ) :

من أهل قرطبة ، وكان يشغل منصب (قاضي الجماعة) في قرطبة ، تتلمذ على شيوخ بالأندلس ، ثم رحل إلى مكة ، ثم إلى مصر ، ثم إلى تونس ، وكان حافظًا للرأي ، معتنيًا بالآثار ، جامعًا للسنن ، متصرفًا في علم الإعراب ومعاني الشعر ، وكان شاعرًا مطبوعًا ، وقد ولاّه عبد الرحمن الناصر قضاء إلبيرة ثم قضاء الجماعة بقرطبة في ذي الحجة (326 هـ) ، وكان كثيرًا ما يخرج إلى الثغور ، ويتصرف في إصلاح ما ضعف فيها ، فاعتل في آخر خرجاته إلى هناك ومات في حصن مجاور لطليطلة فدفن فيها .

★★★

(445) قصة الجوهرة الثمينة التي كان يضعها الناصر في القصر :

ذاع صيت عبد الرحمن الناصر في الدنيا كلها ، ورضيت ممالك الشمال بأن تعطيه العهد والجزية ، وقد جاءت السفارات من كل أوروبا تطلب وُدّه ، فجاءت من ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وإنجلترا ، بل جاءت من أقصى شرق أوروبا من بيزنطة تهدي إليه الهدايا وأشهرها جوهرة ثمينة كبيرة ، كان يضعها في وسط قصره الذي يقع في مدينة الزهراء ،

قال المقري : « وكانت من تحف قصر اليونانيين ، بعث بها صاحب القسطنطينية إلى الناصر مع تحف كثيرة سنية » .

★ ★ ★

(446) إسبانيا تحتفل بمرور ألف عام على وفاة أعظم ملوك أوروبا :

كان عز الإسلام ومجده متمثلاً في عهد عبد الرحمن الناصر حتى أصبح - بلا منازع - أعظم ملوك أوروبا في القرون الوسطى ، وهذا ما جعل إسبانيا سنة (1963 م) تحتفل - وهي على نصرانيتها - بمرور ألف سنة ميلادية على وفاة عبد الرحمن الناصر ؛ لأنه كان أعظم ملوك إسبانيا على مرّ العصور ، فلم يستطيعوا أن يُخفوا إعجابهم بهذا الرجل الذي رفعهم في العالمين ، الذي كانت الأندلس في عهده أقوى دولة في العالم .

★ ★ ★

(447) عبد الرحمن الناصر هذا الصولجان دائم الذكر لله :

رجل حكم نصف قرن من (300 هـ = 913 م) إلى (350 هـ = 961 م) ، وكانت الأندلس في عصره أعظم ممالك أوروبا ، فيذهب الذهن إلى العظمة والجدية التامّة ، طريق العزة وعدم الخنوع ، وقد كان هذا الرجل مع كل هذا السلطان وهذا الصولجان دائم الذكر لربه سريع الرجوع إليه .

★ ★ ★

(448) إذا خشع جبار الأرض رحم جبار السماء :

حدث ذات مرّة قحط شديد في الأندلس ، فأرسل الناصر رسولاً من عنده يدعو القاضي منذر بن سعيد بإمامة الناس في صلاة الاستسقاء ، **فقال منذر للرسول** : ليت شعري ما الذي يصنعه الخليفة سيدنا ؟ **فقال له** : ما رأينا قط أخشع منه في يومنا هذا ، إنه منتبذ حائر منفرد بنفسه ، لابس أخشن الثياب ، مفترش التراب ، وقد رمد به على رأسه وعلى لحيته ، وبكى واعترف بذنوبه ، وهو **يقول** : هذه ناصيتي بيدك أتُراك تُعَذِّب بي الرعية وأنت أحكم الحاكمين ؟! لن يفوتك شيء منيّ ، **قال الحاكي** : فتهلّل وجه القاضي منذر عندما سمع قوله ، **وقال** : يا غلام ؛ احمل المطر معك ؛ فقد أذن

الله تعالى بالسقيا إذا خشع جبار الأرض ، فقد رحم جبار السماء ، فلم ينصرف الناس إلا عن السقيا .

★★★

(449) اجتمع في دولته من العلماء ما لم يجتمع في دولة غيره :

قال عنه الذهبي في (تاريخ الإسلام) : كان شجاعًا شهمًا محمود السيرة ، لم يزل يستأصل المتغلِّبين حتى تم أمره بالأندلس ، واجتمع في دولته من العلماء والفضلاء ما لم يجتمع في دولة غيره ، وله غزوات عظيمة ، ووقائع مشهورة ، **قال ابن عبد ربه** : قد نظمت أرجوزة ذكرت فيها غزواته ، **قال** : وافتتح سبعين حصنًا من أعظم الحصون ، ومدحه الشعراء .

★★★

(450) كان مُبَخَّلًا ، لا يُعطي ولا يُنفق إلا فيما رآه سدادًا :

قال عنه الصفدي في (الوافي بالوفيات) : « ولم يكن بعد عبد الرحمن الداخل أجزل منه - أي الناصر - في الحروب ، وصحة الرأي ، والإقدام على المخاطرة والهول ، حتى نال البغية ، فرتب الجيوش ترتيبًا لم يعهد مثله قبله ، وأكرم أهل العلم ، واجتهد في تَخَيُّر القضاة ، وكان مُبَخّلاً لا يُعطي ولا يُنفق إلا فيما رآه سدادًا » .

★★★

(451) أيام صفاء الناصر لا تزيد عن أربعة عشر يومًا :

توفي الناصر في رمضان سنة (350 هـ = 961 م) عن اثنين وسبعين عامًا ، وقد وجدوا في خزانته ورقة كان قد كتبها بخط يده ، عَدّ فيها الأيام التي صَفَت له دون كدر ، **فقال** : « في يوم كذا من شهر كذا في سنة كذا صفا لي ذلك اليوم » ، فعدوها فوجدوها أربعة عشر يومًا فقط .

★★★

(452) نهضة علمية وحضارية في عهد الحكم بن عبد الرحمن الناصر :

استخلف الناصر ابنه الحكم الذي تولّي من (350 هـ = 961 م) إلى (366 هـ = 976 م) ، وتلقب بالمستنصر بالله ، وكان في السابعة والأربعين من عمره ، وكان مقربًا معتمدًا عليه في الأمور العظام في عصر أبيه ، خبيرًا بشئون الحكم والسياسة ، أخذ مملكة موطدة الأركان لا فتن فيها ، فوصلت الأندلس في عهده إلى أعلى درجات الرقي الحضاري ، وتحدث نهضة علمية وحضارية غير مسبوقة .

★★★

(453) صفات الحاكم العادل :

قال عنه ابن الخطيب : « كان الحكم المستنصر عالمًا فقيهًا بالمذاهب ، إمامًا في معرفة الأنساب ، حافظًا للتاريخ ، جمّاعًا للكتب ، مميزًا للرجال من كل عالم وجيل ، وفي كل مصرٍ وأوان ، تجرّد لذلك وتهمم به ، فكان فيه حجة وقدوة وأصلاً يُوقف عنده ، وإليه انتهت الأبهة والجلالة ، والعلم والأصالة ، والآثار الباقية ، والحسنات الراقية » .

★★★

(454) الحكم المستنصر والمكتبة الأموية :

هي من أعظم المكتبات في العصور الوسطى على الإطلاق ، وكانت تنافس مكتبة قرطبة ومكتبة بغداد ، دفع المستنصر آلاف الدنانير لجلب أعظم الكتب إليها من كل مكان في العالم ، وكان قد وظّف عمالاً جعل وظيفتهم هي جمع الكتب فقط من مشارق الأرض ومغاربها ، فإذا أحضروا كتابًا غير عربي في الفلك أو الطب أو الهندسة ترجموه على الفور وضُمّ إلى المكتبة ، وقد وسّع فيها كثيرًا ، وجعل فيها أروقة عظيمة حتى تستوعب كثرة الحضور من المسلمين .

★★★

(455) المستنصر يستفتح خلافته بزيادة المسجد الجامع بقرطبة :

وقد افتتح الحكم خلافته بالنظر في زيادة المسجد الجامع بقرطبة ، وهو صاحب

الفضل في بلاطة المحراب ، وكان يلقى العلماء في بيته وفي المسجد الجامع ، وقلد حجابته جعفر بن عبد الرحمن الصقبي ، وأول ما صنعه النظر في سوق الصخور التي هي أساس مسجد قرطبة ، وهو صاحب الفضل في ذلك الجمال الذي ينفرد به هذا المسجد بين مساجد الدنيا .

★★★

(456) خزائن الكتب والنسخ في الأندلس :

كان الحكم يشتري الكتب مهما بالغ الناس في أسعارها ، فاشترى النسخة الأولى من كتاب الأغاني للأصفهاني ، وكَثُر النّسخ في عصره حتى قال عنه ابن خلدون : « وجمع بداره الحُذاق في صناعة النسخ ، والمهرة في الضبط ، والإجادة في التجليد ، فأوعى من ذلك كله ، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده إلا ما يُذكر عن الناصر العباسي ابن المستضيء » .

★★★

(457) الحكم المستنصر ونهضة التعليم في عصره :

رتب الحكم المعلمين والمربِّين وجعلهم يُعلمون أولاد الفقراء والضعفاء ، وأنفق على أجورهم من بيت المال ، وبلغت دور التعليم في عصره سبعًا وعشرين ؛ ثلاثة منها حول جامع قرطبة ، وباقيها في ضواحي المدينة .

★★★

(458) الحكم المستنصر وإنشاء جامعة قرطبة :

أنشأ الحكم جامعة قرطبة ، وكان مقرّها المسجد الجامع الكبير ، تُدَرّس في حلقاتها مختلف العلوم ، حيث كان يُدَرِّس الحديث أبو بكر بن معاوية القرشي ، ويُملي فيها أبو علي القالي ضيف الأندلس دروسه عن العرب قبل الإسلام ، وعن لغتهم وشعرهم وأمثالهم ، وابن القوطية يُدرِّس النحو ، وأساتذة أُخر يدرسون العلوم من أعلام العصر ، وعدد الطلبة يُعَدّون بالآلاف .

★★★

علماء برزوا في عصر الحكم المستنصر

(459) أبو بكر الزبيدي من (316 هـ = 928 م إلى 379 هـ = 989 م) :

هو واحد عصره في علم النحو وحفظ اللغة ، نزيل قرطبة ، نُسب إلى زُبيد قبيلة باليمن ، وكان أخبر زمانه بالإعراب والمعاني والنوادر إلى علم السير والأخبار ، وله كتب تدل على وفرة علمه ، **منها** : (مختصر كتاب العين) ، و(طبقات النحويين واللغويين بالمشرق والأندلس) ، و(الأبنية في النحو) ، كان مؤدبًا لهشام بن الحكم ، فعلمه الحساب والعربية ، وتولّى قضاء إشبيلية وخطة الشرطة ، وكان كثير الشعر .

★★★

(460) ابن القوطية :

هو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن عيسى بن مزاحم ، كان من أعلم أهل زمانه باللغة العربية ، روى الحديث ، والفقه ، والأخبار ، والنوادر ، ورواية الأشعار ، وإدراك الآثار ، وأخبار الأندلس ، عارفًا بسير أمرائها وأحوال فقهائها وشعرائها ، يملي ذلك عن ظهر قلب ، طال عمره فسمع الناس منه طبقة بعد طبقة ، وصنف الكتب المفيدة في اللغة ، **منها** : (تصاريف الأفعال) ، و(المقصور والممدود) ، والأخير جمع فيه ما لا يحَدُّ ولا يُوصف ، ولقد أعجز به من يأتي بعده ، كان أبو على القالي يبالغ في تعظيمه حتى سأله الحكم المستنصر : مَنْ أنبل مَنْ رأيته ببلدنا هذا في اللغة ؟ **فقال القالي** : محمد ابن القوطية .

★★★

(461) الحكم المستنصر واستخدام الشمال الإفريقي كمنطقة حاجزة :

رغم جهاد الناصر المستمر ، إلا أن جلَّ جهاده كان متجهًا نحو النصارى وإخضاعهم ، ولكنه لم يسيطر على الشمال الإفريقي سيطرة تامة خاصة بعد ظهور الدولة العبيدية (الفاطمية) ، وكان يعتبر الشمال الإفريقي منطقة حاجزة تمنع من امتداد خطر العبيديين نحو الأندلس ، فاعتمد على أمراء هذه البلاد في إضعاف العبيديين ، وجاء المستنصر

فقوى هذه العلاقة ، وفي (360 هـ) استطاع حلفاء الحكم المستنصر في الشمال الإفريقي الانتصار على زيري بن مناد الصنهاجي عامل المعز لدين الله العبيدي وقتلوه وقطعوا رأسه ورءوس كبار رجاله ، وأرسلوها إلى الحكم المستنصر في قرطبة ففرح فرحًا شديدًا ، واحتفل بهم ، وأجزل لهم العطاء .

★★★

(462) ردّ فعل العبيديين نحو ما حدث لعاملهم :

عزم العبيديون على رد الفعل بأقوى من الفعل نفسه ، فجرّدوا جيشًا عرمرمًا وذلك سنة (361 هـ) ، وجعلوا على رأسه ابن الوالي المذبوح كي ينتقم لوالده ، إذ جعلوا عليه يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي الشهير بـ (بلقين) ، وقامت حرب ضروس بين الفريقين : فريق يوسف وفريق أتباع الحكم المستنصر ، فدارت الدائرة على أتباع الحكم ، كانت من نتيجتها أن اتكأ محمد بن الخير أمير قبيلة زنانة على سيفه فذبح نفسه أَنَفَة من أن يقع أسيرًا ، فقتل بلقين أبناء قبيلة زناتة وخرَّب بيوتهم وطاردهم ، وخضعت له كل المناطق التابعة للحكم في شمال إفريقيا ، وحاول دخول سبتة فلم يستطع لحصانتها ومناعتها .

★★★

(463) طنجة في طاعة العبيديين ورد فعل الحكم المستنصر :

استسلم أمير الأدارسة حسن بن قنون الحسني لبلقين ، وخرج من عباءة الحكم المستنصر إلى عباءة العبيديين ، ودعا لهم على منابر طنجة ، فاستشعر الحكم بالخطر ، فأرسل جيشًا قويًا إلى سبتة لتكون قاعدة يسيطر من خلالها على بلاد الشمال الإفريقي ، وأمره بالجد والاجتهاد ومحاربة ابن قنون ، وإن نصره الله تعالى فليأخذن بالعفو والصفح وإصلاح البلاد ، وتحقق ما رغب الحكم فهزم ابن قنون وفرّ هاربًا ، وخضعت قرطبة ومن بعدها معظم البلدان في شمال إفريقيا له .

★★★

(464) ابن قنون يعيد الكرّة ويطلب الصلح والأمان :

لم ييأس ابن قنون فأعاد تنظيم جيشه بعد أشهر قلائل وأعاد الكرّة على محمد بن قاسم قائد الجيش الأندلسي ، ودارت بينهم معركة شديدة في فحص مهران (362 هـ) قُتل فيها محمد بن قاسم ومعه خمسمائة فارس ، وألف راجل ، وأراد ابن قنون استغلال النصر فراسل الحكم يطلب الصلح لعلمه بقوة الجيش الأندلسي فلم ينخدع الحكم ، وأمَّن جميع الناس ، فكان من نتيجة ذلك أن دخل في طاعته سبعون رجلاً من رجال حسن بن قنون ، وجهَّز الحكم جيشًا جعل قائده غالب بن عبد الرحمن ، **وقال له** : « سِرْ يا غالب مسير مَنْ لا إذن له في الرجوع إلا حيًّا منصورًا أو ميتًا معذورًا » ، وكان ذلك سنة (362 هـ) ، فعلم حسن بن قنون بذلك فلجأ إلى البربر وتحصن بالقلعة فضرب غالب عليها حتى شرف حسن على الهلاك فاستأمنه ، وطهر البلاد من الخارجين على الحكم ، حتى استقرّ الأمر في بلاد الشمال الإفريقي للحكم المستنصر .

★★★

(465) موقعة (شنت إشتبين) (352 هـ = 963 م) :

كان ملك ليون بعد وفاة الناصر قد نكث عهوده التي قطعها لعبد الرحمن الناصر ، فلم يهدم الحصون التي اتفقا على هدمها ، كما رفض تسليم بقية الحصون ، فاستغل غريمه أردوينو الرابع هذا التطور وأرسل للحكم يتحالف معه ، فراسل سانشو الحكم وتنازل عن الحصون وعاد إلى عهوده ، فما لبث أن مات أردوينو ، فنكث سانشو عهوده مرة أخرى ، واتَّحد مع الكونت فرنان كونثالث أمير قشتالة ، ومع غرسيه سانشيز ملك نافار ، ومع كونت برشلونة وتأهبوا للصدام ، فخرج لهم الحكم على رأس صائفة معلنًا الجهاد فاجتاحت الجيوش الإسلامية قشتالة ومزقت جيوشها ثم غربي مملكة نافار ، وحدثت اضطرابات داخلية في الممالك النصرانية وثورات كثيرة أضعفت هذه الممالك وجعلتها تلتزم الهدوء تجاه المسلمين حينًا ، ثم طلبوا الصلح بعد ذلك إيثارًا للسلم والمودة مع حكم المستنصر والدخول في الطاعة فسالمهم .

★★★

(466) قشتالة أعظم الممالك النصرانية رغم نشأتها المتواضعة :

أعلن ملك قشتالة استقلاله عن مملكة ليون ، وسعى إلى توسيع ملكه وتوطيد حكمه ، فهذا كونثالث يغير من وقت لآخر على أراضي المسلمين لإضعافهم وتدعيم هيبته في نفوس النصارى واجتذاب عطفهم ومحبتهم ، ومنذ ذلك الوقت بدأت قشتالة تحتل مكانة كبيرة في تاريخ الكفاح بين إسبانيا النصرانية وإسبانيا المسلمة ، وتغدو أعظم الممالك النصرانية وأوفرها قوة ومنعة ، وأشدها مراسًا في محاربة المسلمين وإنهاك قواهم .

★★★

(467) الحكم المستنصر يؤدب النصارى بسبب نكث العهود :

ظنت الممالك النصرانية أن الأندلس لن تعود إلى عهدها بعد وفاة عبد الرحمن الناصر ، فنكث سانشو العهود التي بينه وبين الناصر ، ثم نقض عهده مع الحكم المستنصر ، ولما طلب الحكم بن ملك نافار تسليم فرنان كونثالث رفض ملك نافار أمر الحكم ، بل زاد فأطلق فرنان من أسره ، فرأى الحكم أنه لابد من تأديبهم فأعدّ جيشًا (351 هـ) وفتح حصونًا كثيرة ، وقتل وغنم ثم رجع ظافرًا ، وأعد جيشًا آخر (352 هـ) أرعب به النصارى وحملهم على الاتحاد لمواجهة الزحف الإسلامي فغزا الجيش ليون ، وقشتالة ، ونافار ، ومزّق جيوشهم ، واضطرهم إلى طلب الصلح والإذعان للمسلمين ، وصاروا كالأمم الضعيفة التي لا تملك الدفاع عن نفسها .

★★★

(468) غزو الفايكنج لسواحل الأندلس ورد فعل المستنصر :

أغرت حالة الرخاء التي عاش فيها الأندلسيون عصابات الفايكنج الذين هاجموا الأندلس من قبل في عصر الأندلس ، فجددوا الكرّة وهاجموا السواحل الأندلسية بثمانية وعشرين مركبًا ، وعاثوا في الأرض فسادًا ، وخرج المسلمون لقتالهم فقتل من الطرفين

عدد كبير ، فأرسل لهم المستنصر المدد من الرجال والأسطول فهزمهم المسلمون شرّ هزيمة ، وحطموا عددًا من مراكبهم ، وردّوهم خائبين خاسرين وخلّصوا أسرى المسلمين منهم ، وكانت سفن المسلمين تجوب المياه الغربية للأندلس فترة ، ولم يجرءوا على مواجهة المسلمين ومهاجمتهم فترة طويلة .

بداية الدولة العامرية

وهشام المؤيد بن الحكم

(469) زلة الحكم المستنصر قبل وفاته :

أصيب الحكم في آخر أيامه بالشلل ، فقام باستخلاف أكبر أبنائه هشام بن الحكم وعمره آنذاك أحد عشر عامًا أو عشر سنين أو تسع سنين على خلاف ، وهي كبوة كبيرة لأن الدولة مترامية الأطراف ؛ النصارى من الشمال ، والعبيديون من الجنوب ، وممالك أوروبا تتربص للكيد بهذه الدولة الكبيرة .

★★★

(470) حزبان قويان في قصر هشام المؤيد الحاكم الصغير :

انقسم القصر إلى حزبين قويين هما : الفتيان الصقالبة من جهة ، ومن الجهة الأخرى الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ، ومعه قائد الشرطة القوى والناظر على شئون الخليفة متولي أمره محمد بن أبي عامر ، ومن وراء هذا الحزب أم الخليفة صبح البشكنسية أقوى شخصية في هذا الحزب في تلك الأيام .

★★★

(471) الفتيان الصقالبة وأمراء بني أمية :

كان من عادة أمراء بني أمية الإكثار من الفتيان الصقالبة ، والاعتماد عليهم في أعمال القصر وأمورهم الخاصة ، حيث سار عبد الرحمن الناصر ومن بعده الحكم المستنصر

على هذا النهج ، فبلغ عدد الصقالبة في نهاية عصر المستنصر أكثر من ألف فتى ، فاتّسع نفوذهم ، وأصبحوا قوة لا يُستهان بها لقربهم من الخليفة ، ولكون الخليفة كان يعتمد عليهم في الحراسة ، فظنوا أن الملك بأيديهم وأن لا غالب لهم .

★★★

(472) سنة (364 هـ = 974 م) سنة المحنة والعطاء عند الحكم :

في هذه السنة اعتلّ (مرض) الحكم فاحتجب عن جميع مملكته ، إلى أن تخفف وصبه ، وظهر لخاصته ، وفي ربيع هذا العام أعتق نحوًا من مائة رقبة من عبيد له فيه لبعضهم تدبير وفي باقيهم عتق ، وفيها حبس حوانيت السراجين بقرطبة على المعلمين لأولاد الضعفاء ، وفيها أسقط سدس جميع المغارم عن الرعايا بجميع كور الأندلس ، شكرًا لله على إنظاره له ، وفيها كان الظفر بأبي الأحوص معن بن عبد العزيز فقبض عليه رشيق وبعثه مكبولاً إلى قرطبة مع عشرة من أصحابه .

★★★

(473) أخذ البيعة لأبي الوليد هشام بن الحكم :

في سنة (365 هـ = 975 م) كان الإعلام ببيعة أبي الوليد هشام بن الحكم ، وأن تؤخذ له من العامة والخاصة بقرطبة ، وسائر كور الأندلس ، وما تنحو إلى طاعته من بلاد الغرب ، كما ذكر في الخطبة على المنابر في الجمعة والأعياد ، فقلّد الحكم ابنه هشامًا عهد الخلافة من بعده ، فالتزمت بيعته وأخرجت نظائر من كتب البيعة ليوقع شهادتها كل من التزمها .

★★★

(474) وفاة الحكم المستنصر والمصحفي يدير السلطان :

في سنة (366 هـ = 976 م) توفي الحكم المستنصر بعد اتصال علّته ، وتولى جعفر ابن عثمان المصحفي إدارة سلطانه إلى حين وفاته ليلة الأحد لثلاث خلون لرمضان من السنة المؤرخة .

★★★

(475) من هو جعفر بن عثمان المصحفي ؟ :

هو أبو الحسن جعفر بن عثمان بن نصر بن فوز بن عبد الله بن كسيلة القيسي ، كان لطيف المنزلة من الحكم المستنصر بالله ، قديم الصحبة ، قريب الخاصة ، وكان والده عثمان بن نصر مؤدبًا للحكم المستنصر في صباه ، وكان جعفر بن عثمان أحد شعراء الأندلس المحسنين ، وكان واسع التطلع ، ترقى في الوظائف حتى ظهر في أفق الخلافة .

★★★

(476) الفتيان الصقالبة وخبر وفاة الحكم المستنصر :

كان كبير الفتيان الصقالبة يسمى : الفتى فائق ، ويليه في المرتبة والمكانه الفتى جؤذر ، ولما مات الحكم المستنصر كتم هذان الفتيان خبر موته ، وضبطوا أمور القصر ، وعزموا على صرف أمر الخلافة عن هشام بن الحكم لصغر سنّه ؛ لعلمهم بأن الأمر سيكون مآله إلى حزب المصحفي وابن أبي عامر وصبح ، فعقدوا العزم على نقل الخلافة إلى المغيرة بن عبد الرحمن الناصر أخي الحكم فيكون لهما فضل عليه .

★★★

(477) الفتيان فائق وجؤذر وذكاء الحاجب المصحفي :

وضع الفتيان فائق وجؤذر خطة محكمة لتنفيذ فكرتهما بتولية المغيرة بدلاً من هشام ، فوجدا أنه لن يتم لهما الأمر في وجود الحاجب المصحفي فأشار جؤذر بقتل المصحفي ، ورفض فائق مقترحًا الإتيان به وتخييره بين الموافقة والقتل ، فأرسلا إليه فحضر الحاجب ونعوا إليه الحكم وما ينويان فعله ، فأدرك الحاجب التهديد الكامن وراء الكلام فأظهر الموافقة ، واتفق معهما على تسيير أمور القصر حتى ينفذ الأمر .

★★★

(478) حنكة الحاجب المصحفي في تدبير الأمور :

بادر الحاجب المصحفي إلى ضبط أبواب القصر لكي لا ينتشر الخبر ، ثم سارع إلى

طلب كبار رجال الدولة من العرب والبربر ، وكان منهم محمد بن أبي عامر ، كما أمر بإحضار أتباعه وشيعته ، ونعى إليهم الخليفة ، وأخبرهم بخطة الفتيان الصقالبة في تحويل أمر الخلافة إلى المغيرة بن عبد الرحمن الناصر بدلاً من هشام بن الحكم ، ثم عرّفهم أضرار ذلك إن انتقلت إلى المغيرة فسوف يستبدل بهم آخرون ويشفي أحقاده .

★★★

(479) الحل هو قتل المغيرة بن عبد الرحمن الناصر :

انتهى اللقاء بين الحاجب وكبار رجال الدولة بالاتفاق على قتل المغيرة بن عبد الرحمن ، ولكن لم يجرؤ أحد منهم على التقدّم لتنفيذ هذا الأمر ، فلما رأى ابن أبي عامر ذلك سارع بتنفيذ هذه المهمة حرصًا منه عليهم ، فذهب بفرقة من الجنود ونعوا إليه الحكم ، ثم قتلوه شنقًا أمام حريمه ، ثم علّقوا جثمانه على هيئة المشنوق ليقولوا من بعد : إنه قتل نفسه لمّا أكرهوه على الركوب لابن أخيه لمبايعته ، وكانت سنه يوم قُتل سبعًا وعشرين سنة .

★★★

(480) الفتيان الصقالبة يعتذران ويعلنان الطاعة :

لمّا استتب الأمر لجعفر وابن أبي عامر تلاوم فائق وجؤذر ، ثم أرسلا إلى جعفر يعتذران إليه ، **ويقولان له** : « إن الجزع أذهلنا عمّا أرشدك الله إليه ، فجزاك الله عن ابن مولانا خيرًا ، وعن دولتنا وعن المسلمين » ، وأظهرا له القبول والاستبشار ، فأظهر الحاجب جعفر لهما قبول عذرهما ، وعدم التثريب عليهما .

★★★

(481) المصحفي يبعد خمسمائة من الصقالبة عن القصر :

بلغ المصحفي أن فائقًا وجؤذرًا يتآمران مع بعض أتباعهما من الصقالبة في داخل القصر وخارجه ؛ لتنحية هشام عن الملك ، فشدّد الحاجب الرقابة على الصقالبة ، وسدّ الباب المخصّص لهم في القصر ، وأمر أن يدخلوا من باب السدّة مع عامة الناس ،

وألحق خمسمائة منهم إلى حاشية ابن أبي عامر ، فعمل ابن أبي عامر على استرضائهم ، وقويت بهم شوكته من بعد .

★★★

(482) التخلّي عن الفتى جؤذر وقبول استقالته :

أحسّ الصقالبة أن أمورًا كثيرة تحاك في الظلام ، فأعلن الفتى جؤذر رغبته في الاستعفاء من عمله ظنًا منه أنّ له مكانة في القصر ، إلا أن استقالته قد قبلت بالفعل في رسالة واضحة لمن بقي منهم ، أنهم لا يمثلون الأهمية الكبيرة التي يظنونها لأنفسهم .

★★★

(483) إقامة جبرية للصقالبة في دورهم والتنكيل بهم :

ازداد تذمر وسخط الصقالبة بعد قبول استقالة جؤذر ، وكان أكثرهم الفتى دري ، فانقلب عليه ابن أبي عامر ورفع أمره وأمر الصقالبة إلى هشام المؤيد ، وحين حمل دري إلى القضاء تشاجر مع ابن أبي عامر فصدر القرار بمغادرة الصقالبة القصر إلى بيوتهم ، وألا يخرجوا منها ، واشتد في مطاردتهم وأخذ أموالهم حتى لا يفكروا في العودة إلى التآمر مرة أخرى ، ثم نُفِي فائق إلى الجزائر الشرقية فبقي بها حتى مات .

★★★

(484) مَنْ هو محمد بن أبي عامر مؤسس الدولة العامرية ؟

هو محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري ، نشأ نشأة حسنة ، وظهرت عليه علامات النجابة ، تدرج في المناصب حتى وصل إلى وكيل لعبد الرحمن بن الحكم ، ثم لهشام بعد وفاة عبد الرحمن ، ولم يلبث أن رقي في المناصب فعيّن أمينًا لدار السكة (وزارة المالية) ، وكلّف بالنظر على الخزانة العامة ، وخطة المواريث .

★★★

(485) نجابة مبكرة وأعمال مدهشة وخبرة رغم صغر السِّن :

من المدهش أن محمد بن أبي عامر لم يتول عملاً إلا وأداره ببراعة وكفاءة فاقت براعة سالفيه ، رغم صغر سنّه وخبرته ، وكان يجمع بين المناصب والتكاليف مهما اختلفت وتكاثرت ، فيبدي مهارة فائقة في الإدارة والتصرف .

★★★

(486) عوامل مساعدة تقفز بابن أبي عامر إلى أعلى المراتب :

كان هناك أشياء ساعدت على نهوض ابن أبي عامر ، **منها** : إنه استطاع استمالة صبح البشكنسية أم هشام المؤيد وجارية الحكم المستنصر بحسن خدمته لها ولابنها ، بجانب حسن النشأة والنجابة والسيادة المنغرسة بداخله ، فأعمل الحيل والتدابير في إسقاط المصحفي والانفراد بالدولة ، ومناصرة الوزير أبي تمام غالب الناصري .

★★★

(487) ظهور نجم الوزير أبي تمام غالب الناصري :

هو أبو تمام غالب الناصري ، صاحب مدينة سالم والثغر الأدنى ، شيخ الموالي قاطبة وفارس الأندلس يومئذ غير مدافع له ، وكان بينه وبين الحاجب ابن عثمان المصحفي عداوة ومنافسة ؛ لأنه لا يراه أهلاً لأن يكون شيخ الموالي دونه ، حيث ليست له سابقة جهاد ولا تاريخ ، ولم يترفع في مناصب الدولة إلا لأنه كان معلمًا ومربيًا للخليفة الحكم ، فعهد إليه بالحجابة لما ولي الحكم .

★★★

(488) ابن أبي عامر يصل إلى حكم قرطبة بمساعدة غالب :

كانت جيوش النصارى وثوراتهم وهجماتهم قد أضعفت مركز غالب ، وكان ابن أبي عامر يعلم مدى كراهية غالب للمصحفي ، فذهب بصائفة كبيرة إلى غالب وعظّمه ، ونهضا معًا فافتتحا حصن المال وحصن زنبق ، وأخذا أرباضية ، وعاد

ابن عامر إلى قرطبة بالغنائم والسبى وبعدد عظيم من رءوس المشركين ، وحينها أصدر المؤيد قرارًا بإقالة محمد بن جعفر المصحفي وتولية ابن أبي عامر المدينة .

★★★

(489) تغير أحوال قرطبة وارتفاع أسهم محمد بن أبي عامر لتولي الحجابة :

ضبط ابن أبي عامر قرطبة ضبطًا ، أنسى أهلها ما سلف من أفراد الخدم الذين كانوا يعيثون في الأرض فسادًا ، وأُولي السياسة ، وكانوا قبله في بلاء عظيم ، يتحارسون الليل كله ، ويُكابدون من روعات طُرّاقه ما لا يُكابد أهل الثغور من العدوّ ، فكشف الله ذلك عنهم بمحمد بن أبي عامر ، وكفايته ، وتنزُّهه عما كان يُنسب لابن جعفر ، فَسَدّ باب الشفاعات وقمع أهل الفسق والشراسة وسوء الخلق ، حتى ارتفع البأس وأمن الناس .

★★★

(490) وليمة نهايتها ضربة سيف تشجُّ رأس ابن أبي عامر :

خرج المنصور إلى غزوة من غزواته في الصوائف إلى قشتالة ، فدعاه غالب الناصري إلى وليمة أقامها بمدينة (أنتيسة) وعزم عليه في حضورها ، وكان المنصور قد تزوج من قبل أخت غالب في مشهد لم يُعرف من قبل في الأندلس ، ولما ذهب ابن أبي عامر جرى بينه وبين غالب نقاش واحتدّ حتى سبّه غالب ، **وقال له** : « يا كلب ؛ أنت الذي أفسدت الدولة ، وضربت القلاع ، وتحكمت في الدولة » ، وسل سيفه فضربه ، ولولا أن أحد الحاضرين أعاق يده فانحرفت ضربة السيف لكانت الضربة قد قتلت ابن أبي عامر ، ولكن أصابته بشجٍّ في رأسه .

★★★

(491) نجاة المنصور وإعلان العداوة بين الطرفين :

ولحسن الحظ استطاع ابن أبي عامر أن يلقي نفسه من فوق القلعة ، وأن ينجو من هذا المأزق الخطير بما فيه من إصابات ، ثم عاد إلى قرطبة وقد استُعلنت بينهما العداوة .

★★★

(492) المنصور يتجهّز لغالب ، وغالب يطلب النجدة من براميرو الثالث :

جهز ابن أبي عامر جيشًا من قرطبة ثم سار به إلى ملاقاة غالب الناصري ، ويقع الفارس المغوار غالب صاحب الثمانين عامًا في خطأ جمّ ؛ إذ اتصل ببراميرو الثالث ملك ليون ، وطلب منه النجدة ضد جيش قرطبة ، ويلتقي الجيشان فهجم غالب على الميمنة فغلبها والميسرة فمزقها ، وأراد أن يهجم على القلب بما فيه ابن أبي عامر ، ولكن الجنود يعثرون على غالب ميتًا دون أن يصاب بسهم ولا ضربة فعادوا بالبشرى إلى ابن أبي عامر .

★ ★ ★

(493) لقاء السحاب بين غالب والمنصور :

التقى الجيشان جيش قرطبة يقوده ابن أبي عامر في القلب ، وعلى الميمنة فارس المغرب - الذي صار فارس المغرب والأندلس - جعفر بن حمدون ، وعلى الميسرة الوزير أحمد بن حزم (والد الإمام ابن حزم) وغيره من الرؤساء ، أمام جيش غالب الناصري ومعه جيش ليون .

★ ★ ★

(494) غالب الناصري يخلخل جيش قرطبة :

رغم أن غالبًا كان قد بلغ الثمانين ، إلا أنه هجم على الميمنة فغلبها ومزّقها ، ثم عاد فهجم على الميسرة ففعل فيها ما فعله بالميمنة ، وما هو إلا أن واجه القلب وفيه ابن أبي عامر ، وهو لقاء عجيب بين رجلين لم يهزما قط ، فهزيمة أحدهما ستكون الأولى والأخيرة في حياته فيختم بها سجل حياته .

★ ★ ★

(495) غالب الناصري يستخير قبل اللقاء :

لما قرب اللقاء رفع غالب صوته قائلًا : « اللهم إن كنتُ أصلحَ للمسلمين من ابن أبي عامر فانصرني ، وإن كان هو الأصلح لهم فانصره » ، وأراد الله أن يموت أحد

الرجلين ولم ينهزم أحدهما ، ولعل الله استجاب إلى دعاء غالب فأبقى للمسلمين من هو أصلح لهم .

★★★

(496) من عجائب القدر في مشهد موت غالب الناصري :

روى ابن حزم عن أبيه الوزير شاهد العيان ، أنه حدث ما لا يمكن أن يتصور في هذا الموقف ، لقد مشى غالب بفرسه إلى خارج الجيشين ، فَظَنّ الناس أنه يريد الخلاء ، ثم طال غيابه ، فذهب بعض جنوده للبحث عنه فوجدوه ميتًا بلا أثر ولا ضربة ولا رمية .

★★★

(497) ابن أبي عامر يصل إلى الحجابة ونهاية المصحفي :

بعد ذلك قلّد هشام المؤيد الحجابة لابن أبي عامر مع المصحفي مشاركة ، ثم سخط على المصحفي وصرفه عن الحجابة في (13) شعبان 367 هـ = فبراير 958 م ، وأمر بالقبض عليه وعلى ولده ، وعلى ابن أخيه هشام ، وصُرفوا عما كان بأيديهم من الأعمال وطولبوا بالأموال ، فتوصل ابن أبي عامر بمحاسبتهم إلى استصفاء أموالهم وانتهاك حرمهم وترديد النكبات عليهم حتى مزقهم كل ممزق ، وسارع إلى قتل هشام ابن أخي جعفر في المضيق ، وأيقن جعفر المصحفي بأنه هالك لا محالة ، فحاول استرضاء ابن أبي عامر ، إلا أن ذلك لم يجد شيئًا ، حتى توفي (372 هـ) في سجنه ، **وقيل** : قُتل ، **وقيل** : دُسّ إليه شربة فيها سُمّ .

★★★

(498) ابن أبي عامر يقتل (ابن الأندلس) :

في سنة (372 هـ = 972 م) قتَل ابنُ أبي عامر جعفرَ بنَ عليٍّ بن حمدون ، وذلك أن المنصور عزم – بزعمه – على إكرام جعفر المذكور ليلة الأحد (3) شعبان من السنة مكرًا منه وحيلة لقتله ، فقدم له كأسًا في المجلس فطربوا جميعًا ، وأرسل أحد خدامه ليلاً ولم يكن عنده مَنعة لما كان عليه من السُّكر ، فأخذته السيوف حتى برد وجُزّ رأسه ويده اليمنى ، وحملا إلى ابن أبي عامر سرًا ، فأظهر ابن أبي عامر الحزن عليه .

(499) الخلاص من الشريف الحسني وامتلاك الغرب والقضاء على الأدارسة :

في سنة (375 هـ = 975 م) ، جهز المنصور جيشًا كثيفًا وبعثه إلى العدوة ، فحاصر حسن بن قنون الشريف الحسني ؛ لأنه حاول الخروج من الدعوة المروانية ، واجتمع إليه خلق من أهل الغرب ، وظهر أمره ، فوصله الجيش العرمرم ، فلم يجد ملجأ إلا الأمان والاستسلام ، فأمَّنه قائد الجيش حتى حمله إلى قرطبة ، فأمر ابن أبي عامر بقتله في الطريق بغيًا وتعديًا ؛ لأن أمان قائده أمانه ، وبذلك ملك ابن أبي عامر الغرب ، وأخرج منه من كان بقي فيه من الأدارسة ؛ فقتل بعده زيري بن عطية المغراوي ثم عبدالرحمن بن مطرف صاحب سرقسطة .

★★★

(500) الحضرة لعبد الله بن أبي عامر ، والثغر لعبد الرحمن بن مطرف :

كان سبب القضاء على ابن أبي مطرف ، أن لجأ إليه عبد الله بن محمد بن أبي عامر مقيمًا في سرقسطة بعدما تغيّرت نفسه على أبيه لإحظائه عبد الملك أخاه ، وكان عبد الله يرى أنه الأشجع والأرجل والأفرس وأن أباه قد ظلمه ؛ فتواطأ بالوثوب على المنصور على أن يقسما الأندلس بينهما ؛ فالحضرة لعبد الله والثغر لعبد الرحمن ، وشرعا في إحكام سبيل ذلك والتماس وجهه ، وساعدهما في ذلك جماعة من وجوه أهل قرطبة من الجند والخدمة وغيرهم ، فيهم الوزير عبد الله بن عبد العزيز المرواني صاحب طليطلة .

★★★

(501) المنصور يتخلص من هذا الحلف الرهيب بذكاء نافذ :

انبعثت أراجيف شنيعة ، تحقق المنصور صحتها ولم يشك فيها ، فاستدعى ابنه عبد الله من سرقسطة واستأنف له كثيرًا من التقديم والمبرة خديعة ومغالطة ، وصرف المرواني عن طليطلة صرفًا جميلاً ، ثم صرفه عن الوزارة بعد مُدَيْدة وألزمه داره ، ثم خرج ابن أبي عامر غازيًا إلى قشتالة ، وتوافت له أمداد الثغور فيهم عبد الرحمن بن

مطرف ورجال سرقسطة ، فلما صاروا بوادي الحجارة دس لهم دسيسة صُرِف إثرها عن سرقسطة ، وعين مكانه ابن أخيه عبد الرحمن بن يحيى المعروف بسماحة .

★ ★ ★

(502) المنصور يقتل ابنه عبد الله :

كان عبد الله بن المنصور يعرف بشاعة ما فعله وينتظر العقاب عليه ، وعرف أن أباه ينوي قتله ، فأظهر شجاعة عظيمة لدى الموت ، فمشى إلى الموت منطلقًا ، وظهرت منه عند الموت صرامة عجب لها من شاهده ، وتقدم إليه ابن خفيف الشرطي فضرب عنقه صبرًا عند غروب الشمس من يوم الأربعاء (14) جمادى الآخرة (380 هـ) = يونيو 990 م ، وأرسل المنصور رأس ابنه إلى الخليفة مع كتاب الفتح ، ودفن جسده في الموضع الذي دُفن فيه ، وكانت سنُّهُ آنئذٍ (23) سنة .

★ ★ ★

(503) الحاجب منصور يَنقش اسمه على النقود :

بعد عودة الجيش الإسلامي إلى قرطبة مكللاً بالنصر ، وبعد القضاء على غالب ، وهزيمة جيش ليون ، وجيوش النصارى المتحالفة ، والوصول إلى أبواب ليون ، قام محمد بن أبي عامر (371 هـ = 982 م) باتخاذ لقب ملوكي ، فَلَقَّب نفسه بالحاجب منصور ، ثم أصبح يُدعى له على المنابر مع الخليفة هشام بن الحكم ، ثم نُقش اسمه على النقود وعلى الكُتب والرسائل .

★ ★ ★

(504) الحاجب منصور متفوق داخليًا وخارجيًا :

كان عهد المنصور بن أبي عامر في الذروة من القوة والكفاءة ، فعلى المستوى الخارجي جهاد دائم ، يخرج مرتين في العام فينتصر ، وعلى المستوى الداخلي فاض الأمن والرخاء ، وبلغت الحضارة والمدنية آفاقها السامقة .

★ ★ ★

(505) الخليفة هشام بين العبادة واللهو والذكاء مغلوبًا على أمره :

اختفى تمامًا الخليفة هشام في ظل الهيمنة الكاملة للحاجب منصور ، وظل حبيس قصره الفاخر في الزاهرة لا يتولى من أمر الملك شيئًا ، وقد ذكر ابن عذارى أنه كان منصرفًا للعبادة مقبلاً على العلم كثير الإنفاق على المحتاجين ، وذهب ابن خلكان إلى أنه كان يتصف بالذكاء والحكمة ، ويذكر ابن سعيد المغربي أنه كان منصرفًا إلى اللهو والعبث ومجالسة الجواري والاهتمام بالتفاهات ، إلاَّ أنه كان مغلوبًا على أمره ، ليس في يده شيء يمكنه به استرجاع ملكه في ظل السيطرة الكاملة للمنصور على مقادير الأمور .

★★★

(506) الحاجب منصور يأتي بأمر لم يُعهد من قبل في تاريخ الأندلس :

قام المنصور (381 هـ = 991 م) بأمرٍ لم يُعهد من قبل في تاريخ الأندلس ؛ بل في تاريخ المسلمين ، حيث عهد بالحجابة من بعده لابنه عبد الملك بن المنصور ، وكان المشهور والمتعارف عليه أن يكون العهد بالخلافة ، وأن يكون من الخليفة نفسه ، ثم بعد خمس سنوات أي في (386 هـ = 996 م) اتخذ لنفسه لقب (الملك الكريم) .

★★★

(507) الحاجب منصور يسبق الأولين في غزو مملكة ليون :

كان عدد غزوات المنصور أربعًا وخمسين غزوة ، لم يهزم في واحدة منها ولم تنكسر له راية ، ولا فلَّ له جيش ، ولا أصيب له بعث ، ولا هلكت له سريّة ، بل وصل في فتوحاته إلى أن غزا النصارى في عقر دارهم ، في ليون تلك المنطقة التي لم تفتح من قبل ولم يصل إليها الفاتحون الأوائل ؛ **مثل** : موسى بن نصير ، وطارق بن زياد ، أما المنصور فقد وصل إلى خليج بسكاي والمحيط الأطلسي في الشمال .

★★★

الحاجب منصور و(شانت ياقب) أو (سانت يعقوب)

(508) ما المقصود بـ (سانت يعقوب) ؟ :

(**سانت يعقوب**) : هو الاسم العربي لـ (شانت ياقب) ؛ **أي** : القديس يعقوب ، وكانت هذه المدينة في أقصى الشمال الغربي من شبه الجزيرة الأيبيرية ، وهي شديدة الوعورة ، ولم يصل إليها فاتح مسلم قبل الحاجب منصور ، وهي أعظم مدن النصارى ، يأتونها من مختلف بقاع الأرض ليزوروا قبر هذا القديس ، وهي عندهم بمنزلة عظيمة ، بها يحلفون وإليها يحجون من أقصى بلاد رومة وما وراءها .

★★★

(509) لماذا رغب الحاجب منصور في غزو هذه المدينة ؟

لأن ملوك النصارى في الأندلس كانوا كلما هاجم ابن أبي عامر عواصمهم وهمّ أن يمسك بهم ، فرّوا إلى هذه المنطقة القاصية الوعرة ؛ يحتمون فيها من بأس المسلمين ؛ ولهذا قرر ابن أبي عامر أن يذهب إلى هذه المدينة ، وأن يحطم أسوارها وحصونها ، وليُعْلِم هؤلاء أن ليس في شبه الجزيرة كلها مكان ، يمكنهم أن يحتموا فيه من بطش المنصور .

★★★

(510) اختلاف الروايات في قدسية هذه المدينة عند النصارى :

وقصة هذه المدينة هي ما يُقال في أساطيرهم عن يعقوب صاحب هذا القبر ، من أنه كان أحد حواريي سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام الاثنى عشر ، وأنه كان أقربهم إليه عليه السلام حتى سمّوه أخاه للزومه إياه ، فكانوا يسمونه أخا الرّب – تعالىٰ الله عما يصفون علوًا كبيرًا – ، ومنهم من يزعم أنه ابن يوسف النجار ، **وتقول الأسطورة** : إن صاحب هذا القبر كان أسقف بيت المقدس ، وأنه جاب الأرض شرقًا وغربًا داعيًا إلى عقيدته حتى وصل إلى تلك الأرض البعيدة ، ثم إنه عاد إلى أرض الشام ، وقُتل بها ، فلما مات نقل أصحابه رفاته إلى آخر مكان بلغه في رحلته الدعوية .

(511) موقعة (سانت ياقب) وبشارة بالفتح :

في صائفة (378 هـ) وهي غزوته الثامنة والأربعون ، قاد الحاجب منصور قواته إلى سانت ياقب ، وتحرك الأسطول متجهًا إلى قصر (دانس) غرب الأندلس ، وتحرك معه عدد كبير من أمراء النصارى الإسبان ، واخترق الجبال الوعرة وفتح كل الحصون والبلاد التي مرّ عليها في طريقه وغنم وسبى ، حتى وصل إلى المدينة ، فافتتحها وتعمق حتى وصل إلى المحيط دون أن يقف أمامه شيء ، فأغدق الأموال على النصارى والكساء ، كلٌّ بحسب قدره ، ثم كتب إلى المسلمين يبشرهم بالنصر .

★★★

(512) الحاجب منصور وراهب قبر القديس يعقوب :

افتتح الحاجب منصور مدينة (سانت ياقب) ولم يجد فيها إلا راهبًا بجوار قبر القديس يعقوب ، فسأله عن سبب بقائه ، **فقال** : أؤانس يعقوب ، فأمر بتركه وعدم المساس به ، وأمر بتخريب حصون هذه المدينة وأسوارها وقلاعها ، وأمر بعدم المساس بقبر القديس يعقوب .

★★★

(513) الحاجب منصور يسيّر جيشًا لإنقاذ ثلاث نسوة :

كان بين الحاجب منصور ومملكة نافار عهد ، يقضي بأن يدفعوا له الجزية ، وألا يأسروا أحدًا من المسلمين عندهم أو يستبقوهم في بلادهم ، وفي مرة ذهب رُسُل الحاجب منصورًا إلى مملكة (نافار) ، وفي أثناء جولتهم في المملكة وجدوا ثلاث نسوة من نساء المسلمين في إحدى الكنائس فأخبروا الحاجب منصورًا الذي سيّر جيشًا جرارًا لإنقاذ النسوة ، ولما وصل الجيش إلى (نافار) تعجب ملك المملكة ، **وقال** : « نحن لا نعلم لماذا جئتم ؟ وقد كانت بيننا وبينكم معاهدة على ألاّ نقاتل ، ونحن ندفع الجزية » **فردّوا عليه** : « إنكم خالفتم عهدكم ، واحتجزتم عندكم أسيرات مسلمات » ، **فقال** : « لا نعلم شيئًا عنهن ، فقد أسرهن جندي من الجنود ، وقد تم عقاب هذا الجندي » ، ثم

أرسل رسالة إلى الحاجب منصور يعتذر فيها اعتذارًا كبيرًا ، ويخبره بأنه قد هدم هذه الكنيسة ، فعاد الحاجب منصور إلى بلده ومعه النسوة الثلاث .

★★★

(514) النصارى ينصبون كمينًا للمنصور :

في صوائفه وشواتيه لبلاد النصارى ، وفي إحداها عبر مضيقًا في الشمال بين جبلين ونكاية فيه نصب له النصارى كمينًا كبيرًا ، فتركوه حتى عبر بكل جيشه ، وحين همّ بالرجوع وجد طريق العودة مقطوعًا ، ووجد المضيق قد أغلق تمامًا بالجنود .

فاحتل مدينة من مدن النصارى وأخرج منها أهلها وعسكر فيها ، ووزّع ديارها على جنده ، وتحصن وعاش فيها فترة ، واتخذها مركزًا له يقود منها سير العمليات العسكرية ، فضاق النصارى ذرعًا بهذا فعرضوا عليه الصلح وفتحَ طريق العودة ، فرفض إلا بشرط بذل المال والدواب التي تحمل ما غنمه من بلادهم ، فأجابوه موافقين ، وفتحوا له الدرب .

★★★

(515) الحاجب منصور وقارورة ملأى بالغبار :

كان من عادة المنصور في جهاده وبعد كل معركة أن ينفّض ثوبه ، ويأخذ ما يخرج منه من غبار يضعه في قارورة ، ثم أمر في نهاية حياته أن تدفن معه هذه القارورة ، وذلك حتى تشهد له يوم القيامة مقتديًا بحديث الرسول ﷺ : « .. **ولا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودُخَان جَهَنّم** » [الترمذي : فضائل الجهاد / 1633 - حسن صحيح] .

★★★

(516) من مميزات الحاجب منصور الهجوم دون الدفاع :

ولقد كان من أهم مميزات جهاد الحاجب منصور أنه كان يبدأ بالهجوم ، ويحاول إجهاض المؤامرات في مهدها ، ولا ينتظر حتى يكون في موقف الدفاع مثلما كان حال من سبقه .

★★★

(517) توسعة مسجد قرطبة وصاحبة النخلة :

من الجوانب المضيئة في حياة المنصور اهتمامه بالجوانب الحضارية في البلاد ، فزاد كثيرًا من مسجد قرطبة ، وكان يشتري المساحات التي بجوار المسجد من قاطنيها وذلك بالمبلغ الذي يرضونه ، وكانت هناك سيدة وحيدة تسكن في بيت فيه نخلة بجوار المسجد ، وقد رفضت هذه السيدة التخلي عن دارها إلا إذا اشترى لها الحاجب منصور دارًا فيها نخلة ، فأمر الحاجب منصور بشراء بيت لها كما أرادت ، حتى ولو أتى ذلك على ما في بيت المال كله ، ثم أضاف بيتها إلى حدود المسجد .

★★★

(518) أكبر مسجد في العالم يتحول إلى كنيسة :

اهتم الحاجب منصور بتوسعة مسجد قرطبة توسعة كبيرة ، حتى أصبح ولفترة طويلة من الزمان من أكبر مساجد العالم بل أكبر من أي كنيسة ، وهو ما يزال إلى الآن موجودًا في قرطبة ، ولكن حوِّل إلى كنيسة بعد سقوط الأندلس ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

★★★

(519) الزّاهرة الموصوفة بالمشيدات الباهرة :

مدينة الزاهرة مدينة متصلة بقرطبة ، بناها المنصور بن أبي عامر ، لمّا استولى على دولة خليفته هشام ، وأقامها بطرف البلد على نهر قرطبة ، ونسَّق فيها كل اقتدار معجز ونظَّم ، وشرع في بنائها سنة (368 هـ) ، فحشر إليها الصُّناع والفَعَلة ، وأبرزها بالذهب واللازورد ، وجلب نحوها الآلات الجليلة ، وبالغ في رفع أسوارها ، وبنى معظمها في عامين ، واتخذ فيها الدواوين للعمال ، ترتفع فيها ضروب الأعمال والاصطبلات ، وقامت بها الأسواق ، وكثرت فيها الأرزاق ، نزل فيها الخليفة (370 هـ) ، ورتب فيها نزول وزرائه ، ورءوس أمرائه ، وقصدها أصحاب الولايات ، وحشد إليها الناس من جميع الأقطار .

★★★

(520) جزيرة الأندلس في عهد المنصور عامرة ناضرة زاهرة :

كانت جزيرة الأندلس في عصر الحاجب منصور مزدهرة بالتجارة والصناعة والعلوم ، وعمّ الرخاء ، وامتلأت خزانة الدولة بالمال ، ولم يعد هناك فقراء تمامًا ، كما أنّه عمّر بلاد النصارى حتى صارت الجزيرة الأندلسية كلها متصلة العمران ، عامرة زاهرة خضرة نضرة .

★★★

(521) الحاجب منصور والثورات في عهده :

من اللافت للنظر أن فترة حكم الحاجب منصور ، والتي امتدّت من (366 هـ = 976 م) وحتى سنة (392 هـ = 1002 م) لم تقم خلالها أي ثورة ، أو تمرّد ، على طول البلاد واتساعها واختلاف أمزجتها .

★★★

(522) كلاهما سواء : الرجل البسيط ونائب رئيس الوزراء أمام القاضي :

انتشر العدل والأمن والأمان في البلاد في عهد المنصور ؛ إذ جاءه رجل بسيط من عامة الشعب يطلب مظلمة ، **قائلًا** : إن لي مظلمة وإن القاضي لم ينصفني ، **فردّ القاضي** : إن مظلمته ليست عندي إنما هي عند الوسيط (بمكانة نائب رئيس مجلس الوزراء الآن) ، فأحضر المنصور الحاجب الوسيط وجرّده من سلطاته وسيفه ، ثم أجلس الاثنين أمام القاضي ، فنظر القاضي في أمرهما ، **وقال** : إن الحق مع هذا الرجل البسيط ، وقد قضيت على الوسيط بكذا وكذا ، فنفذ الحاجب منصورُ حكمَ القاضي مضاعفًا ؛ لأنه ما فعل هذا إلا لقربه من المنصور .

★★★

(523) وفاة الحاجب وتولية المظفر بن المنصور :

تُوفي الحاجب منصور وهو في أوج قوته ، بعد أن بلغت الأندلس في عهده مكانة

عظيمة من القوة والعظمة ، وذلك في يوم الإثنين لثلاث بقين من رمضان (392 هـ) ، وكان الخليفة الأموي آنذاك رجلاً ضعيفًا ، في حين قد بلغت قوة العامريين شأوًا عظيمًا ، فاستصدر عبد الملك مرسومًا من الخليفة بتوليته بعد أبيه ، وكان أبوه قد عهد له بالحجابة من بعده ، وذلك خوفًا من أن يستجدّ في قرطبة أمر جديد .

★ ★ ★

(524) المظفر بن المنصور يجري على سنن أبيه في السياسة والغزو :

سار عبد الملك على نهج أبيه في سياساته الداخلية والخارجية ، في غزوه الدائم للأراضي النصرانية في الشمال ، وكانت أيامه أعيادًا دامت سبع سنين ، تشبيهًا بسابع العروس ، ولم يزل مثل اسمه مظفرًا إلى أن مات .

★ ★ ★

(525) المظفر عند الحياء بكرًا وعند الكريهة أسدًا :

قالوا : كان عبد الملك من ألمع الشخصيات التي أضفت السعادة على نفسه وعلى أبيه وغيرهما ، إذ جدّد الألقاب ، واقتفى الرسوم ، وكان مثلاً في الحياء والشجاعة ؛ إذ كان عند الحياء والحشمة بكرًا عزيزة ، وفي مواقف الكريهة أسدًا وَرْدًا ، لا يقوم له شيء إلا حطّمه .

★ ★ ★

(526) المظفر يبتدئ عهده بإسقاط سدس الجباية :

أعجب المسلمون بالمظفر وأحبوه حبًا عظيمًا ، فأثنوا عليه أجمل الثناء ، وقد زاد من حُب المسلمين له وإعجابهم به ، أنه ابتدأ عهده بأن أسقط عن المسلمين سدس الجباية التي كانت عليهم ، فتعلقت به قلوب الرعية ، ووجدت فيه العزاء عن فقدان أبيه .

★ ★ ★

(527) الممالك النصرانية في عهد المظفر لم تستطع نقض العهود :

كان من عادة النصارى وخاصة الشمال أنه متى توفي حاكم الأندلس ، وبخاصة لو كان قويًا كالداخل أو الناصر أو هشام المؤيد ، ضربوا بالمعاهدات والمواثيق عُرض الحائط ، وسلبوا ما يمكن سلبه ، ولكنهم هنا لم يستطيعوا عند تولي المظفر فعل ذلك بسبب الضربات الموجعة التي وجهها لهم المنصور في حياته .

★★★

(528) أعاظم الممالك النصرانية يحتكمون إلى الملك المظفر فيما شجر بينهم :

توالت غزوات للممالك النصرانية في (393 هـ) و(394 هـ) ، ووصل أعداد السبايا إلى (5570) ، واقتحم عنوة ستة حصون ، وأخلى من العدو (85) حصنًا ، وانتهى المظفر عند ملوك الأعاجم في دولته إلى منزلة عظيمة ، مثل منزلة والده المنصور ، وأحلّوه محلّه في الإصغاء له والتعظيم لجلاله ، والهيبة من سخطه ، والطلب لمرضاته ، حتى صار أعاظمهم يحتكون إليه فيما شجر بينهم ، فيفصل الحكم فيهم ، ويرضون بما قضاه ويقفون عنده .

★★★

(529) وفاة الحاجب المظفر وهو في طريقه إلى قرطبة :

في شاتية وحيدة (398 هـ) خرج إلى قشتالة ، ودارت بينه وبين قشتالة معارك عنيفة استمرت عدة أيام انتهت بنصر عظيم ، ثم خرج في صائفة (398 هـ) إلى غزو قشتالة ، ولكنه مرض مرضًا شديدًا في مدينة سالم في شمال الأندلس ، ثم عاد متحاملاً على نفسه (399 هـ) قاصدًا قشتالة ، إلا أن الحركة آذته وزادت مرضه ، فلم يَعُد يستطيع الغزو ، فعادوا به محمولاً على محفّة ، وتوفي رَحِمَهُ اللهُ في الطريق إلى قرطبة في صفر عام (399 هـ) .

★★★

أشهر العلماء في الدولة العامرية

(530) ابن ذكوان (342 هـ - 413 هـ = 953 م - 1022 م) :

هو أبو العباس أحمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان بن عبيدوس بن ذكوان ، قاضي الجماعة بقرطبة وخطيبها ، ولاّه المنصور القضاء ، وكان من خاصته يلازمه في رحلاته وغزواته ، ومحله منه فوق محلّ الوزراء ، كان المنصور يفاوضه في تدبير المُلك وفي سائر شئونه ، ثم فعل ذلك المظفر وشنجول ولدا المنصور بعد وفاة أبيهما ، وتوفي المظفر فزاد أخوه عبد الرحمن في رفع منزلته وولاّه الوزارة بالإضافة إلى قضاء القضاة ، وكان عظيم أهل الأندلس ورئيسهم ، وأقربهم من الدولة .

★★★

(531) ابن جلجل (332 هـ - 377 هـ = 943 م - 987 م) :

هو أبو داود سليمان بن حسان ، الشهير بابن جلجل ، كان طبيبًا ماهرًا ، وكان إمامًا في معرفة الأدوية المفردة ، لاسيما بكتاب (ديسقوريدس) ، وهو كتاب انتفع به الناس بما عُرّب منه ، حيث صوّر الحشائش تصويرًا عجيبًا ، **ومن كتبه** : (تاريخ الأطباء والفلاسفة) وله تذييل وزيادات على كتاب (ديسقوريدس) مما لم يعرفه ديسقوريدس .

★★★

(532) المجريطي إمام الرياضيين في الأندلس (338 هـ - 398 هـ = 950 م - 1007 م) :

هو أبو القاسم مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبد الله المجريطي ، الفيلسوف الرياضي الفلكي ، ولد في مدينة مجريط (مدريد) ، كان أوسع أهل الأندلس إحاطة بعلم الأفلاك وحركات النجوم ، **له كتابان هما** : (رتبة الحكيم) وهو أهم مصدر لدراسة الكيمياء في الأندلس ، و(غاية الحكيم) وهو كتاب موسوعي فيه تاريخ الحضارة في أقدم العصور ، والأمم الشرقية العريقة كالأنباط والأقباط والسريان

والهنود ، وبحوث في الرياضيات ، والكيمياء ، وعلم السحر ، وعلم الحيل ، والتاريخ الطبيعي ، وتاريخ المنشأ والبيئة .

ومن مؤلفاته : (روضة الحدائق ورياض الخلائق) ، (ثمار العدد) وهو في الحساب ، ويعرف بالمعاملات ، و(كتاب الأحجار) .

★★★

(533) ابن الفرضي (351 هـ - 403 هـ = 962 م - 1013 م) :

هو أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي ، المعروف بابن الفرضي ، الإمام الحافظ ، البارع الثقة ، مؤرخ وحافظ وأديب ، ألّف في (أخبار شعراء الأندلس) ، و(المؤتلف والمختلف) ، و(مشتبه النسبة) ، كان عالمًا في جميع فنون العلم ، لم يُرَ مثله بقرطبة في سعة الرواية ، وحفظ الحديث ، ومعرفة الرجال ، وكان حسن الخط والبلاغة .

★★★

(534) أبو القاسم الزهراوي الجراح العظيم (ت : 427 هـ = 1036 م) :

هو خلف بن عباس الزهراوي ، من العلماء الأعلام في الأندلس ، **كان لكتابه** : (التصريف لمن عجز عن التأليف) الفضل في أن أصبح من كبار جرّاحي العرب المسلمين ، وأستاذ علم الجراحة في العصور الوسطى وعصر النهضة الأوروبية حتى القرن السابع عشر ، وهو أول من وصف عملية تفتيت الحصاة في المثانة ، وبحث في التهاب المفاصل ، وفي السل . . . وغيرها .

★★★

(535) مكانة الزهراوي عند أهل أوروبا [من العلماء الذين سعدت بهم الإنسانية] :

الزهراوي هو المعروف في أوروبا باسم (Abulcasis = أبو القاسم) ، هو أول من تمكنّ من اختراع أولى أدوات الجراحة ؛ كالمشرط والمقصّ الجراحي ، كما وضع

الأسس والقوانين للجراحة ، **التي من أهمها** : ربط الأوعية لمنع نزفها ، واخترع خيوط الجراحة ، فكان من العلماء الذين سعدت بهم الإنسانية .

★★★

(536) الزهراوي هو العمدة في فن الجراحة :

كان الزهراوي يمارس بنفسه فنَّ الجراحة بدلاً من أن يُوكل ذلك - كما كانت العادة - للحجامين أو الحلاقين ، فمارس الجراحة وحذق فيها وأبدع ، حتى صار علمًا من أعلام طب الجراحة ، لا يكاد يذكر اسمه إلا مقترنًا مع الطبّ الجراحي ، وباتت أفكاره حدثًا تحوليًا في طرق العلاجات الطبية ، وقد ساعدت آلاته الجراحية التي اخترعها على وضع حجر الأساس للجراحة في أوروبا .

★★★

(537) الزهراوي يصف الآلات والأدوات الجراحية :

وصف الزهراوي الأدوات والآلات الجراحية ، التي اخترعها بنفسه للعمل بها في عملياته ، ووصف كيفية استعمالها وطرق تصنيعها ، **منها** : جِفت الولادة ، والمنظار المهبلي ، والمحقن العادي ، والحقنة الشرجية ، وملاعق خاصة لخفض اللسان وفحص الفم ، ومقصلة اللوزتين ، وجفت وكلاليب خلع الأسنان ، ومناشير العظام ، وكل هذه الآلات قد طُورت بعد ذلك لتصبح الأدوات الجراحية الحديثة .

★★★

(538) كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) دائرة معارف متكاملة :

يُعد هذا الكتاب موسوعة كثيرة الفائدة ، تامة في معناها ، لم يُؤَلَّف في الطب أجمع منها ، ومن أعظم مؤلفات المسلمين الطبية ، وهي دائرة معارف وملحمة كاملة ، وموسوعة لجراحي الغرب حتى القرن السابع عشر ، والمرجع الكبير لدارسي الطب في جامعات أوروبا ، وكان هو المصدر العام الذي استقى منه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر الميلادي .

★★★

(539) أوائل الزهراوي :

والزهراوي هو أول من جعل الجراحة علمًا قائمًا على التشريح ، وأول من جعله علمًا مستقلاً ، وأول من ابتكر فنونًا في علم الجراحة ، وأول من وصف عملية القسطرة وابتكر أدواتها ، وأول من شقّ القصبة الهوائية ، وأول من ابتكر آلة دقيقة جدًا لمعالجة انسداد فتحة البول الخارجية عند الأطفال حديثي الولادة لتسهيل مرور البول ، وأول من أزال الدم من تجويف الصدر ، وأول من أوقف نزيف الدم أثناء العمليات الجراحية ؛ وذلك بربط الشرايين الكبيرة ، وهو أول من صنع خيطانًا لخياطة الجراح واستخدامها في جراحة الأمعاء خاصة ، وصنعها من أمعاء القطط ، وأول من مارس التخطيط الداخلي بإبرتين وبخيط واحد مثبّت فيها ، وأول من طبّق في كل العمليات التي كان يجريها في النصف السفلي للمريض رفع حوضه ورجليه قبل كل شيء ، وهو أول رائد لفكرة الطباعة في العالم .



(540) الزهراوي هو المؤسس والرائد لصناعة الطباعة والأقراص :

سجل الزهراوي فكرته عن الطباعة ونفذها في المقالة الثامنة والعشرين من كتابه الفذّ (التصريف) ، ووصف كيفية صنع الحبوب (أقراص الدواء) ، وطريقة صنع القالب الذي تصب فيه هذه الأقراص أو تحضّر ، مع طبع أسمائها عليها ، وهو بهذا يعطي حقًا حضاريًا لكي يكون المؤسس والرائد الأول لصناعة الطباعة ، وصناعة أقراص الدواء ؛ هاتان الصناعتان اللتان لا غنى عنهما في كل المؤسسات الدوائية العالمية ، ومع هذا فقد اغتصب هذا الحق وغفل عنه كثيرون .



(541) كتابات الزهراوي في التوليد كنز ثمينٌ في علم الطب :

إن ما كتبه الزهراوي في التوليد والجراحة النسائية ليعتبر كنزًا ثمينًا في علم الطب ، لقد ابتكر آلة خاصة لاستخراج الجنين الميت ، وأول من استعمل آلات خاصة لتوسيع عنق الرحم ، وأول من ابتكر آلة خاصة للفحص النسائي لا تزال إلى يومنا هذا .

سقوط الدولة العامرية

(542) عبد الرحمن بن منصور الماجن الفاسق وسقوط دولة أبيه :

بعد وفاة المظفر ، تولى أمر الحجابة من بعده عبد الرحمن بن المنصور أخو المظفر ، وكان مختلفًا عن أبيه وأخيه ؛ إذ كانت أمه بنت ملك نافار وكانت نصرانية ، وكان شابًا ماجنًا فاسقًا ، شرّابًا للخمر ، فعّالاً للزنا ، كثير المنكرات ، فكرهه الناس في الأندلس .

★ ★ ★

(543) عبد الرحمن يقوم بعمل لم يعهد من قبل عند العامريين :

ظل الحاجب منصور ومن بعده المظفر يديران دفّة الأمور من خلف الأستار ، وعند تولي عبد الرحمن الحكم كان هشام بن الحكم قد بلغ من العمر ثمانية وثلاثين عامًا ، ومع ذلك لم يطلب الحكم ، ولم يحاول بسط نفوذه ، بل قام عبد الرحمن بن المنصور بحمل هشام بن الحكم على جعله وليًا للعهد من بعده ، وبذلك لن يصبح الأمر من خلف الأستار ، فضجَّ بنو أمية لهذا الأمر ، وغضبوا وغضب الناس أجمعين ، ولم يكن لهشام رد فعلٍ خاصة وأن عبد الرحمن قد جعل جميع الولايات في أيدي العامريين وفي يد البربر .

★ ★ ★

(544) المهدي يقبض على دفة الأمور ويقضي على الدولة العامرية :

ونتيجة لمجونه وفسقه ، انتهز الناس الفرصة في صائفة وذهبوا إلى هشام بن الحكم في قصره وخلعوه بالقوة ، وعينوا مكانه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر المعروف بالمهدي ، فانفض الناس من حول عبد الرحمن حينما دخل إلى قرطبة وانحازوا إلى المهدي .

★ ★ ★

(545) نهاية الماجن الفاسق :

ذهب البعض إلى أنه حينما وصل قرطبة وبعد أن انفضّ الناس عنه ، أرسل إليه المهدي جماعة فقبضوا عليه وقتلوه وأرسلوا إليه برأسه ، وذهب البعض إلى أنه التجأ إلى دَيْر فأعطاه أحد رهبانه طعامًا وشرابًا ، ثم عثر عليه رجال بني أمية سكران ، فأظهر الخوف والجزع ، وادّعى الدخول في طاعة المهدي ، فلم يشفع له ذلك فقتلوه .

★★★

(546) المهدي فتىً لا يُحسن فنّ الإدارة :

بعد خلع هشام بن الحكم وتولية المهدي انفرط العقد تمامًا في الأندلس ؛ إذ كان المهدي فتىً لايحسن فن القيادة ، **فكان من أعماله** : أن قبض على كثير من العامريين ونفاهم خارج البلاد ، وهدم الزاهرة وأباح انتهابها فتركت خرابًا ، وفصل سبعة آلاف من الجند فتغيرت القلوب عليه ، وأساء إلى البربر حتى بدأ العامة يتطاولون عليه ، فأعلن أن مَنْ قتل بربريًا فله جائزة ، فسارع أهل قرطبة إلى قتل البربر وهتك أعراضهم ، فانتفض البربر واتجهوا إلى الشمال ليثوروا عليه .

★★★

(547) المستعين أمير المؤمنين ودوره في الصراع :

تجمّع البربر وانطلقوا إلى الشمال ، وأتوا بسليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، فنصّبوه عليهم ولقّبوه بالمستعين أمير المؤمنين ، وبدأ يحدث الصراع بين سليمان بن الحكم هذا ومن ورائه البربر وبين المهدي في قُرطبة .

★★★

(548) سليمان بن الحكم يقوم بعمل لم يُعهد عند الأمويين :

وجد سليمان بن الحكم ومن معه من البربر أن قوتهم ضعيفة ، ولن تقوى على مجابهة قوات المهدي ، فقاموا بعمل لم يُعهد على الأمويين من قبل في بلاد الأندلس ، حيث استعانوا بملك قشتالة فدارت معركة حامية الوطيس بين الطرفين هُزم فيها المهدي

وتولى سليمان مقاليد الحكم ، وكانت فرصة لملك قشتالة لضرب الأندلسيين بعضهم ببعض ، ووضع قاعدة لجيشه وجنده في أرض الأندلس بعدما كان يدفع الجزية عن يدٍ وهم صاغرون .

★★★

(549) توالي الخلفاء على الأندلس في الفترة من (359 هـ وحتى 422 هـ) :

وفي فترة مدتها اثنتان وعشرون سنة يتولى حكم المسلمين في الأندلس ثلاثة عشر خليفة متتاليين ، بدأت هذه الفترة بهشام بن الحكم (359 هـ = 970 م) ، ثم المهدي ، ثم سليمان بن الحكم الذي استعان بملك قشتالة في سنة (400 هـ = 1010 م) .

★★★

(550) المهدي والفتى واضح يستعينان بأمير برشلونة :

فرّ المهدي من قرطبة متوجهًا إلى طُرطوشة ، وتعاون مع أحد أولاد بني عامر أعداء الأمس ، ومع الفتى واضح أحد موالي بني عامر أحد الوزراء في عهد الدولة العامرية ، وهداهما تفكيرهما أن يستعينا بأمير برشلونة الذي كان يدفع الجزية لعبد الرحمن الناصر ، حتى يحيوا الدولة الأموية ، ويعتلي المهدي سدة الحكم ويستوزر الفتى واضح ، وقد وافق أمير برشلونة على المساعدة بشروطه المجحفة .

★★★

(551) شروط قبيحة مخزية لأمير برشلونة :

أملى أمير برشلونة شروطه القبيحة المخزية ، والتي لا ندري كيف يوافق عليها مسلم ، **وهي** : مائة دينار ذهبية له عن كل يوم في القتال ، ودينار ذهبي لكل جندي عن كل يوم في القتال ، وأخذ كل الغنائم من السلاح إن انتصر جيش برشلونة مع المهدي والفتى واضح ، وأخذ مدينة سالم التي تمثّل الثغر الشمالي الذي طالما انطلق منه الجهاد ضد الممالك النصرانية ، وأن نساء البربر ودماءهم وأموالهم حلال لهم ، لا يحول أحد بينهم وبينهم .

★★★

(552) مدينة بني سالم في يد النصارى :

دخل الإفرنج مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط ، فأول ما صادفهم عند دخول من المدينة الجامع . . فضربوا فيه الناقوس وحوّلوا القبلة .

★★★

(553) المهدي يتسلم الحكم من جديد في قرطبة :

دارت معركة كبيرة بين المهدي ومعه الفتى واضح وأمير برشلونة من ناحية ، والمستعين بالله ومعه البربر من جهة أخرى ، وانتهت بانتصار المهدي وفرار المستعين ومن معه من البربر ، وتسليم مدينة سالم لأمير برشلونة والغنائم ، واعتلاء المهدي الحكم من جديد في قرطبة .

★★★

(554) مقتل المهدي وعودة هشام بن الحكم للحكم مرة أخرى :

وقع المهدي في نفس أخطاء الماضي ، من تتبع البربر والانشغال بالملذات ، فكثرت الثورات عليه ، حتى ضجّ أهل قرطبة وأغروا الفتى واضح بقتل المهدي الذي لم ينس ما فعله بالعامريين من قبل ، فأسرع بقتله وتولية هشام بن الحكم الأموي ليدير الحكم من خلف الستار مرة أخرى ليضمن ألا تحدث انقلابات عليه ، ويكون محل قبول لدى الجميع ، على أن تكون مقاليد الأمور كلها في يده .

★★★

(555) سليمان بن الحكم (المستعين بالله) يعود للحكم من جديد :

كان سليمان بن الحكم لم يقتل بعد ، فعاود الاتصال بملك قشتالة ليستعين به على الفتى واضح وهشام بن الحكم ، فكان نتيجة ذلك أن تنازل هشام عن مائتي حصن من الحصون الشمالية ، فتوسعت مملكة قشتالة ، وفي (403 هـ = 1012 م) قام سليمان ابن الحكم ومن معه من البربر بعمل لم يحدث في تاريخ المسلمين من قبل ؛ إذ هجموا على قرطبة وعاثوا فيها فسادًا وقتلاً واغتصابًا للنساء ، ثم تولى سليمان الحكم من جديد

(المستعين بالله) ، وفرّ هشام أو قُتل ، وتفككت البلاد ، وفرّ العامريون إلى شرق الأندلس في منطقة بلنسية وما حولها .

★★★

(556) الناصر بالله (علي بن حمود) يتولى الحكم في قرطبة :

من سنة (403 هـ = 1012 م) ظل سليمان بن الحكم يتولى الحكم ولمدة عام عام كامل ، وكان غالبية جيشه من البربر ، ثم ثار عليه حاكم مدينة سبتة المغربية (علي بن حمود) واتصل ببعض من يناصرهُ في الأندلس ، ثم عبر إليها ، وفي سنة (407 هـ = 1016 م) وقعت المعركة بينهما فانتصر علي بن حمود ، ويتولى الحكم في قرطبة ، ويقتل سليمان وأخاه وأباهما الحكم ؛ كي يضمن ألا يثور عليه أحد ، ثم تسمى بـ (الناصر بالله) .

★★★

(557) بداية عهد الدولة الحمودية في قرطبة :

واستقر الأمر لعلي بن حمود ، فبدأ بذلك عهد الدولة الحمودية في قرطبة ، وقام بتعيين أخيه القاسم بن حمود على إشبيلية في سنة (407 هـ = 1016 م) ، وأصبح البربر هم الخلفاء الذين يتملَّكون الأمور في قرطبة وما حولها .

★★★

(558) ظهور العامريين وتنصيب المرتضى بالله :

لم يرضَ العامريون الذين فروا إلى شرق الأندلس بهذا الوضع ، فبحثوا عن أموي آخر لينصبوه الحكم فلم يجدوا سوى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر ، ثم بايعوه على الخلافة ، وقد تلقَّب بالمرتضى بالله ، ثم ساروا إلى غرناطة استعدادًا للتوجه إلى قرطبة ، ولكن حدثت الخيانة من قِبل خيران العامري ، إذ أحس بقوة شخصية المرتضى فانقلب عليه سرًا وتحالف مع الحموديين فانهزم جيش المرتضى ، وأدركه بعض فتيان خيران العامري فقتلوه .

★★★

(559) مقتل علي بن حمود وتولي القاسم بن حمود القيادة :

تآمر ثلاثة من فتيان الصقالبة بعلي بن حمود فقتلوه في الحمام ، وراسل البربر المتغلبون على قرطبة القاسم بن حمود حاكم إشبيلية فاعتلى الرئاسة ، فثار عليه ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود في سبتة ، إذْ كان يرى نفسه الأحق في الخلافة .

★★★

(560) عجيبة من عجائب زمن الفتنة :

من عجائب ذلك الوقت أن انضم نفر من البربر ليحيى بن علي بن حمود ، وسار في جموعه إلى قرطبة ، فانسحب أمامه عمه القاسم بن حمود ، واتجه إلى إشبيلية ، ثم كان من أعجب العجب أن تصالح كل منهما مع الآخر ، فرضي كل منهما أن يكون الآخر خليفة ، وهو أمر لم يسمع في الدنيا بأشنع منه ، ولا بأدلّ على إدبار الأمور : يحيى بقرطبة ، والقاسم بإشبيلية .

★★★

(561) هل هدأت الحال حينئذٍ ؟

غير أن الأمور لم تهدأ ، فكلما نُصِّب حاكم في قرطبة ثار عليه القرطبيون إن كان من البربر ، أو إذا لم يستطع ضبط الأمور إن كان أمويًا ، لقد انتهى عهد الرجال الأقوياء من بني أمية ، ولم يبقَ إلا ضعيف الرأي والعزم ، وقامت صراعات كثيرة حتى (422 هـ = 1031 م) .

★★★

(562) تولّي مجلس شورى الحكم وظهور عهد ملوك الطوائف :

بحثًا عن حلّ لهذه الأزمة التي تمر بالبلاد اجتمع العلماء وعِلْيَةُ القوم من أهل قرطبة في (422 هـ) واتفقوا على تولّي مجلس شورى للحكم ، وكان زعيم هذا الأمر قاضي قرطبة البارز وصاحب التاريخ والخصال أبا الحزم بن جهور الذي اشتهر بالتقوى والورع ، وظل الأمر على هذه الحال ثلاث سنوات ، وكان هذا المجلس يسيطر على

قرطبة فقط بعد أن ضاعت السيطرة على بقية البلاد ، وقسمت البلاد إلى ما يسمى بعهد دويلات الطوائف ، أو ملوك الطوائف .

أشهر الشعراء في عصر الخلافة

(563) ابن عبد ربه أحد الشعراء النابهين :

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه صاحب كتاب : العقد الفريد (240 هـ = 860 م حتى 328 هـ = 939 م) من النابهين من شعراء هذا العصر ، وهو مولى بني أمية ، مدح نفرًا من أمراء العصر آخرهم عبد الرحمن الناصر ، ولم يكن ذا شاعرية ممتازة سواء في قصائده الطوال التي تحدث فيها عن الحملات السنوية التي قام بها الناصر أو أشعاره في بني أمية ، وأشعاره الغزلية تنبئ عن ذوق وحساسية تفوق ما يبدو في مدائحه ، وقد جمع أشعاره في ديوان سماه « الممحصات » .

★★★

(564) ابن هانئ :

هو أبو القاسم أو أبو محمد ، محمد بن هانئ الإشبيلي ؛ توفي (362 هـ = 972 م) ، كانت حياته حياة استهتار ، وكان مهتمًا بمذهب الفلاسفة ، نقم عليه أهل إشبيلية ، فخرج إلى المغرب ، وقصيدته في المعز الفاطمي تعدُّ من غُرَر المدائح ونخب الشعر ، كان عند أهل المغرب كالمتنبي عند المشارقة ، وقد شبّه المعري شعره بـ« رحى تطحن قرونًا » .

★★★

(565) أبو بكر الزبيدي الشاعر الجاد :

وعلى الضدّ من استهتار ابن هانئ ، نجد الزبيدي أبا بكر محمد بن الحسن بن عبد الله من (306 هـ = 918 م) وحتى (379 هـ = 989 م) رجلاً جادًا ، وكان مؤدبًا للخليفة هشام المؤيد في صباه ، وكان شاعرًا يميل في شعره إلى الحكمة والزهد فيذكر

الخوف من الله ، وخلود الروح ، وثواب الآخرة وعقابها ، وفي الغزل يصور آلام بُعد الحبيب على نحو لطيف رقيق .

★★★

(566) المنصور بن أبي عامر والشعراء :

كان المنصور يرعى أهل الأدب فأنشأ ديوانًا خاصًا سماه (ديوان الندماء) ، وكانت مهمته ترتيب الشعراء طبقات وبذل العطاء لهم على أقدارهم في الشعر ، وكان على رأس هذا الديوان واحد من كبار نقدة الأدب ، ولقد صحب المنصور في غزواته أربعون شاعرًا من كل طبقة ليقولوا الشعر في غزواته .

★★★

(567) صاعد البغدادي أحد شعراء بلاط المنصور :

كان صاعد البغدادي المتوفَّى سنة (417 هـ = 1026 م) أحد شعراء بلاط المنصور ، استطاع أن يحظى بعطف المنصور بسبب تضلعه في علوم اللغة والتاريخ ، وبسبب ذكائه وطلاوة حديثه ، وطيب معاشرته ، وقد أدخل طريقة جديدة في درس الشعر الجاهلي **تتلخص في** : « أن يقرأ الطالب القصيدة ثم يسأله الأستاذ عن معاني الألفاظ ، فيقوم بالشرح معتمدًا على قائمة من المعاني يكون قد استخرجها من المعاجم اللغوية » .

★★★

(568) يوسف بن هارون الرمادي :

هو أهم من صاعد من الناحية الأدبية ، وقد اتّهم بالاشتراك في مؤامرة اشترك في تدبيرها على المنصور جماعة من أهل الأدب - ربما كان دافعهم إلى هذا الحسد - فحكم المنصور عليه بأن يقاطعه الناس ولا يبادله الكلام منهم أحد ، فمضى المسكين يهيم بين الجموع الذين كانت تزخر بهم طرقات قرطبة « وكأنه ميت » ، ثم عفا عنه المنصور بعد ذلك ، ورافقه في حملته على برشلونة (376 هـ) .

★★★

(569) ابن أبي زمنين :

هو أبو عبد الله محمد بن أبي زمنين (324 هـ - 398 هـ) ، نبغ في دراسة الفقه وألَّف (مدونته) المشهورة ، وشهرته بتصانيفه في الوعظ والزهد وأخبار الصالحين أكبر ، وقد أجمع الناس على الإعجاب بشعره الذي يغلب عليه طابع الدين وشيء من التشاؤم .

★★★

(570) ابن الهندي الفقيه الشاعر :

هو أحمد بن سعيد الهمداني ويعرف بابن الهندي (320 هـ - 399 هـ) ، كان متمكنًا من أساليب تحرير الوثائق ، وقد ألَّف فيها كتابًا عرف بـ (الديوان) شحنه بالأخبار ، والأمثال ، والنوادر ، والشعر ، والفوائد ، والحجج ، فأتى (الديوان) كبيرًا ، واخترع في علم الوثائق فنونًا وألفاظًا وفصولاً وعقدًا عجيبة .

★★★

(571) الشريف الطليق حفيد عبد الرحمن الناصر :

هو أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن الناصر (352 هـ - 400 هـ) ، من أظهر شعراء عصر الخلافة ، لقب بـ (الشريف الطليق) ، كان يهوى جارية ، وله شعر في الخمريات ، والنسيب ، والوصف ، والفخر ، برع في النسيب الرقيق ، وكان طليعة شعراء الأندلس في الزهريات التي بلغ شعراء الأندلس فيها إلى شأوًا بعيدًا على يد ابن خفاجة .

★★★

(572) أبو عامر بن شهيد الشاعر الناقد :

هو أبو عامر بن شهيد (382 هـ - 427 هـ) ، شاعر ناقد يمثل رجل الفكر الذي كان من بيت عريق ، كان الأدب في يده خدمة بلِ سيادة ، تتراءى في شعره لمحات

ذات وقع حديث ، خلف لنا في جانبه النقدي (رسالة) ، صور فيها رحلة شاعر إلى الجنة سابقًا بذلك المعري ودانتي إلى ذلك الموضوع ، وتعرّض للأذى من ملوك الطوائف .

★★★

(573) أبو محمد علي بن حزم القرطبي .. الشاعر المكثر :

ابن حزم القرطبي من أهم شعراء الأندلس الذين عاشوا في فترة انهيار الخلافة ، كان مكثرًا في كل ناحية من نواحي الفكر والآداب ، أكبر مجموعة من شعره (كتاب طوق الحمامة في الألفة والإيلاف) ، وهو دراسة نفسية للحب ، ومقامه في الأندلس مقام (الحياة الجديدة) لدانتي في إيطاليا ، وهو طاقة زهر أريجة من الأقاصيص ، ومقطعات الشعر ، والتحليل النفسي الخلقي للحب .



الفصل الخامس

أصعب فترات الأندلس قاطبة عصر ملوك الطوائف

(574) الأندلس كحبّات العِقد المتناثرة في القرن الخامس الهجري :

إن الفترة التي سنتحدث عنها ، هي من أصعب فترات الأندلس قاطبة ، إذ كانت أكثر تعقيدًا وتشابكًا ، فهي قصيرة المدة لا تزيد عن القرن الواحد ، إلا أنها تتسم بالأحداث المتعاقبة والأطماع المتزايدة ، والفرق المتنازعة .

★ ★ ★

(575) القرن الخامس الهجري من القرون المظلمة في تاريخ الأندلس :

منذ إعلان إلغاء الخلافة الأموية في الأندلس ، وتتابع الأحداث بعد ذلك من تنازع وانقسام ، إذ بدأت تقسّم بحسب تفشي عنصر ما إلى دويلات مختلفة ؛ ليبدأ ما يسمى بعهد دويلات الطوائف ، أو عهد ملوك الطوائف ، وهذه الأحداث كانت جديرة بأن تجعل القرن الخامس الهجري من القرون المظلمة في تاريخ الأندلس كله .

★ ★ ★

(576) كيف تكونت ممالك الطوائف ؟

بعد أن كانت الأندلس كتلة واحدة أصبحت أشلاء متفرقة ورقاعًا متناثرة ، ودويلات ومدنًا متباعدة متخاصمة ، يسيطر كل حاكم على سلطته المحلية مستعينًا بالصقالبة أو البربر أو القادة ذوي السلطان ، وسيطر البربر على المثلث الإسباني الجنوبي وما تحت الدولة الحمودية ، وأنشئوا إمارات عدّة ، ما لبثت أن نزلت إلى ميدان الصراع العام ، فقامت على أنقاض الدولة الأموية دول عديدة هي دول الطوائف منذ أوائل الربع الأول من القرن الخامس الهجري .

★ ★ ★

(577) المسلمون يفقدون عنصرًا مهمًّا في هذه الفترة :

إزاء هذا التفتت الذي بدأ منذ الربع الأول في القرن الخامس الهجري حتى الفتح

المرابطي ، زهاء سبعين عامًا قضتها الأندلس ، في سلسلة لا نهاية لها من المنازعات الصغيرة ، والخصومات والحروب الأهلية ، فكانت النتيجة أن تقسّمت إلى اثنتين وعشرين دولة ؛ فتفتت المسلمون في الأندلس تفتتًا لم يُعهد من قبل في تاريخهم ، وفقدوا بذلك عنصرًا مهمًا جدًا من عناصر قوتهم وهو (الوحدة) ، فكان الهبوط على أشدّ ما يكون .

★★★

(578) الأندلس مقسمة إلى سبعة أقسام :

قسمت الأندلس إلى سبعة أقسام شبه متساوية :

أولاً : بنو عباد الذين ينتمون لبني لخم ، في إشبيلية .

ثانيًا : بنو زيري وهم من البربر في غرناطة .

ثالثًا : بنو جهور من أتباع زعيم مجلس الشورى ابن جهور في قرطبة (وسط الأندلس) .

رابعًا : بنو الأفطس من البربر ، الذين استوطنوا غرب الأندلس وأسسوا بَطَلْيوس .

خامسًا : بنو ذي النون من البربر في طليطلة .

سادسًا : بنو عامر ، في بلنسية .

سابعًا : بنو هود ، في سَرَقُسْطَة .

★★★

(579) إلغاء الخلافة الأموية والتخلص من بني أمية :

أساء المعتدُّ بالله (هشام بن محمد بن عبد الملك) السيرة ، وتعرّض وزراؤه لظلم الرعية ، بعد أن سعى ابن جهور لمبايعته خليفة في قرطبة وأتى به من منفاه ، وذلك منذ 418 هـ وهو يخطب له في مساجد قرطبة ، وجاء إليها في (420 هـ) ، ولكنه لم يقدر للأمر قدره فثار أهل قرطبة عليه ، فخلعوه ، وخرج هو وأهله وخدمه في (422 هـ) ، وبهذا ألغى أهل قرطبة الخلافة الأموية ، وتخلصوا نهائيًا من بني أمية ، وأجلوهم

خارج قرطبة ، وكان عميدهم في ذلك أبا الحزم جهور بن محمد ، وغدت قرطبة بلا خلافة ولا خليفة ، الخليفة الذي افتتحت بيعته بإجماع وختمت بفرقة .

★ ★ ★

(580) النتائج المترتبة على إلغاء الخلافة الأموية في الأندلس :

كان من نتيجة ذلك أن انفرط عِقد الأندلس منذ تلك اللحظة ، فمهما تكن الخلافة ضعيفة ، ومهما يكن الخليفة ماجانًا إلا أنهما رمز الوحدة وتوحيد الصف ، ولكن تلك سُنَّة الله في بناء الدول وانحدارها .

★ ★ ★

(581) الوزير الحازم ابن جهور يتولى أمور قرطبة :

اتجهت أنظار أهل قرطبة صوب الوزير الحازم ابن جهور رئيس الجماعة وكبير قرطبة واختارته اختيارًا شوريًا للاضطلاع بتلك المهمة الخطيرة . . تولية أمور قرطبة بعد طرد الأمويين والحموديين ؛ لأنه كان معروفًا بصواب رأيه وحسن تدبيره وصلاح سيرته ، وذلك في منتصف ذي الحجة (422 هـ) .

★ ★ ★

(582) الوزير الحازم أبو الحزم ابن جهور :

هو أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن أحمد بن محمد بن أبي عبدة الفارسي ، عاش الفتنة ، وراقب الأحداث والتقلبات التي عانتها الخلافة في قرطبة ، حتى آلت لعلي بن حمود الذي استوزره ، ثم شهد ما حدث بين يحيى بن علي الحمودي وعمه القاسم بن حمود وتبادُل الخلافة بينهما ، ثم خروج علي بن حمود ، ثم استقدام هشام المعتدّ ، ثم ثورة أهل قرطبة على المعتدّ وطرده ، وبقيت قرطبة بلا حاكم ولا خليفة ، وكان كبير الجماعة ورئيس مجلس الشورى ، وزعيم قرطبة ، فأصبح رئيس الحكومة القرطبية بإجماع أهلها ورؤسائها وأهل الرأي فيها .

★ ★ ★

(583) ابن خاقان يثني على ابن جهور :

قال الفتح بن خاقان : « وبنو جَهْوَر أهل بيت وزارة ، اشتهروا كاشتهار ابن هبيرة في فزارة ، وأبو حزم أمجدهم في المكرمات ، وأنجدهم في الملمات ، ركب متون الفتن فَرَاضَها ، ووقع في بحور المحن فخاضها ، استولى على قرطبة ، فدبّرها بالجد والعزم ، وضبطها ضبطًا أمّن خائفها ، وخلا له الجو فطار ، ولم تزل به مشرقة وغصون الأمل فيها مورقة إلى أن تُوُفي سنة (435 هـ) .

★★★

(584) قرطبة في حكومة ابن جهور (أمين الجماعة) :

عرفَ ابن جهور من خلال خبراته السياسية أن التَّسلُّط والاستبداد طريق الزوال القريب ، فابتكر نظامًا سياسيًا شوريًا ، أقرب إلى النظام الديمقراطي في وقتنا الحاضر ، فلم ينفرد بالسياسة ولا بتدبير الأمور ، بل شكّل مجلسًا شوريًا وزاريًا من الوزراء وأهل الرأي والشورى والقيادة بقرطبة ، وجعلهم أهل رأيه ، لا يصدر عن رأي إلا بهم ، وسمى نفسه (أمين الجماعة) .

★★★

(585) كيف كان يتعامل (أمين الجماعة) مع جماعته ؟

بعد أن كوّن ابن جهور مجلس شورى الجماعة ، وأعلن نفسه أمينها ، كان إذا سُئل ، **قال** : « ليس لي عطاء ولا منع ، هو للجماعة وأنا أمينهم » ، وكان إذا رابه أمر أو عزم على تدبير ، أحضرهم وشاورهم فيسرعون إليه ، فإذا علموا مراده فَوَّضوا إليه بأمرهم ؛ وإذا خوطب بكتاب لا ينظر فيه إلا أن يكون باسم الوزراء .

★★★

(586) دهاء سياسي لابن جهور في تسيير الأمور في قرطبة :

اتبع ابن جهور سياسة كانت أشد ذكاءً ودهاءً ؛ فهو لم يفارق رسم الوزارة ، ولم ينتقل من دور الوزارة إلى قصور الخلفاء والأمراء ، بل دبّرها تدبيرًا لم يسبق إليه ،

وجعل نفسه ممسكًا للموضع إلى أن يجيء مستحقٌ يُتّفقُ عليه ، فيُسلِّم إليه ، ورتّب البوابين والحشم على أبواب تلك القصور ، على ما كانت عليه أيام الخلافة ، ولم يتحول عن داره .

★★★

(587) تواضع وعفة وصلاح ... ذاك هو الوزير ابن جهور :

كان ابن جهور من أشدّ الناس تواضعًا وعفة وصلاحًا ، وأنقاهم ثوبًا ، وأشبههم ظاهرًا بباطن ، لم يعثر له قط على ريبة ، وجليسه كتاب يقرأه ، ونجيّه نظر وتفكر وتدبّر ، تجده مشاهدًا للجمعة والجماعات في المسجد ، ويخلف الأئمة متى تخلفوا عن الجماعة ، وحافظًا لكتاب الله متقنًا تلاوته ، يزور المرضى ويشاهد الجنائز ويشارك أهل بلده .

★★★

(588) حكومة ابن جهور هي حكومة الجماعة والشورى ... لماذا ؟!

كان نظام الحكم الذي اتبعه ابن جهور يقوم على ركيزتين أساسيتين هما : الجماعة والشورى ، وكان الباعث الحقيقي هو درب من الذكاء والحنكة في تسيير الأمور ليجمع كلمة الشعب والعلماء ويتّقي منافسيه ، بجانب حبّه للشورى وإقامة العدل وجمع كلمة المسلمين ، خاصة بعد أن انفرط عقد الخلافة وأصبح بنو أمية شذر مذر ، بل والأندلس كلها .

★★★

(589) مزايا حكومة الجماعة والشورى في عهد ابن جهور :

هي نموذج بديع فيه تحكم الأقلية الأرستقراطية في عصر سادت فيه نزعة الرئاسة الفردية ، والحكم المطلق ؛ إذ يستطيع الرئيس التَّنَصُّل من المسئولية ويستظل بلواء الجماعة إذا ساءت الأمور ، وأن يصبح البطل المغوار والحاكم السياسي البارع إذا حسنت العواقب .

★★★

(590) الحالة الداخلية لقرطبة عندما تولّى ابن جهور مقاليد الأمور :

ما أشبه اليوم بالبارحة ! فعقب الثورات وانهيار الدول يتبعه انفلات أمني في كافة الأنحاء وتوتر أمني واسع النطاق ، وهكذا كان الحال في قرطبة ؛ فالبلاد بلا خليفة بلا حكومة ، فكانت النتيجة أن أصبحت البلاد مسرحًا للعابثين من محترفي النهب والسرقة ، وغلت الأسعار ، وتدهورت التجارة ، وعمّ الاستغلال ، وعاشت البلاد في تدهور علمي وفكري لعدم وجود حكومة تعتني بالعلم والعلماء .

★ ★ ★

(591) ابن جهور الحاكم المصلح وحل مشكلة الانفلات الأمني :

سعى ابن جهور للقضاء على الانفلات الأمني الذي كاد يعصف بالبلاد ؛ فعامل البربر الثائرين معاملة طيبة تقوم على ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾ [الإسراء : 24] ؛ فعاملهم برفق ولين حتى حصل على سلمهم ومحبّتهم ، كما فرّق السلاح على البيوت والمحلات للدفاع عن أنفسهم ، وجعل أهل الأسواق جندًا ، الأمر الذي جعل قرطبة بلد أمن وسلام بل وملجأ للفارين والمنفيين من الأمراء المخلوعين عن عروشهم ، فأصبحت في عصره حرمًا آمنًا .



(592) ابن جهور وسياسته في إصلاح الفساد الاقتصادي :

عمل ابن جهور على القضاء على الفساد الاقتصادي الذي تمرّ به قرطبة ؛ فمنع كل مظاهر البذخ والترف ، وحفظ الأموال العامة وخاصة السلطانية ، إذ جعل عليها رجالاً يثق بهم وبأمانتهم ونصّب نفسه مشرفًا عليهم ، كما خفّض الضرائب وشجّع المعاملات التجارية ، ووزّع الأموال على التّجار لتكون وسيلة للبيع والشراء ودينًا عليهم ، فعمّ الرخاء وازدهرت الأسواق ، وتحسّنت الأسعار ، وعاد النماء بعد الكساد .

★ ★ ★

(593) النتائج المترتبة على حل مشكلة الأمن وإصلاح فساد الاقتصاد :

كان من نتائج ذلك أن انتشر العدل ، وأمن الناس على حقوقهم ، وعاد الازدهار الثقافي والفكري ، وعاد الرخاء على الجميع بمن فيهم ابن جهور نفسه ، إذ **يقول ابن حيان** : « ولم يخلُ مع ذلك من النظر لنفسه ، حتى تضاعف ثراؤه ، وصار لا تقع عين على أغنى منه ، ولكنه حاط نفسه بالبخل الشديد ، والمنع الخالص اللذين لولاهما ما وَجَد عائِبَهُ فيه طعنًا ، ولكَمُل ، لو أن بشرًا يكمُل » .

★★★

(594) ابن جهور وظهور هشام المؤيد في إشبيلية :

أرسل القاضي أبوالقاسم بن عباد صاحب إشبيلية ، يطلب من ابن جهور أخذ البيعة لهشام المؤيد (426 هـ = 1235 م) ، فأرسل ابن جهور الرسل ليتأكد من الخبر ، فظهر له كذب الخبر إذ كان هدف ابن عباد دفع دعوى الحموديين ومطامعهم ، فرفض الادّعاء ، إلا أن أهل قرطبة مالت نفوسهم لذلك ، وكادت تقوم الثورات فزوّر ابن جهور الشهادة التي سمعها فبايعه وخطب له ، وكانت بيعته لغرض الدنيا لدفع دعوى الحموديين ؛ لأن ابن عباد طلب منه بعد ذلك الدخول في طاعته باسم الخليفة فرفض ، وأعلن تبرؤه من دعوته .

★★★

(595) ابن جهور يلعب دور الوسيط لفض المنازعات والخصومات :

تسبب ابن جهور في إقرار السلام والازدهار في قرطبة ، وبهذا أصبح مصدر ثقة عند ملوك الطوائف ، وعلى أثر ذلك لعب دور الوسيط العدل لفض المنازعات والخصومات بين الأمراء المتنازعين ، وقد أذاب العداء الذي وقع بين المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية والمظفر بن الأفطس خشية على الأندلس من رحى فتنة تعصف بها ، وظل يلعب هذا الدور حتى توفيَّ في صفر ، **وقيل** : المحرم (435 هـ) .

★★★

(596) أبو الوليد محمد بن جهور يسير على خطى أبيه :

اقتفى محمد بن جهور خطى والده في سياسته ، فاهتم بقرطبة ، وأقر الحكام وأولي المراتب على ما كانوا عليه أيام أبيه ، وأقر الأمن والنظام ، وقَرّب إليه مؤرخ الأندلس أبا مروان بن حيّان وجعله من خاصته في ديوان السلطان ، وقرّب إليه الشاعر أبا الوليد ابن زيدون وجعله وزيره ، وقدّمه إلى النظر على أهل الذمة لبعض الأمور المعترضة ، وجعله لسان دولته ، وسفيرًا له إلى الممالك الأندلسية .

★★★

(597) أبو الوليد يعتزل السياسة ويخطئ خطأً جمًّا :

أتعبت السياسة كاهل أبي الوليد ، وكان له ولدان أكبرهما عبد الرحمن ، وأصغرهما عبد الملك ، وكان عبد الملك أكثر شهامة من أبيه فاختاره أبو الوليد وقدمه على عبد الرحمن ، رغم نصح الكثيرين بتقديم عبد الرحمن ، إلا أنه أصرّ على تقديم عبد الملك ، فقدّمه للناس ، وطلب منهم البيعة .

★★★

(598) ذو السيادتين يخالف سيرة أبيه وجدّه :

لما ولي عبد الملك السلطة ظلم وأساء السيرة ، واستبدّ بالسلطة دون الجماعة ، واستباح أموال المسلمين ، وسلط عليهم أهل الفساد ، وأهمل الأموال الشرعية ، وشرع في المعاصي والفسوق ، وعمّ الخوف محل الأمان ، وتعاظمت قوته بتجبّره ، وتسمى بذي السيادتين (المنصور بالله الظافر بفضل الله) .

★★★

(599) أبو السقاء يعيد الأمن ويقلق ابن عبَّاد في إشبيلية :

لما عهد عبد الملك بأمور الحكم إلى وزير أبيه أبي الحسن إبراهيم بن يحيى المعروف بابن السَّقَّاء ، فضبط الأمن وأعاد النظام ، وساد العدل بين الناس ، وكان

المعتضد ابن عباد يتابع أخبار قرطبة عن كثب ، وينتظر الفرصة السانحة للانقضاض على قرطبة ، فأقلقه ما حدث في عهد ابن السقاء .

★★★

(600) عبد الملك يفتك بوزير أبيه :

لما وجَد المعتضد بن عباد ما حلّ بقرطبة رأى أن ذلك يحول دون حلمه في امتلاك قرطبة ، فعمل على الوقيعة بين عبد الملك وابن السقاء ، فدسّ إلى عبد الملك من يشجعه للتطاول على ابن السقاء مدعيًا أنه يطمع في الحكم ويستأثر به ، كما أرسل من جهة أخرى لابن السقاء من يلقي في روعه حُبّ الملك ، فكانت النتيجة أن قتل عبد الملك ابن السقاء في كمين دبره له في سنة (455 هـ = 1063 م) .

★★★

(601) أبو الوليد يتدخل لفض النزاع القائم بين ولديه :

بعد مقتل أبي السقاء عمّت الفوضى مرة أخرى في قرطبة ؛ إذ انفرد عبد الملك بالسلطة لنفسه ، ونازعه أخوه عبد الرحمن الذي ظن نفسه أحق بالسلطة ، واستمال كل منهما الجند ، وتقربا للرعية ، وهنا يتدخل أبو الوليد خوفًا من سوء العاقبة ، فعمد إلى تقسيم السلطة عليهما (456 هـ = 1064 م) ، فجعل الأكبر عبد الرحمن للنظر في أمر الجباية ، والإشراف على أهل الخدمة ، والتوقيع في الصكوك السلطانية المتضمّنة للحل والعقد ، وجعل الأصغر عبد الملك للنظر في الجند ، والإشراف على أعطياتهم ، وتجريدهم في البعوث ، ورضي الأخوان بذلك .

★★★

(602) أهل قرطبة ينصرفون عن بني جهور بسبب تصرفات عبد الملك :

رغم أن عبد الملك رضي بالقسمة وأقرّها ، إلا أنه تغلّب على أخيه فسجنه وحكم عليه بالإقامة الجبرية في بيته ، واستبدّ بالأمر دونه ، وأطلق العِنان ، وتسلط هو والسوقة من رعيته بين الناس بالأذى ، فما كان من أهل قرطبة إلا أن انصرفوا عن بني جهور ، وحدثت اضطرابات كثيرة في قرطبة (462 هـ) ، فأغار صاحب طليطلة يحيى

ابن ذي النون على قرطبة ، فاستغاث عبد الملك بالمعتمد بن عباد ، وكانت تلك الاستغاثة هي بداية النهاية لحكم بني جهور .

★★★

(603) من العلماء الذين برزوا في بلاط قرطبة (أبو حزم الأندلسي) :

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي الأصل ، القرطبي اليزيدي ، مولى الأمير يزيد بن أبي سفيان بن حرب ، الأموي الظاهري ، وُلد في قرطبة ، وتعلّم فيها ، وتربّى على شيوخها ، وتفقّه أوّلاً للشافعي ، ثم أدّاه اجتهاده إلى القول بنفي القياس كله جليّه وخفيّه ، والأخذ بظاهر النص وعموم الكتاب والحديث ، كان مفسرًا محدثًا ، فقيهًا مؤرخًا ، شاعرًا مربيًا ، عالمًا بالأديان والمذاهب ؛ ولذا فهو من أكثر علماء الإسلام فقهًا وعلمًا وتصنيفًا .

★★★

(604) رأي الحافظ الذهبي في ابن حزم الأندلسي :

قال الحافظ الذهبي : ابن حزم الأوحد البحر ، ذو الفنون والمعارف ، وله العديد من التصانيف ، **أشهرها** : (طوق الحمامة) ، و(المحلى في الفقه) ، و(الفصل في الملل والأهواء والنحل) ، و(الناسخ والمنسوخ) ، و(رسالة في الطب النبوي) ، و(حد الطب) ، و(اختصار كلام جالينوس في الأمراض الحادة) ، و(الأدوية المفردة) .

★★★

(605) رأي الحميدي في العالم ابن حزم الأندلسي :

قال الحميدي في جذوة المقتبس : « كان حافظًا عالمًا بعلوم الحديث وفقهه ، ومستنبطًا للأحكام من الكتاب والسنة ، متفننًا في علوم جَمّة ، عاملًا بعلمهنّ ، زاهدًا في الدنيا بعد الرئاسة ، التي كانت له ولأبيه من قبله » .

★★★

(606) آراء ابن حزم في ملوك الطوائف جعلته موضع اضطهاد :

عاصر ابن حزم ملوك الطوائف والأندلس في أوج اختلافها ، وكان يحمل عليهم ويؤلّب الفقهاء ضدهم ، ومن ثم أُحرقت كتبه في إشبيلية بأمر من المعتضد ابن عباد ، واضطهد وطورد ، وظل هذا حاله معهم يُطارد متنقلاً من بلد إلى بلد حتى استقر في لَبْلة وبها مات رَحِمَهُ اللَّهُ .

★★★

(607) الإمام الإخباري ابن حيان القرطبي :

هو أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي الأموي بالولاء ، كان أبوه وزيرًا للمنصور بن أبي عامر ، عاصر ملوك الطوائف فكان أبلغ من كتب عنهم ، وكان وزير الوليد بن جهور في قرطبة ، ومن خاصته ، وقد عايش سقوط دولة الجهوريين ، كان بارعًا في الآداب ، وهو صاحب (لواء التاريخ بالأندلس) ، **ومن كتبه** : (المقتبس في تاريخ الأندلس) ، و(المتين في تاريخ الأندلس) .

من شعراء قرطبة

(608) أبو الوليد أحمد بن زيدون (تيبولوس الأندلس) :

هو أهم شعراء قرطبة في ذلك العصر ، أبو الوليد أحمد بن زيدون المخزومي (394 هـ - 463 هـ) ، تعلق قلبه بولاّدة بنت المستكفي ثم تحوّل عنها إلى جارية لها ، أفحش في هجاء ابن عبدوس حتى دبّر له ابن عبدوس فزُج في السجن حتى عفا عنه ابن جهور ، ثم رحل عنه إلى ابن عباد ، كتب في أربعة أبواب من الشعر ، **هي** : المدائح ، والرسائل ، والمراثي ، والغزل أو النسيب ، نظم بعض شعره في بحر الرجز ، ثم تخميسَيْن ، **والتخميس** : لون من ألوان الشعر .

★★★

(609) ولّادة بنت المستكفي :

هي ولادة بنت محمد بن عبيد الله بن الناصر الملقب بالمستكفي بالله ، لما مات أبوها نزعت عن الحريم ، وخرجت إلى مجامع الأدباء والعلماء ، وكانت في نساء أهل زمانها واحدة أقرانها حضور مشهد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعبًا لجياد النظم والنثر ، يتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها إلى سهولة حجابها ، كانت قليلة المبالاة ، مجاهرة باللذات ، تعلقت بابن زيدون ، ثم بابن عبدوس حتى أدركتها المنية في سنٍّ غالية .

بنو عباد في إشبيلية

(610) مملكة إشبيلية فاقت دول الطوائف الأندلسية :

مملكة إشبيلية هي أهم دول الطوائف كلها ، وهي أعظمها شأنًا وأقواها عُدّة وشكيمة ، فقد تفوقت عسكريًا وسياسيًا وجغرافيًا ، وعلا شأنها في العلم والعلماء والأدب والأدباء ، فملوكها أشهر الملوك ، وشعراؤها أفخم الشعراء ، هذه المملكة التي جعل منها بنو عباد مملكة يخطب ودّها الأمراء والأعيان .



(611) مَنْ هم بنو عباد ؟

هم من العرب الداخلين إلى الأندلس ، وهم ينتسبون إلى لخم ، وقيل : ينتمون إلى النعمان بن المنذر بن ماء السماء ؛ فهم لخميون أصليون ، وكانت لها مكانة وحظوة لدى خلفاء وأمراء بني أمية ؛ خاصة الحكم المستنصر ، وابنه هشام المؤيد ، وحاجبه المنصور محمد بن أبي عامر ، فكانت فيهم الإمامة والخطابة والقضاء .

★ ★ ★

(612) القاضي ذو الوزارتين أبو الوليد إسماعيل بن عباد :

في أعقاب الفتن المتتالية في الأندلس ، وكثرة الانقلابات في أواخر القرن الرابع الهجري ، وأوائل القرن الخامس الهجري ، ظهر بشدة نجم بني عباد خاصة في إشبيلية ، فقد استطاع أبو الوليد إسماعيل بن عباد أن يجمع خيوط السياسة في يده ، حيث جمع حوله أعيان ورؤساء إشبيلية ؛ لأنه قد ولي الشرطة في عصر هشام المؤيد ، والإمامة والخطابة بالجامع الأعظم ، كما ولاه المنصور قضاء إشبيلية .

★★★

(613) إشبيلية :

هي مدينة جليلة بينها وبين قرطبة مسيرة ثلاثة أيام ، ومن الأميال ثمانون ، وهي قديمة أزلية ، يذكر أهل اللسان اللطيني أن أصل تسميتها إشبالي معناه (المدينة المنبسطة) ، ويقال إن الذي بناها (يوليوس قيصر) ، وأنّه أول من تسمّى (قيصرَ) .

★★★

(614) سِرّ بناء إشبيلية :

قالوا : كان سبب بناء يوليوس قيصر لإشبيلية ، أنه لمّا دخل الأندلس ووصل إلى مكانها أعجبه كرمُ ساحته ، وطيب أرضه ، وجبله المعروف بـ (الشَّرف) ، فردم على النهر الأكبر ، وأقام فيه المدينة وأحدق عليها بأسوار من صخر ، وبنى في وسط المدينة قصبتين متقنتين عجيبتي الشأن ، تُعرفان بالأخوين ، وجعلها أم قواعد الأندلس ، واشتق لها اسمًا من اسمه ومن اسم رومية فسماها (رومية يوليوس) .

★★★

(615) إشبيلية والزيت :

هذه المدينة جُل تجارة أهلها من الزيت ، يتجهزون به إلى المشرق والمغرب برًا وبحرًا ، فيجتمع هذا الزيت من (الشَّرف) ، وهو مسافة أربعين ميلاً كلها في ظل شجر الزيتون والتين .

(616) أسوار إشبيلية وجامعها :

كان سور إشبيلية من بناء الإمام عبد الرحمن بن الحكم ، بناه بعد غلبة المجوس عليها بالحجر وأحكم بناءها ، وكذلك جامعها من بنائه ؛ وهو من عجيب البنيان وجليله ، وصومعته بديعة الصناعة ، غريبة العمل ، أركانها الأربعة عمود فوق عمود إلى أعلاها ، في كل ركن ثلاثة أعمدة .

★★★

(617) أهمية ومكانة إشبيلية :

وإشبيلية بها آثار كثيرة ، وأساطين عظام تدل على هياكل كانت بها ، وهي من الكُوَر المجندة نزلها جُند حمص ، وهي جليلة النفع ، عظيمة الفوائد ، ويطلُّ عليها جبل الشَّرف ؛ وهو شريف البقعة ، كريم التُّربة ، دائم الخضرة ، لا تكاد تشمس منه بقعة لالتفاف زيتونه واشتباك غصونه ، وزيته من أطيب الزيوت ؛ كثير النفع عند العصر ، لا يتغير على طول الدهر ، والقطن يجود بأرضها ، ويتجهز به التجار إلى إفريقية ، والعصفر يَفْضُل عصفر الآفاق .

★★★

(618) إشبيلية والمدائن :

بقبليّ مدينة إشبيلية بساتين تُعرف بجنّات المصَلّى ، وبها قصب السكر ، وفي آخر إشبيلية نهر إشبيلية من كلتا جانبيه جزائر كثيرة يحيط بها الماء ، كلؤها قائم وأرضها رطبة ، وألبانها دائمة ، وهذه الجزائر تعرف بالمدائن .

★★★

(619) ما يتمتع به عميد أسرة بني عباد :

كان أبو الوليد إسماعيل بن عباد عميد الأسرة وكبيرها ؛ وكان يتمتع بصفات الزعامة ومؤهلات القيادة ، فكان ينفق من ماله ، ولجأ إليه الكثيرون ممن فرّوا من قرطبة حين احتدمت الفتنة ، وكان موفور العقل مسبوغ العلم ذا دهاء وبُعد نظر ، واستطاع أن

يحمي إشبيلية من سطوة البرابرة النازلين حولها ، ولما مرض ندب الأمر من بعده لابنه أبي القاسم محمد ليشغل القضاء ، واقتصر هو على تدبير الرأي في إشبيلية ، وظل كذلك حتى وافته المنيّة سنة (414 هـ) .

★★★

(620) المؤسس الفعلي لدولة بني عباد والاستئثار بإشبيلية :

هو أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو ابن أسلم بن عمرو بن عطاف ، كان ممن اجتمع أهل إشبيلية على أن يتولى الحكم هو والفقيه أبو عبد الله الزبيدي ، والوزير محمد بن عبد الله ، فكانوا يحكمون في النهار بالقصر ، وتنفذ الكتب تحت أختامهم الثلاثة ، إلا أن ابن عباد استطاع أن ينفرد بالسلطة لنفسه .

★★★

(621) إشبيلية في قبضة القاضي أبي القاسم بن عباد :

بعد أن أصبح أبو القاسم هو الوالي الشرعي لإشبيلية ، فهو قاضيها وحاكمها ، أخذ يسعى لتوطيد حكمه وتوسيعه بحاشية مخلصة وجنود يتفانون في خدمته والدفاع عنه ، فاشترى الرجال الأحرار والعبيد ، واقتنى أنواع السلاح والعُدّة والعتاد حتى ساوى ملوك الطوائف ، واتجه للتوسع خارج مملكته ناحية الغرب لارتباط إشبيلية بغرب الأندلس ؛ لأنها تخلو من المنافسين الأقوياء .

★★★

(622) ابن عباد ودعوى ظهور الخليفة الشرعي هشام المؤيد :

أعلن ابن عباد ظهور الخليفة الشرعي هشام المؤيد ، وجدّد البيعة له بإشبيلية (426 هـ = 1035 م) ، وكان يرمي من وراء ذلك دحض دعوى الحموديين بالخلافية ، وإضفاء الشرعية على حكمه وتدبيره وتوسعاته خارج حدود إشبيلية ، فهو يتوسع بأمر الخليفة الشرعي للبلاد .

★★★

(623) فخر الدولة (المعتضد بالله) يسير على نهج أبيه :

تُوفي القاضي أبو القاسم ، فتولى من بعده أبو عمرو عباد بن محمد وتلقَّب أولاً بفخر الدولة ، ثم تلقب بالمعتضد بالله ، وتميز بالذكاء السياسي والتفوق العسكري ، وجرى على سنن أبيه فآثر الإصلاح وبسط العدل وحُسن التدبير ، سار على ذلك مدّة يسيرة ، ثم انقلب بأن بطش بوزراء أبيه ، وكان صارمًا قاسي القلب .

★★★

(624) المعتضد بالله يتوسع على حساب الطوائف المغلوبة على أمرها :

بدأ المعتضد عهده بالقوة والصرامة فانتقل مباشرة للامتلاك على إمارات غربي الأندلس الصغيرة ، فسيطر على لَبْلَة من ابن يحيى اليحصبي (445 هـ = 1053 م) ، وانتزع شَلْطِيش من بني البكري (443 هـ = 1051 م) ، وانتزع شنتمريَّة الغرب من بني هارون ، وأخرج القاسم بن حمود من الجزيرة الخضراء ، وهكذا توسعت إشبيلية على حساب هذه الممالك المغلوبة على أمرها .

★★★

(625) مملكة (إشبيلية) تمتلك المثلث الجنوبي من الأندلس :

لما فرغ المعتضد من إمارات الغرب ، اتجه إلى الإمارات البربرية في الجنوب ، فدبّر حيلة قتل فيها أمراء (رُنْدة ، ومورور ، وشَذُونة ، وأركش) حيث دعا أمراء هذه المدن إلى زيارته في (445 هـ = 1035 م) ، فلبى الدعوة ثلاثة هم أمراء : (رندة ، ومورور ، وأركش) فاستقبلهم أحسن استقبال ثم أمر بالقبض عليهم ، وتكليبهم ، واستولى على أمتعتهم وسلاحهم ، ثم أمر بإدخالهم الحمام ، وأشعل النار فيهم ، فهلكوا جميعًا ، وهنا استطاع المعتضد أن يمتلك المثلث الجنوبي من الأندلس .

★★★

(626) مؤامرة من نوع خاص تكاد تعصف بشديد الحيطة (المعتضد) :

تعرض المعتضد أثناء حكمه لفتنة من نوعٍ خاص ؛ هذه الفتنة كادت تعصف

بمملكته ، إذ كان مدبرها ابن المعتضد ووزيره ، وقد كانت هذه المؤامرة شديدة الوقع على نفسه ، وقد عبّرت عن شدة بأسه في تعامله مع تلك الظروف ، فقد تآمر عليه ابنه وولي عهده إسماعيل ووزيره البزلياني ؛ لأسباب شخصية وتملُّك الحقد في قلب الابن على أبيه والوزير على سيده ، ولكنّ المعتضد كان شديد الحيطة فيمن حوله ، فاكتشف المؤامرة التي دبَّرها ابنه مع الوزير وقتلهما .

إمارات غرب الأندلس الصغيرة

(627) مدينة أَزْكُش :

هي حصن بالأندلس على وادي لكّه ، وهي مدينة أزليّة قد خُرّبت مرارًا ، وعُمِّرت ، عامرة بالزيتون .

★★★

(628) مدينة رُنْدَة وعين البراوة :

هي مدينة قديمة بها آثار كثيرة ، وهي على نهر يُنسب إليها ، اجْتُلب إليها من قرية بشرقيّها ومن جبل طلوبرة بغربيها ، فيوافي الماء داخلها من شرقيها وغربيها ، ويتوارى نهرها في غارٍ فلا ترى جريته أميالاً ، ثم يظهر حتى يقع في نهر لكّه ، وبقربها عين تُعْرف بـ (البراوة) ، تجري من أول الربيع إلى آخر الصيف ، فإذا دخل الخريف نضب ماؤها فلا يفيض بقطرة إلى أول الربيع من عام ثان .

★★★

(629) الجزيرة الخضراء (مرسى أم حكيم) :

هي الجزيرة الخضراء ، ويقال لها : (جزيرة أم حكيم) ؛ وهي جارية طارق بن زياد مولى موسى بن نصير ، كان حملها معه فخلّفها هذه الجزيرة فنسبت إليها ، وعلى مرسى (أم حكيم) مدينة الجزيرة الخضراء ، وهي على ربوة مشرفة على البحر ، وسورها متصل بها ، وبشرقيّها خندق ، وبغربيّها أشجار تين وأنهار عذبة .

(630) مسجد الرايات بالجزيرة الخضراء :

هو مسجد يقع على البحر بين القبلة والشرق من مدينة الجزيرة ، رَكَزت فيه المجوس راياتها ، فنُسب إليها ، وله باب من خشب سُفن المجوس .

★★★

(631) دار الصناعة بمدينة الجزيرة الخضراء :

هي دار بناها عبد الرحمن بن محمد أمير المؤمنين للأساطيل ، وأتقن بناءها ، وعَلَّى أسوارها ، وبقرب المدينة مَدْخل الوادي في البحر ، عليه بساتين كثيرة ، ومَهْبَطُه من حيث تدخله السفن ، ومنه شُرب أهل الجزيرة ، ويسمونه وادي عسل ، ويمدّه البحر إلى قدر شطر المدينة ، وهو نحو نصف ميل .

★★★

(632) المدينة الخضراء وموسى والخضر :

قال وكيع بن الجراح : إن أهل هذه الجزيرة هم الذين أبوا أن يضيّفوا موسى والخضر عليهما السلام ، وبها أقام الخضر الجدار ، وخرق السفينة ، وكان ملكها في ذلك الوقت هو صاحب قرطاجنة إفريقيّة الجلنديُّ ، وهو الذي كان يأخذ كل سفينة غصبًا .

★★★

(633) المدينة الخضراء جامعة لفائدة البرّ والبحر :

مدينة الجزيرة الخضراء هي مدينة طيبة ، رفيقة بأهلها ، جامعة لفائدة البرّ والبحر ، قريبة المنافع من كل وجه ؛ لأنها وُسْطى مُدُن الساحل ، وأقربُ مدن الأندلس مجازًا إلى العدوة ، ومنها تغلّب ملوك الأندلس على ما تغلّبوا عليه من بلاد إفريقية ، ومرسى الجزيرة مشي مأمون ، وهو أيسر المراسي للجواز ، وأقربها من برّ العدوة ، ويحاذيه مرسى مدينة سبتة .

★★★

(634) مدينة لَبْلَة الحمراء :

هي مدينة في غرب الأندلس قديمة ، وبها **ثلاث عيون** : **إحداها** عينُ تَهشُر وهي أغزرها ، **والثانية** عينٌ تنبعث بالشبِّ ، **والثالثة** عين تنبعث بالزّاج ، وقد عُقد سورها على أربعة تماثيل ؛ صنم تسميه العامة دردب ، وصنم يسمونه مكبح ، وعلى كل صنم من الصنمين السابقين صنم آخر ، وهي مدينة حسنة أزلية متوسطة القدر ، ولها سور منيع ، ونهرها يأتيها من ناحية الجبل ، وكورها كثيرة ، ومنها الزيتون والشجر وضروب الثمار ، وهي سهليّة جبلية .

★★★

(635) مدينة شَلْطِيش دار صناعة الحديد :

هي مدينة بالقرب من لَبْلَة ، وهي جزيرة لا سور لها ولا حظيرة ، وإنما هي بنيان متصل بعضه ببعض ، وبها دار صناعة الحديد الذي يعجز عن صنعه أهل البلاد لجفائه ، وهي صنعة المراسي التي ترسو بها السفن ، ويحيط بها البحر من كل ناحية ، وكان بها بِيَعٌ لِلأُول ، وبها آبار عذبة ، وهي مرفأ للسفن وركاب البحر ، وبها دار صناعة لإنشائها .

★★★

(636) شَنْتَمرِيَّة صاحبة العجائب :

هي أول الحصون التي تُعَدُّ لـ (بنبولة) ، وهي أتقن حصونها ، وبها أعجوبة عاينها كل من دخل تلك الناحية من المسلمين ، وهي عين تنفجر بماءٍ كثير ، ينظر الناس ذلك عيانًا ، فإذا قربوا منها ووقفوا عليها انقطع جريانها ، فلا تنبض بقطرة ، فإذا تباعد الناس عنها عادت إلى حالها ، وهي على معظم البحر الأعظم ، متوسطة القدر ، حسنة التربة ، بها مسجد جامع ومنبر وجماعة ، وبها المراكب واردة وصادرة ، وهي كثيرة الأعشاب والتين ، وبها دار صناعة الأساطيل .

★★★

(637) شذُونَة والجبل الواسط :

هي مدينة جامعة لخيرات البرّ والبحر ، كريمة البقعة ، عذبة التربة ، وبقربها موضع يُعرف بـ (الجبل الواسط) ، وهو جبل فيه آثار للأُوَل ، وفي شق صخرة داخلَ كهف فيه فأس حديد ، يتعلّق من الشق الذي في الصخرة ، تراه العين وتحسّه اليدّ ، فمن رام إخراجه لم يطقْ ذلك ، وإذا رفعَتْه اليدُ ارتفع وغاب في شقّ الصخرة ، ثم يعود إلى حالته ، **قالوا** : وأطيب العنبر الغربي إنما يوجد بساحلها .

★★★

(638) مورور :

هي في الغرب والجوف من كورة شذونة ، وأحوازها متّصلة بأحوازها ، وهي من قرطبة بين القبلة والمغرب ، وكانت جباية مورور أيام الحكم بن هشام بن عبد الرحمن إحدى وعشرين ألف دينار .

★★★

(639) قطع الخطبة في إشبيلية لينعي هشام المؤيد :

لأنه كان شديد الطموح والاعتداد بنفسه وعدم التقيّد بغيره ؛ لذا فقد عزم على قطع الخطبة لينعي هشام المؤيد (451 هـ = 1059 م) إلى رجال الدولة وأهل المملكة ، وتعدُّ هذه الميتة هي الميتة الثالثة لهشام المؤيد ، فكم قُتل ! وكم مات ! ثم انتفض عنه التراب .

★★★

(640) قصة وفاة هشام المؤيد التي تكررت كثيرًا :

ذاك الذي مات مرارًا فانتفض عن التراب ومزّق الأكفان ، فقد أعلن محمد بن هشام المهدي الأموي وفاة هشام المؤيد ، ودُفن بمحضر من الفقهاء والعلماء في شعبان (399 هـ = 1009 م) ، ثم ظهر بعد عام على يد الفتى واضح وتولّى الخلافة ، ثم توفي قتيلًا على يد سليمان المستعين أو ولده محمد بن سليمان (403 هـ = 1012 م) ،

ودفن خفية ، ولما دخل علي بن حمود قرطبة ، بحث عن هشام فلم يجده فأعلن وفاته ، ودعا لنفسه بالخلافة (407 هـ = 1016 م) ، ثم جاء القاضي ابن عباد سنة (426 هـ = 1035 م) فأظهر الدعوة الهاشمية ودعا له وأخذ البيعة له ، وذلك دفعًا لدعوى ابن حمود بالخلافة ، وليضفي على نفسه الشرعية .

★★★

(641) المعتضد بن عباد يتمتع بثراء علمي وثقافي واسع :

رغم هذه السطوة وهذه البراعة العسكرية ، إلا أنه كان يتمتع بثراء علمي وثقافي واسع ، وكان بلاطه بلاط العلماء والفقهاء ، واشتهرت إشبيلية في عصره بالعلم والشعر والفن ، فقصدها الشعراء والعلماء من كل جانب ، وقد توفي المعتضد بعد أن توسعت دولته ، وعظم ملكه ، وهو في سن السابعة والخمسين (461 هـ = 1069 م) .

★★★

(642) الظافر بحول الله المؤيد بالله والمعتمد على الله يئول إليه حكم إشبيلية :

لما توفي المعتضد آل الحكم إلى ابنه أبي القاسم محمد بن عباد وتلقب بالظافر بحول الله المؤيد بالله المعتمد على الله ، وكان في الثلاثين من عمره يتَّقد شبابًا ، وفارسًا شجاعًا ، وشاعرًا ماضيًا ، مشكور السيرة في رعيته .

★★★

(643) المعتمد من الملوك الفضلاء ؛ وسرُّ التسمية :

تلقّب بالمعتمد ؛ لشدة حبه لجاريته اعتماد ، وكان من الملوك الفضلاء ، والشجعان العقلاء ، والأجواد الأسخياء المأمونين ، عفيف السيف والذيل ، مخالفًا لأبيه في القهر والسفك والأخذ بالظن ، أحسن السيرة في الرعية إلا أنه كان مولعًا بالخمر منغمسًا في الملذات فكان ذلك أصل هلاكه .

★★★

(644) عصر المعتمد بن عباد من أشهر عصور الطوائف على الإطلاق :

كان أهم ما ميّز عصر المعتمد هو التدخُّل وبصورة مباشرة في شئون قرطبة ، فقد حسم الخلاف ، وحقق حلم آبائه في تملكّها (462 هـ = 1070 م) ، وقد سيّر جيوشًا جرارة ليستولي على غرناطة ، وضم جيّان (466 هـ = 1074 م) ، وضم معظم أراضي طليطلة ومرسيه وبلنسيه ، وتحالف مع النصارى ليضم طليطلة ، واستطاع أن يؤسس أعظم مملكة للطوائف ؛ تمتد في قلب النصف الجنوبي من شبه الجزيرة العربية ، من غرب ولاية تُدْمير شرقًا حتى المحيط الأطلنطي ، ومن ضفاف وادي يانة جنوبًا حتى أراضي الفرنتيرة .



(645) شهرة المعتمد الأدبية والشعرية فاقت شهرته السياسية :

لقد فاقت شهرة المعتمد الأدبية والشعرية شهرته في السياسة والمُلك ، فقد كان في الأدب ذا باع ، ينظم وينثر ، ولم يك في ملوك الأندلس قبله أشعر منه ولا أوسع مادة ، ومحاسنه كثيرة في أشعاره ، وخصوصًا مراثيه لأبنائه وتفجُّعه لزوال سلطانه .

★★★

(646) المعتمد يستنصر بالنصارى فتسبب في مصائب جمّة :

لم يقنع المعتمد بما تحت يديه ؛ إذ طمع في ضم غرناطة ، وهنا اصطدم بعبد الله ابن بُلقِّين حاكمها ، ودارت بينهما حروب ونزاعات ، استنصر فيها المعتمد بالنصارى على أخيه المسلم ، مقابل ما يدفعه من جزية باهظة أثقلت كاهله وكاهل غيره من ملوك الطوائف ، ودارت خصومات بينه وبين بني ذي النون ، انتهت بسقوط طليطلة في يد النصارى ؛ ليدفع المعتمد ثمن خيانته واستهتاره بدينه وبدماء المسلمين ، وتعاونه مع النصارى ضد ملوك الطوائف ، والتي جاءت بالوبال عليه وعلى الأندلس .

★★★

(647) وفاة المعتمد بن عباد بعد أن رثى نفسه :

وكانت وفاة المعتمد بأغمات في المغرب إثر نكبته مع المرابطين ؛ جزاء تعاونه مع النصارى ضد ابن تاشفين (في ذي الحجة 488 هـ = 1095 م) ، وقد رثى نفسه وأمر أن تكتب هذه المرثية على قبره :

قَبْرَ الغَرِيبِ سَقَاكِ الرائحُ الغَادِي   حقًّا ظفرتَ بِأَشْلَاءِ ابنِ عَبَّادِ

فَلَا تَزَالُ صَلَوَاتُ اللَّهِ نَازِلَةً   على دَفِينِكَ لا تُحْصى بِتَعْدَادِ

★★★

(648) علماء في بلاط ابن عباد :

لقد تمتعت إشبيلية في زمن ابن عباد بمكانة واسعة النطاق ، بقدر ما تمتعت بالسياسة ، حتى اعتنى بنو عباد بالأدب ، وكان من خلفائهم الشعراء الأدباء كالمعتضد والمعتمد ، ومن أشهر الندماء والوزراء الشعراء ابن زيدون ، وابن اللبانة ، وابن عماد الوزير الفارس .

شعراء في بلاط إشبيلية

(649) ابن حمديس الصقلي :

هو عبد الجبار بن حمديس الصقلي ، أحد شعراء بلاط المعتمد ، وأصله من سرقسطه ، برع في ارتجال الشعر ، وحظي بمكان جميل من المعتمد ، وصاحبه في حروبه ، ورافق المعتمد في محبسه ، وله ديوان مشهور متداول ، يعرض فيه جوانب حياته ؛ وشبابه ومغامراته في إفريقية ، والحنين إلى وطنه الأول ، ومدائح قالها فيمن اتصل بهم من الأمراء وذوي الشأن ، وأحسن أشعاره تلك التي يذكر فيها وطنه .

★★★

(650) المعتمد بن عباد من أبرز الشخصيات الأدبية في عصره :

هو أبرز الشخصيات الأدبية في عصره ، **وأشعاره تنقسم بطبيعة الحال إلى قسمين** : ما قاله أيام ملكه وإقبال الدهر ، وما قاله في منفاه حين اجتمعت عليه الهموم وعبست له الأيام ، وقد ظفر الشعراء في بلاطه بحظوة كبيرة ، وكيف لا وأمير الدولة ووزيراها شعراء ، وفاق كل معاصريه ؛ لأنه كان يمثل الشعر من ثلاثة وجوه : **أولها** : أنه كان ينظم شعرًا يثير الإعجاب ، **وثانيها** : أن حياته نفسها كانت شعرًا حيًّا ، **وثالثها** : أنه كان راعي شعراء الأندلس أجمعين ، بل شعراء الغرب الإسلامي كله .

★★★

(651) المعتمد بن عباد ومحبوبته (اعتماد) :

كانت (اعتماد) الرميكية لها أثر بعيد في إنتاج المعتمد الشعري ؛ إذ صادفها في إحدى نزهاته فاشتراها وتزوجها ، وكان حديثها يفيض عذوبة وطلاوة ، وكانت طلعتها مسعدة ، حاضرة الجواب ، بارعة الردود ، فيها رقة ومرح ، تشوبه سذاجة الطفولة ، وكانت تسرف في دلالها ونزواتها ، وقد أبغضها الفقهاء ؛ لأنها ورطت المعتمد في الخلاعة والاستهتار والمجاهرة .

★★★

(652) دلال (اعتماد) بين الثلج والطين :

بلغ من نزوات (اعتماد) المسرفة ما تحكيه الكتب من أنها طلبت إلى المعتمد أن يريها (الثلج) فزرع لها أشجار اللوز على جبل قرطبة ، حتى إذ نوّر زهره بدت الأشجار وكأنها محملة بالثلج الأبيض ، ومنها تمنيها أن تسير في الطين برجليها كما رأت الناس يفعلون ، فأمر المعتمد بأن يذر لها في رحبة القصر الكافور والطيوب ، وأن تعجن بماء الورد ، حتى صارت كالطين ، فخاضت فيها مع جواريها .

★★★

(653) إعزاز المعتمد لاعتماد يتمثل في (أبيات تبدأ بحروف اسمها) :

مضى المعتمد على حاله مع (اعتماد) فلم يقصر في شيء يجلب إلى نفسها السرور ، وقد بلغ من إعزازه أن صنع أبياتًا يبدأ كل منها بحرف من حروف اسمها ، **وهي** :

أغائبة الشخص عن ناظري — وحاضرة في صميم الفؤاد
عليك السلام بقدر الشجون — ودمع الشئون وقدر السهاد
تملكت منيّ صعب المرام — وصادفت مني سهل القياد
مرادي أعياكِ في كل حين — فيا ليت أني أُعطَى مرادي
أقيمي على العهد في بيننا — ولا تستعجلي لطول البعاد
دسست اسمك الحلو في طيه — وألَّفتُ منه حروف (اعتماد)

بنو الأفطس في بَطَلْيُوس

(654) المقصود بمملكة بَطَلْيُوس :

هي مملكة تقع في الشمال من مملكة إشبيلية ، ولا يفصل بينهما إلا سلسلة جبال الشارات (سيرامورينا) ، وتشمل رقعة واسعة تمتد من غرب مملكة طليطلة عند مثلث وادي يانة ، وغربًا حتى المحيط الأطلسي ، وهي تشمل كل دولة البرتغال الحالية تقريبًا حتى مدينة باجة .

★ ★ ★

(655) كيف بدأت مملكه بَطَلْيُوس ؟

لما احتدمت الفتنة في أواخر عهد المستنصر بالله ، وكان سابور العامري الفارسي ، أحد صبيان فائق الخادم مولى الحكم المستنصر ، وظل حاكمًا على البلاد ثلاث عشرة

سنة ، ولما حدثت الفتنة استبد بالحُكم وأعلن استقلاله وانفصاله ، وكان فارسًا شجاعًا قليل الخبرة في شئون الحكم والإدارة ، فجعل عبد الله بن محمد بن سلمة الأفطس وزيرًا ، ورمى إليه بأمور البلاد .

★★★

(656) محمد بن سلمة الأفطس ينفرد بحكم بطليوس :

نسبة لضعف سابور في الإدارة ما لبث الأفطس أن صار الأفطس هو الحاكم الفعلي في البلاد ، ولما توفي سابور (413 هـ = 1022 م) ترك ولدين صغيرين لم يبلغا الحلم **هما** : عبد الملك وعبد العزيز ، فأعلن الأفطس استقلاله واستبدّ بالأمور دون الولدين الصغيرين ، وضبط أمور دولته ، وتلقّب بـ (المنصور) ، وصارت المملكة له ولأعقابه من بعده .

★★★

(657) ابن الأفطس واسترداد الأمن الداخلي :

انشغل عبد الله بن الأفطس بالقضاء على ثورة ابني سابور (عبد العزيز وعبد الملك) في لشبونة ، فقد طمع عبد العزيز في استرداد حكم أبيه ، ولكن لم يطل به المقام ففاجأته المنيّة ، وجاء من بعده أخوه عبد الملك ، ولم يكن على قدر الكفاءة والسياسة والإدارة فلم يقتنع به أهل لشبونة فخاطبوا ابن الأفطس سرًّا ، الذي سيّر جيشًا ودخل المدينة دون مقاومة ، وأمّن ابن سابور الذي استأذن ابن جهور في الدخول لقرطبة فأذن له ، وظل بها حتى مات .

★★★

(658) وفاة عبد الله بن الأفطس وتولية المظفر سيف الدولة :

ظل عبد الله بن الأفطس يعمل على تقوية دولته وتوسعتها وإحكام السيطرة عليها ، إلى أن مات (437 هـ = 1045 م) ، وخلفه من بعده ابنه محمد الملقب بالمظفر ، الذي سار سير أبيه ووطد ملكه في بطليوس وما حولها ؛ ليتسنى له مراقبة

الأحداث الخارجية ، فاستطاع بحنكته وشجاعته أن يقيم دولة تضاهي دولة بني عباد في إشبيلية ، ودولة ذي النون في طليطلة .

★★★

(659) النصارى يتحينون الفرص :

دارت معارك طاحنة وشنيعة بين ابن الأفطس وبني عباد ، كادت تفني الفريقين لولا تدخل ابن جهور وابنه أبي الوليد ، ولم يكن النصارى بغافلين عن ذلك ، فهاجمت قوات النصارى المنطقة الشمالية والغربية لمملكة بطليوس ، وكانت الغلبة للنصارى ، فأجبروا ابن الأفطس على دفع الجزية (456 هـ = 1064 م) .

★★★

(660) وفاة المظفر وتولية المنصور :

ظل المظفر في حروب شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا ، حتى وافته المنيّة سنة (460 هـ = 1067 م) ، وخلفه ابنه يحيى علىٰ بطليوس وتلقب بالمنصور .

★★★

(661) المظفر كان حكاية زمانه في التأليف والتصنيف :

جدير بالذكر أن نذكر أن المظفر كان حكاية زمانه في العلم ؛ يُحضِر العلماء للمذاكرة فيفيد ويستفيد ، وله التصنيف الرائق والتأليف الفائق المترجم بـ (التذكرة) والمشتهر بـ (كتاب المظفر) ، وهو في مائة مجلد ، **وقيل** : خمسين مجلدًا ، أو في عشرة أجزاء ، **يشمل** : فنونًا ومغازىَ ، وسيرًا ، وأمثالاً ، وأخبارًا ؛ **فهو موسوعة علمية وتاريخية وأدبية عظيمة** .

★★★

(662) المنصور يحيى وثورة عمر عليه :

خلف يحيى المنصور أباه المظفر ، وما كاد ينعم بملك أبيه ومملكته الواسعة حتى ثار عليه أخوه (عمر) الذي كان يحكم (يابرة) - وهي بلدة في جنوب البرتغال حاليًا -

واشتد النزاع بينهما ، وبلغ أشدّه سنة (461 هـ) حيث قامت حرب أهلية بمملكة بطليوس ، والتجأ عمر إلى المعتمد بن عباد ، ومال المنصور إلى المأمون بن ذي النون صاحب طُليطلة ، وكادت الفتنة تقضي على كل شيء لولا وفاة المنصور فجأة (461 هـ) ، فانفرد عمر بالملك دون منازع ، وتلقب بـ (المتوكل على الله) ، وجعل ابنه العباس على (يابرة) .

★★★

(663) المتوكل على الله متعدد المواهب الأدبية :

كان المتوكل على الله أديبًا بليغًا وشاعرًا ، جمع العلم والأدب والبلاغة ، وكان في بطليوس كالمعتمد في إشبيلية ، وكان ذا قدم راسخة في صناعة النظم والنثر مع شجاعة وفروسية تامة ، وكانت له أشعار وأخبار تنم على سعة علمه وثقافته وقوة بلاغته شعرًا ونثرًا ، وكان في النثر أشفَّ من الشعر ، وإن طبقته لتتقاصر عنها أفذاذ الكُتّاب ، ونهاية من نهاية الآداب .

★★★

(664) المتوكل على الله يستولي على طليطلة ثم تسقط في يد النصارى :

كان الجانب السياسي قويًا في حياة المتوكل بالله ، ولعل أشهرها هو دخوله طليطلة (472 هـ = 1079 م) بعد هروب حاكمها القادر بالله يحيى بن ذي النون إثر ثورة عليه ، فدبّر أمورها وشئونها حتى عاد القادر مرة أخرى ، فخرج منها إلى بطليوس محملاً بالأموال والذخائر ، ولكنه لم ينعم في طليطلة ؛ إذ سقطت في يد النصارى (487 هـ = 1085 م) .

★★★

(665) المتوكل على الله والقرار الخطير في حياة الأندلس :

بعد سقوط طليطلة طمع النصارى في القضاء على ملوك الطوائف جميعهم ، فلاح في الأفق هذا الخطر ، فتحركت النخوة والغيرة على الدين ، فانتدب المتوكل على الله قاضيه أبا الوليد الباجي ليطوف بملوك الطوائف ، يدعوهم إلى الوحدة ولمّ الشَّمل

ومدافعة العدوّ ، ولما لم يستنصره أحدٌ انتهى به الأمر إلى ذلك القرار الخطير ونقطة التحول في حياة الأندلس ألا وهو (استدعاء المرابطين) .

★★★

(666) المرابطون يحاصرون إشبيلية ، ومراسلة غير متوقعة من المتوكل :

لما تغلب المرابطون على الأندلس وحاصروا إشبيلية وأسقطوها (484 هـ = 1091 م) ، قام المتوكل بما لم يكن متخيلاً من مثله ؛ إذ راسل ألفونسو السادس ، ومكّنه من لشبونة ، وشنترين ، وشنترة ؛ ليستعين به على المرابطين ، فانفض الناس عنه وراسلوا سير ابن أبي بكر فدخل بطليوس وحاصرها ، وتمكن من المتوكل وابنيه (العباس والفضل) ، وأخذوا جميعًا إلى إشبيلية فقتلوا فيها . وهكذا انتهت محنة بني الأفطس وتمت للمرابطين السيطرة على غرب الأندلس ، ودفع المتوكل بالله ثمن موالاته للنصارى دون المؤمنين ، وتلك زلّة لم يغفرها له التاريخ مع حسن سيرته وشيوع عدله وعلمه .

★★★

(667) بطليوس حاضرة من حواضر العلم والأدب في عصر بني الأفطس :

كانت بطليوس في ظل بني الأفطس حاضرة من حواضر العلم والأدب والفقه في فترة حكم ملوك الطوائف ، يتسابق إليها العلماء والشعراء ، ينهلون من عطايا ملوكها وخاصة المظفر والمتوكل ، وقد اعتنى بنو الأفطس عناية فائقة بالأدب والشعر خاصة .

★★★

(668) ابن عبدون الوزير ، الشاعر ، الأديب :

هو أشهر شعراء بني الأفطس وأكبر وزرائهم ، وهو عظيم مُلْك بني الأفطس ونظيم سلكهم ، وقد رثى دولتهم بكلمات اشتملت على كل مَلِك قُتل ، وأشارت إلى مَنْ غدر منهم وخُتِل ، تكبرها المسامع ، ويعتبر بها السامع .

★★★

(669) أبو الوليد الباجي أحد أئمة المسلمين في المشرق والمغرب :

هو أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب الأندلسي الباجي ، ارتحل في طلب العلم والفقه بين الحجاز وبغداد ودمشق والموصل وأصبهان ، ثم عاد إلى الأندلس بعد ثلاث عشرة سنة بعلم غزير ، فولي القضاء ، وقد أجمع العلماء على أنه أحد أئمة المسلمين في المشرق والمغرب ، وقد كان من المقربين إلى المتوكل ينصحه ويُذكّر ، أراد أن يجمع كلمة ملوك الطوائف فلم يستطع ؛ صنّف كتبًا كثيرة ، **منها** : كتاب (المنتقى) ، و(إحكام الفصول في أحكام الأصول) ، و(التعديل والتجريح فيمن روى عنه البخاري في الصحيح) .

★★★

(670) ابن عبد البرّ الإمام العلّامة ، حافظ المغرب :

هو أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي ، الإمام العلّامة ، حافظ المغرب ، لم يكن بالأندلس مثله في الحديث ، وهو أحفظ أهل المغرب ، له رحلات كثيرة واستقر به الأمر في بطليوس ، وتولّى قضاء لشبونة وشنترين ثم حل إلى شاطبة وبها توفي ، **من تصانيفه** : (الدرر في اختصار المغازي والسير) ، و(العقل والعقلاء) ، و(الاستيعاب) ، و(بهجة المجالس وأنس المجالس) ، و(التمهيد) .

بنو ذي النون في طليطلة

(671) أهمية الثغر الأوسط (طُلَيْطلة) في صد غارات الممالك النصرانية :

طليطلة أو الثغر الأوسط ، كانت تمثل عين الاهتمام من الولاة والأمراء ، وكان يبدو عليها الطابع الجهادي ، حيث تمثل الحاجز الشمالي الأوسط للدولة الإسلامية في الأندلس لصد غارات الممالك النصرانية ، فهي ذات موقع إستراتيجي عسكري ومساحتها واسعة ، فهي ثغر الثغور .

(672) امتداد (طُليطلة) بين الثغور :

تمتد طليطلة شرقيّ مملكة بَطَلْيُوس (الثغر الأدنى) من قورية وترجالة نحو الشمال الشرقي حتى قلعة أيوب وشنتمرية الشرق ، وتمثّل الجنوب الغربي لمملكة بني هود في سَرَقُسطة « الثغر الأعلى » ، وتمتد جنوبًا إلى الغرب حتى حدود قرطبة ، وشمالاً إلى الشرق فيما وراء نهر تاجة متاخمة لحدود مملكة قشتالة .

★★★

(673) بنو ذي النون وظهورهم على مسرح التاريخ :

برز ظهور نجم ذي النون على مسرح الأحداث في زمن الحكم المستنصر ، وعلا كعب بني ذي النون خاصة في دولة المنصور بن أبي عامر وولده من بعده ، فقد قادوا الجيوش وتولوا الأعمال والبلاد ، وظهر منهم عبد الرحمن بن إسماعيل بن ذي النون ، وكان قد مَلَك شَنْتَمريَّة كلها ، وملكها من بعده ابنه إسماعيل ، وبعد الفتنة استقامت له الأمور ، فأخذ يتوسع في الممالك المجاورة ، وكان أول المفارقين للجماعة ، وأخذ يتوسع على حساب غيره ، ويجبي الأموال .

★★★

(674) ابن حيان يصف إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذي النون :

قال عنه ابن حيان : « وكان من البخل بالمال ، والكَلَف بالإمساك ، والتقتير في الإنفاق ، بمنزلة لم يكن عليها أحدٌ من ملوك عصره ، لم يرغب في صنيعة ، ولا سارع إلى حسنة ، ولا جاد بمعروف ، ولا عَرَّج عليه أديب ولا شاعر ، ولا امتدحه ناظم ولا ناثر ، ولا استُخرج من يده درهم في حق ولا باطل ، ولا حظي أحد منه بطائل . . . صار جرثومة النفاق ، وأول من استنّ سُنّة العصيان والشقاق ، ومنه تفجر ينبوع الفتن والمحن » .

★★★

(675) الظافر إسماعيل بن ذي النون ملكًا لطُلَيْطِلة :

بعدما وقعت الفتنة وانهارت السلطة المركزية بالأندلس ، أضحت طليطلة بلا حاكم أو والٍ يتولّى أمورها ، وبعد محاولات وتعيينات آل الحكم لبني ذي النون ، بعد أن أرسل زعماء طليطلة إلى حاكم شنتمريّة عبد الرحمن بن ذي النون ، فأرسل ابنه إسماعيل فاستولى على طليطلة ، ودخلها (427 هـ = 1036 م) وتلقّب بالظافر ، وبدأ يتوسع في ملكه الجديد ، واستعان في تدبير أموره بكبير الجماعة وشيخ البلدة أبي بكر ابن الحديدي ، فهو شيخها والمنظور إليه بها من أهل العلم والعقل والدهاء وحسن النظر ، فكان الظافر لا يقطع أمرًا دونه ، ويشاوره في مهمات أموره وشئون دولته ، وقد توفي الظافر (435 هـ = 1043 م) .

★★★

(676) المأمون يحيى بن إسماعيل وسياسة ساعدته في توسيع ملكه :

لما توفّي الظافر ، تولى بعده ابنه يحيى الملقب بالمأمون ، وسار على سُنّة أبيه فأقام العدل ، وكان ذلك سبيلاً لاتساع مملكته ، وكان عهده عهد تنازع وفراق بينه وبين ملوك الطوائف الأخرى ، وقد ظهرت خلال ذلك الخِسَّة والنذالة ، إذ استعانوا بالنصارى فضعفت قوة الأطراف المتنازعة ، وقويت شوكة النصارى ، وأغاروا على أملاك المسلمين ، ورغم حكم المأمون الذي تعدى الثلاثة والثلاثين عامًا إلا أن عدوَّه اللدود سليمان المستعين وغيره من ملوك الطوائف ، كان هو شغله الشاغل .

★★★

(677) أهم أعمال المأمون يحيى بن إسماعيل :

كان من أهم أعماله هو دخوله في طاعة هشام المؤيد بالله (أو شبهه على وجه الدقة) ، ثم الاستيلاء على بَلَنسية وأعمالها سنة (457 هـ = 1065 م) ، وأمام توسعاته كانت قرطبة محل نظره ، وكان يتحين الفرص للانقضاض عليها ، فلما اضطربت أمورها أغار عليها (462 هـ) ، وهو يُعَدّ من أطول ملوك الطوائف عهدًا ، واتسعت رقعة ملكه حتى ملك بَلَنسية ، وعظمت خزائنه حتى قصده الشعراء والعلماء .

(678) المأمون ومجلسه المسمى بـ (المكرم) :

لما زادت الأموال في خزائن المأمون ، أكثر من تشييد القصور الفخمة ، والمجالس الباهرة ، ومن أشهر المجالس (مجلس المكرم) الذي كان إزاره الرائع الدائر بأسّه حيث دار ، وهو متخذ من رفيع المرمر الأبيض المسنون ، الزَّارية صفحاته بالعاج في صدق الملاسة ونصاعة التلوين ، قد خُرّمت في جُثمانه صُورٌ لبهائم ، وأطيار ، وأشجار ذات ثمار .

★★★

(679) أكابر شعراء العصر وعلمائه يعيشون في ظل المأمون :

ولأن **دولة المأمون** دولة زاهرة كإشبيلية وبطليوس ، فقد كان أكابر شعراء وعلماء العصر يعيشون في ظلّه ، كـ (ابن أرفع رأسه) صاحب الموشحات المشهورة ، وشاعر المأمون ، وابن سعيد العلاّمة الرياضي مؤلف تاريخ العلوم المسمى (طبقات الأمم) ، وكان يلقى دروسه في المسجد الجامع ، وابن بَصَّال الطليطلي العلاّمة النباتي ، ولم يجد ابن حيان أن يهدي كتابه : (التاريخ الكبير) سوى للمأمون .

★★★

(680) القادر بالله يحيى حفيد المأمون يخلف جَدّه :

مات المأمون بن ذي النون مسمومًا بقرطبة ، وخلفه من بعده يحيى بن إسماعيل بن يحيى بن ذي النون ، وذلك سنة (467 هـ = 1075 م) ، وتلقّب بالقادر بالله ، وكان سيئ الرأي ، قليل الخبرة والتجارب ، مع أنه كان يحكم مملكة عظيمة وطّدها له جدّه المأمون .

★★★

(681) القادر بالله ووزيرا جدّه ابن الفرج وابن الحديدي :

كان المأمون قبل وفاته قد قسّم وظائف دولته وعهد بها إلى وزيريه : ابن الفرج وابن الحديدي ، فجعل أمور الجند لابن الفرج ، وأمور المشورة والرأي

لابن الحديدي ، وأخذ عليهما المواثيق والعهود بحسن الإدارة والنصح ؛ إلا أن القادر بالله تحت تأثير العبيد والخدم ونساء القصر ، الذين أوغروا صدره على ابن الحديدي فتخلص منه (468 هـ = 1076 م) .

★★★

(682) النتائج المترتبة على الفتك بابن الحديدي :

لم ينعم القادر بالله منذ أن فتك بابن الحديدي بالأمان ، إذ صار أعوان الأمس أعداء اليوم ، ومَنْ أوغروا صدره بالأمس على ابن الحديدي قد انقلبوا عليه وكادوا له الدسائس ، وبدأت الهموم والمتاعب والثورات حتى هرب من طليطلة إليحصن وَبْذَة ، وهنا استقدم أهل طليطلة المتوكِّل ابن الأفطس ليحكم البلاد (472 هـ) وظل حاكمًا عليها حتى عاد القادر بمعونة ألفونسو مرة ثانية ودخل طليطلة في حمى النصارى .

ألفونسو السادس وطليطلة المنفى

(683) طليطلة عاصمة القوط سابقًا ومكانتها السامية :

إنها طليطلة تلك المدينة العظيمة ، التي كانت عاصمة القوط قبل دخول المسلمين في عهد موسى بن نصير وطارق بن زياد - رحمهما الله - ، فتحها طارق بستة آلاف بالرعب قبل مسيرة شهر ، كان يستقبل فيها عبد الرحمن الناصر الجزية المجلوبة من بلاد النصارى ، ومنها كان ينطلق هو ومَنْ معه من الحكام الأتقياء لفتح البلاد في الشمال ، تلك المدينة الحصينة التي كانت تحوطها الجبال من كل ناحية ماعدا الجنوبية .

★★★

(684) سذاجة المأمون بن ذي النون وذكاء ألفونسو السادس :

إنها لسذاجة من حاكم إسلامي من حكام الطوائف ، فقد استضاف المأمون بن ذي النون ألفونسو بن فرنادو ، الذي كان والده قد أثقل كاهله وكاهل المسلمين بالجزية والغارات والإتاوات ، يقابلها ذكاء منقطع النظير لألفونسو الهارب من حرب أهلية ومن

جفاء أخيه ، فقد كان يتربص جنات طليطلة ليأكل من خيراتها ، ويخالط أهلها ، ويعرف كمائنها ونقاط قوتها وضعفها ، ويتأمل أسوارها ، فها هو قد حوّل منفاه إلى مهمة استخبارية .

★★★

(685) الثورات والهموم والتشتت تحاصر القادر بالله من كل جانب :

وما لبث القادر أن جنى عاقبة فساده واعتماده على بطانة السوء ، فانهالت عليه الثورات والهموم من كل جانب ، فالمقتدر بن هود صاحب سرقسطة يُرهقه بغاراته من ناحية ، وأبو بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية أعلن الثورة والاستقلال ، والنصارى من ناحية ثالثة يغيرون على أعمال مملكته .

★★★

(686) القادر بالله يبحث عن العون والخروج من هذه المزالق :

حاول القادر بالله أن يجد عونًا ونصيرًا ليواجه تلك المتاعب والهموم ، فالتجأ إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة يطلب مساعدته ، فوافق ألفونسو على أن يتنازل القادر عن بعض الحصون القريبة من الحدود ، وهي : سرية ، وفتورية ، وقنالش بالإضافة إلى الأموال الباهظة التي اشترطها ألفونسو ، فوافق القادر لحاجته إليه .

★★★

(687) عودة القادر بالله المخزية على أكتاف الصليبيين :

هرب القادر بالله إثر الثورة التي قامت ضده إلى حصن وَبْذَة ، ثم انتقل منه إلى قوقنة ، ومنها أرسل إلى ألفونسو يطلب المساعدة ويذكره بسابق العهد ، فوافق ألفونسو ليبسط سلطانه على القادر بالله ومنه على طليطلة ، فذهب معه إلى طليطلة في سرية حيث حاصرا طليطلة مما اضطر المتوكل بن الأفطس إلى الهرب ، فدخل القادر طليطلة على أكتاف ومساعدات النصارى ، فيا للخسارة والعار !

★★★

(688) ألفونسو يضع خطته العسكرية ويحاصر طليطلة :

أعدّ ألفونسو عدّته للقضاء على طليطلة ، ووضع خطته العسكرية التي تُمهّد لمشروعه الواسع بالسيطرة على ممالك الطوائف كلها ، وفي (474 هـ = 1082 م) ضرب الحصار على طليطلة ، وشدّد غاراته عليها ، وظل على ذلك أربع سنوات يخرّب الزروع والأراضي ، وعاش الناس في كرب شديد ، في الوقت الذي كان فيه ملوك الطوائف في الممالك المجاورة يقدمون الجزية والإتاوة ، وتعيش في تنازع أو تردُّ غارات النصارى .

★★★

(689) طليطلة المنكوبة تنتظر ساعة السقوط :

أحكم ألفونسو الحصار على طليطلة ، وضاق الناس ذرعًا ولا مجير ، في الوقت الذي كان يُجرَى فيه اتفاق غريب بين القادر بالله والنصارى ، ولما طال الحصار أرسلوا جماعة من زعمائهم إلى ألفونسو يطلبون الصلح والمهادنة ، فأهانهم ألفونسو ، فما كان من المدينة الباسلة بعد أن مرّ عليها تسعة أشهر أخرى إلا أن تطلب التسليم بعد أن عجزت عن المقاومة ، وبعد أن سلّمها ملوك الطوائف ثمنًا لدينهم وشرفهم وعزّتهم .

★★★

(690) شروط تسليم المدينة الباسلة طليطلة :

كان من شروط تسليم المدينة : أن يُؤمَّن أهل المدينة على أنفسهم وأموالهم ، وأن يغادرها مَنْ يشاء حاملاً أمواله ، وأن يُسمح لمن عاد منهم باسترداد أمواله ، وأن يؤدّوا الجزية إلى ملك قشتالة على ما كانوا يؤدونه لملوكهم من المكوس والضرائب ، وأن يحتفظ المسلمون للأبد بمسجدهم الجامع ، وأن يتمتّعوا بالحرية التّامة في إقامة شعائرهم وشريعتهم ، أن يتسلموا سائر القلاع والحصون .

★★★

(691) علاقة مشئومة بين القادر بالله وألفونسو هي سرّ سقوط طليطلة :

كانت العلاقة المشئومة بين القادر بالله بن ذي النون وألفونسو هي سر سقوط طليطلة ، إذ اتفقا على تمكين ألفونسو ابن ذي النون بلنسية على أن تخضع القواعد الشرقية كلها لألفونسو ، وبعد سقوط طليطلة خرج القادر بالله بن ذي النون ذليلاً هو وأهله .

★★★

(692) أبلغ وصف للقادر بالله ابن ذي النون :

قال ابن بسّام صاحب الذخيرة : « وخرج ابن ذي النون خائبًا مما تمنّاه ، شرقًا بعقبى ما جناه ، والأرض تَضِجُّ من مُقَامه ، وتستأذن في انتقامه ، والسماء تودّ لو لم تُطْلِع نجمًا إلا كَدَرَتْهُ عليه حَتفًا مبيدًا ، ولم تُنْشِيء عارضًا إلا مَطَرَتْه عذابًا فيه شديدًا ، واستقر بمحلة أذفنوس (ألفونسو) مخفور الذِّمّة ، مزال الحرمة ، ليس دونه باب ، ولا دون حرمه سِتْرٌ ولا حجاب » .

★★★

(693) مِنَ العلماء الذين برزوا في طليطلة (صاعد الأندلسي) :

هو القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن صاعد الأندلسي التغلبي القرطبي الطليطلي المالكي ، يُعَدّ علاَّمة التاريخ في عصره ، أول مفكر عربي حاول تفسير طبائع البشر وفقًا لتغيرات المناخ ، ولي قضاء طليطلة في عهد المأمون .

من أشهر كتبه : (طبقات الأمم) ، و(جوامع أخبار الأمم من العرب والعجم) ، و(صوان الحكم) في طبقات الحكماء ، و(مقالات أهل الملل والنحل) ، و(إصلاح حركات النجوم) ، و(تاريخ الأندلس) ، و(تاريخ الإسلام) .

★★★

(694) ابن وافد صاحب النظرية الفريدة (التداوي بالأغذية) :

هو الوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن وافد بن مهند اللخمي

الطليطلي ، الذي اعتنى بالطب والأدوية المفردة ، ألّف كتابه (الأدوية المفردة) ، وله نظرية شهيرة ؛ إذ كان يرى التداوي بالأدوية ما لم يمكن التداوي بالأغذية ، فإذا دعت الضرورة إلى الأدوية فلا يرى التداوي بمركّبها ما أمكن التداوي بمفردها ، فإن اضطر إلى المركّب منها لم يُكثر منه ، بل اقتصر على الأقل ما يمكنه منه .

ومن كتبه : (الوساد في الطب) ، و(مجريات في الطب) ، و(تدقيق النظر في علل حاسة البصر) ، وكتاب (المغيث) .

بنو هود في سرقسطة

(695) سَرَقُسطَة من أهم الممالك الإسلامية في بلاد الأندلس :

اكتسبت هذه المدينة أهمية كبيرة لاتساع مساحتها الجغرافية ؛ إذ **تشمل** : تُطِيلة ، ووَشْقة ، وبَرْبُشْتر ، ولارِدَة ، وإفراغة ، وطرّكونة ، وطُرْطُوشة وتشغل المنطقة الخصبة التي يخترقها نهر إبره من مصبّه عند طُرطوشة حتى مدخله عند مدينة قَلَهُرَّة في ولاية نافار ، ويخترق فرعها الشمالي نهر سجرى وفرعها الجنوبي خالون حتى قلعة أيوب ودَرَوْقة .

وهي ذات موقع عسكري وسياسي خطير ؛ إذ هي حائط الصدّ الأول والأهم لبلاد الأندلس من هجمات الممالك النصرانية الإسبانية ، لذا سميت بـ (الثغر الأعلى) .

★ ★ ★

(696) إقرار بني تجيب على الثغر الأعلى (سرقسطة) :

ظهر بنو تجيب في عهد المنصور بن أبي عامر حينما أقر يحيى بن عبد الرحمن التجيبي على الثغر الأعلىٰ (سرقسطة) (397 هـ = 989 م) ، واستمر فيها إلى أن توفي (408 هـ = 1017 م) ، وخلفه ابنه المنذر بن يحيى التجيبي .

★ ★ ★

(697) المنذر يلقب نفسه بالمنصور ويهادن النصارىٰ :

يعد المنذر أقوى حكام بني تجيب في الأندلس ، وكان من بُعد نظره أنه رأى أن يهادن النصارى إلى حين ليأمن غاراتهم وعواقب هجماتهم ، فوطّد علاقاته معهم ؛ حيث عقد حفلاً في قصره لعقد المصاهرة بين سانشو ورامون ، حضره أهل الملتين من فقهاء المسلمين وقساوسة النصارى ، فسخط الناس عليه ، واتّهموه بالخيانة ، إلا أنهم لم يدركوا بُعد هذه السياسة الحكيمة إلا بعد وفاته ؛ إذ عادت هجمات المسلمين عليهم بعد أن ركن النصارى للدعة ومسالمة المسلمين .

★ ★ ★

(698) نهاية حكم بني تجيب على يد عبد الله بن حكيم (430 هـ) :

أقام المنذر دولته وتلقب بألقاب السلاطين حتى (414 هـ) ، وخلفه ابنه المظفر يحيى بن المنذر حتى توفي عنها سنة (420 هـ) ، ثم خلفه ابنه المنذر الثاني بن يحيى الذي تلقب بالحاجب معزّ الدولة الذي توفي مقتولاً على يد ابن عمّ له يسمى عبد الله بن حكيم (430 هـ = 1039 م) ، وكانت هذه هي نهاية عهد بني تجيب بسرقسطة .

★ ★ ★

(699) بداية عهد بني هود في سَرَقُسْطة (431 هـ = 1039 م) :

بعد مقتل المنذر اجتمعت كلمة أهل سرقسطة على سليمان بن هود كأمير عليهم وتلقّب بالمستعين بالله سنة (431 هـ) ، ومنذ ذلك التاريخ بسط بنو هود سلطانهم على الثغر الأعلى لأهل الأندلس ماعدا طُرطُوشة التي كانت بيد الفتيان العامريين .

★ ★ ★

(700) تُطِيلة :

هي من أكرم ثغور الأندلس تُرْبة ، يجود زرعها ، ويدر ضرعها ، وتطيب ثمرتها ، وتكثر بركتها ، وأهلها لا يغلقون أبواب مدينتهم ليلاً ولا نهارًا ، ومن الغرائب المستطرة أنه كان بتطلية بعد الأربعمائة من الهجرة امرأة لها لحية سابغة كَلِحى الرّجال ،

وكانت تتصرف في الأسفار ، وسائر ما يتصرّف فيه الناس ، ولا يُؤبه لها ، حتى أمر القاضي نسوة من القوابل بالنظر إليها ، فإذا بها امرأة كسائر النساء ، فأمر القاضي بحلق لحيتها ، وأن تتزيّا بزيِّ النساء ، ولا تسافر مع ذي محرم .

★★★

(701) أشهر الأعمال العسكرية والسياسية في حياة سليمان بن هود :

لعل أشهر هذه الأعمال هي الحرب الضروس التي دارت بين سليمان وبين المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة حيث استعان كل منهما على أخيه بالنصارى (حكام نافار وقشتالة) ، وظلت نار الفتنة بين المسلمين يذكيها النصارى ، إلا أن الله وقى المسلمين شرّها بموت سليمان سنة (438 هـ = 1046 م) .

★★★

(702) المستعين بالله يقوم بعملٍ سلبيّ قبل وفاته :

قبيل وفاة سليمان بن هود قسم أعمال دولته على أبنائه الخمسة ، فولّى ابنه أحمد بن سليمان سَرَقسطة ، وولّى يوسف لارِدَة ، وولّى محمدًا قلعة أيوب ، وولّى لُبًّا مدينة وَشْقَة ، وولّى المنذر تُطِيلَة ، ويبدو أن هذا العمل كان عملاً سلبيًا ؛ إذ زرع العداوة والشقاق والتناحر بين الإخوة ؛ فاستبدّ كل منهم بما تحت يده من أعمال والده .

★★★

(703) أحمد بن سليمان أسعد الإخوة حظًّا :

كان أحمد بن سليمان أسعد الإخوة حظًّا ، وأقواهم ذكاءً وحيلةً ؛ إذ ظلّ يتحايل على إخوته ليستولي على ملكهم جميعًا ، فسجنهم وبسط سلطانه على سلطانهم ، غير لارِدَة ؛ إذ وقف أخوه يوسف الملقب بحسام الدولة أمام أطماعه ، واستطاع أن يحميها من أخيه ، ولكن أحمد المقتدر استطاع أن يتغلب على أخيه يوسف المظفر بالغدر والخيانة والاستهتار بدماء المسلمين ؛ إذ استعان بالنصارى على أخيه ، واستطاع بقوتهم أن يضمّ لاردة وتطيلة إلى أملاكهِ ، كما استطاع أن يضم طرطوشة بعد تغلبه على الفتى نبيل العامري (452 هـ = 1060 م) .

(704) المقتدر بن هود أعظم ملوك الطوائف في زمانه :

وكان المقتدر بن هود من أعظم ملوك الطوائف في زمانه ، وكان يحيط نفسه بشيء من العظمة والأبهة ، وكان بلاطه من أعظم قصور الطوائف وأفخمها ، وكان يحيط نفسه بطائفة من أشهر العلماء والكتّاب ، ومنهم : العلاّمة الفقيه أبو الوليد الباجي ، ووزيره أبو المطرف بن الدباغ ، بل كان المقتدر نفسه من علماء عصره ، وكان يشغف بدراسة الفلسفة والرياضيات والفلك ، وكتب كتبًا في الفلسفة والرياضيات ، توفي (475 هـ = 1081 م) متأثرًا بعضة كلب بعد أن دام حكمه (35) سنة .

★★★

(705) المقتدر يرتكب نفس الخطأ الذي وقع فيه والده :

يبدو أن المقتدر قد ارتكب الخطأ الذي وقع فيه والده من قبل ؛ فقد قسّم مملكته بين ولديه ؛ فخصّ ابنه الأكبر يوسف المؤتمن بسَرَقُسْطة وأعمالها ، وخصّ ابنه الأصغر المنذر بلاردة وطرطوشة ودانية ومنتشون ، وطمع كلا الأخوين بما في يد أخيه ، واستعانا بالنصارى ؛ فقد استعان المؤتمن بالقشتاليين وبالسيد القمبيطور وجيشه من المرتزقة ، وارتمى المنذر في أحضان سانشو ملك أرجوان ، ورامون أمير برشلونة ، وقد مُني المنذر وحلفاؤه بهزيمتين قاسيتين عند قلعة المنار وأحواز موريلا ، على مقربة من طرطوشة .

★★★

(706) مأساة إسلامية في بَرْبَشْتُر :

غزا بربشتر على غِرّة ، وقلة عدد من أهلها وعُدَّةٍ ، أهلُ غاليش والروذمانون بقيادة رئيس يسمى أَلْبِيْطُش أو البطش ، وكان في عسكره نحو أربعين ألف فارس ، فحاصرها أربعين يومًا حتى افتتحها ، وذلك سنة 456 هـ ، فقتلوا عامة رجالها ، وسَبوا من ذراري المسلمين ونسائهم ما لا يُحصى كثرة ، ويُذكر أنَّهم اختاروا من أبكار جواري المسلمين وأهل الحُسْن مُنهن خمسة آلاف جارية ، فأهدوهُن إلى صاحب القسطنطينية ، وأصابوا فيها من الأموال والأمتعة ما يعجز عن وَصْفِه .

(707) ممالك الأندلس تتحرك لهذه المأساة التي حدثت في بَرْبَشْتر :

تداعت ممالك الأندلس نتيجة الاستيلاء على هذه المدينة ، فجمع أحمد بن سليمان ابن هود صاحب سَرَقُسْطة وجهاتها أهل الثغور ، ونهد إليها في جمع كثيف ، ذوى جِدٍّ وجَدٍّ ، ففتحها الله عَزَّوَجَلَّ على يديه عُنْوة ، فَقَتل المقاتِلَة وسَبَى النساء والذُّرِّيَّة ، ودخل منها سَرْقسطة نحو خمسة آلاف سبية مختارة ، وألف فرس ، وألف درع ، وأموال كثيرة ، وثياب جليلة ، وعُدّة وسلاح ؛ ولذلك تسمى بالمقتدر بالله .

★★★

(708) المؤتمن شبيه أبيه حتى في اهتمامه بالعلوم والمعارف :

لم تكن شهرة المؤتمن في الأمور العسكرية فقط ، بل في الكفاءة العلمية والفكرية أيضًا ، فكان عالمًا بالرياضيات والفلك ، وله فيها تآليف ؛ **مثل** : (رسالة الاستكمال والمناظر) ، وقد ترجمت في القرن الثاني عشر إلى اللاتينية ، ووصفت بأنها ترتفع من حيث قيمتها العلمية إلى مستوى إقليدس والمجيسطى ، كما كان محبًا لمجالسة العلماء والشعراء .

★★★

(709) المستعين الأصغر خلفًا للمؤتمن :

توفي المؤتمن بعد مدة حكم دامت أربعة أعوام ؛ إذ توفي (478 هـ = 1085 م) ، وهي السنة التي استولى فيها النصارى على طليطلة من يد القادر بالله بن ذي النون ، وخلفه في الحكم ابنه أحمد المستعين ، الذي يُعرف بالمستعين الأصغر ، فكان أول ما واجهه هو صد غارات النصارى ؛ وخاصة ألفونسو الذي كان يسعى للاستيلاء على سرقسطة ، فسلك كل السُّبل في دفعه عنها فلم تنفع معه المحاولات .

★★★

(710) المرابطون يرحمون أهل سرقسطة من حصار ألفونسو :

طرق المستعين الأصغر كل الأبواب من أجل دفع ألفونسو عن المدينة ، وعرض

عليه المال الكثير ، ولكن النصارى رفضوا حيث كانت المدينة هدفهم ، واستمرّ الحصار القشتالي على سرقسطة دون فائدة ، ثم جاء النبأ العظيم بقدوم المرابطين لإنقاذ الأندلس (749 هـ) فأسرع ألفونسو بالموافقة على قبول الجزية ، فأجابه المستعين ، رغم أن ألفونسو كان متيقنًا بأن المستعين لن يدفع إليه درهمًا واحدًا .

★★★

(711) المستعين وحلم الآباء في الاستيلاء على بلنسية :

بعد أن انتصر المرابطون على النصارى في الزَّلاّقة (479 هـ) ، استغل المستعين الفرصة للانقضاض على بلنسية ، ولكن محاولاته كلها كُللت بالفشل ؛ لأنه اعتمد على النصارى المرتزقة بزعامة القمبيطور الذي شاء الله أن تئول بلنسية إلى أملاكه ، بعد أن حاصرها بجنوده ونصب عليها المجانيق ، حتى أكل المسلمون الكلاب والجيف والفئران ، بل وأكل الناس من مات من إخوانهم المسلمين ، وسقطت في يد القمبيطور (488 هـ) ، ولم تزل في يد النصارى حتى استردها المرابطون (495 هـ) .

★★★

(712) المستعين بين خطرين قد يقضيان على أحلامه :

وقد وقع المستعين بين خطرين قد يقضيان على أحلامه ، بل وملكه وحياته إذا أساء التّصرف معهما ؛ **أما الأول** فهو : الخطر القادم من الشمال حيث النصارى ؛ **وأما الثاني فهو** : الخطر القادم من الجنوب حيث المرابطون الذي يهدفون إلى وحدة واحدة تجمع الأندلس كلها ، وظل يتأرجح بين القوتين حتى قُتل في معركة بلتيرة أو فلتيرا أمام ألفونسو المحارب ملك أرجوان في رجب (503 هـ = 1110 م) .

★★★

(713) نهاية حكم بني هود إثر تولّي عماد الدين الحكم :

وبعد أن مات المستعين خلفه ابنه عبد الملك الملقب بعماد الدولة ، وقد بايعه أهل سرقسطة شريطة ألا يتحالف مع النصارى ، ولكن الأمور سارت عكس رغبة الشعب ، فراسل المرابطين بعد أن أفتى الفقهاء بذلك ، فدخلها المرابطون (503 هـ) ، وانتهى

بذلك حكم بني هود ، إلى أن تداعت الأمور وسقطت المدينة في يد النصارى في رمضان (512 هـ = 1112 م) .

★★★

(714) دور سرقسطة في التبادل التجاري والمهني بين المشرق والمغرب :

كان لسرقسطة دور بارز في ترويج رُوح التبادل التجاري والمهني بين المشرق والمغرب ؛ فقد كانت بسيطرتها على البحر المتوسط وثغريها الكبيرين طرَّكُونة وطرطوشة ، تستقبل شطرًا كبيرًا من تجارة المشرق وتجارة الأندلس والمغرب وتعمل على تصريفها إلى الأمم الأوروبية ، عن طريق ثغور فرنسا وإيطاليا ، وكان بنو هود يجنون من وراء ذلك كله أرباحًا طائلة ، كان لها أعظم الأثر في صد غارات النصارى ، من خلال دفع الإتاوات الوفيرة لملوك النصارى اتقاء لعداوتهم وشرورهم .

★★★

(715) الطُّرطُوشيُّ أشهر العلماء في بلاط سرقسطة :

نبغ في بلاط سرقسطة علماء أجلاء ، منهم أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد خلف ابن سليمان بن أيوب الفهري الطرطوشي الأندلسي الفقيه المالكي ، وكان يعرف في وقته بـ (ابن أبي رَنْدَقَة) ، كان زهده وعبادته أكثر من علمه ، إمامًا عالمًا عاملاً ، زاهدًا ورعًا ، متواضعًا ، متقشفًا ، وأشهر مؤلفاته هو كتاب : (سراج الملوك) تناول فيه سياسة الملك وتدبير أمور الرعية ، و(مختصر تفسير الثعالبي) ، و(شرح لرسالة الشيخ أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي) ، و(كتاب الفتن) .

عاش تسعة وستين عامًا (451 هـ - 520 هـ = 1059 م - 1126 م) .

★★★

(716) طوائف أخرى في بلاد الأندلس أقل شهرةً :

الطوائف التي ذكرت هي الأقوى في ذلك الوقت ، ولم تكن هذه الطوائف فقط هي التي شكلت حلقة التاريخ الأندلسي في ذلك الوقت الذي لا يتجاوز القرن الواحد ، بل

كانت هناك الكثير من الطوائف لا تعدو أن تكون أسرًا ليس لها أطماع توسّعية ، ولم يكن لها شأن كبير في سير الأحداث .

علماء آخرون برزوا في فترة ملوك الطوائف

(717) ابن سيده صاحب المخصص :

هو العالم اللغوي الكبير **أبو الحسن ابن سيده** ، كان إمامًا في اللغة وآدابها ، وُلد بمُرْسية ، وانتقل إلى دانية ، وانقطع لمجاهد العامري ، وله كتابه الشهير (المخصص) ، و(المحكم والمحيط الأعظم) .

★★★

(718) مجاهد العامري فتى أمراء دهره :

هو صاحب دانية والجزائر ، كان من علماء عصره ، عارفًا بالأدب وعلوم القرآن ، **قالوا عنه** : « فتى أمراء دهره ، وأديب ملوك عصره » .

الممالك النصرانية بين القوة والضعف

(719) الممالك النصرانية تمر بذات أطوار الأندلس الإسلامية :

مرت الممالك النصرانية الإسبانية في الشمال خلال القرن الخامس عشر بذات الأطوار التي مرّت بها الأندلس الإسلامية في الجنوب ، فمرة في طور القوة والنشاط ، ومرة في طور التفرق والنزاع ، ولا ندري أيًا من الطرفين أخذ بُسنَّة الآخر .

★★★

(720) الممالك النصرانية بين التنازع والفرقة :

انقسمت المملكة النصرانية في الشمال إلى مملكة نافار أو نبرّة ؛ وهي كبرى الممالك النصرانية وكان يحكمها سانشو الكبير ، ومملكة ليون وكان يحكمها برمودو الثاني ،

ومملكة قشتالة وكان يحكمها سانشو غرسيه ، وشبّ التنازع والفرقة بين هذه الممالك تمامًا كما حدث مع ملوك الطوائف ، الكل يتحين الفرصة للانقضاض على ملك الآخر .

★★★

(721) التنازع والقتل من أجل المملكة :

قصد غرسيه بن سانشو ملك قشتالة مملكة ليون ؛ ليتم عقد زواجه من أخت ملكها برمودو الثالث ، فقتل غِيلة هناك في الكنيسة أثناء مراسم الحفل وأصبحت قشتالة بلا ملك ولا أمير (1028 م) ، وكان لهذا الحدث أثره الكبير في تغيير الخريطة السياسية في الممالك النصرانية ، فأغار ملك نافار على قشتالة وأصبحت نافار وقشتالة مملكة واحدة تحت إمرة سانشو الكبير .

★★★

(722) توحُّد ممالك إسبانيا على يد سانشو الكبير :

بعد أن أصبحت قشتالة ونافار في يد سانشو الكبير ، نظر بعينه إلى ليون ؛ إذ بها تتوحد الممالك النصرانية في يده ، ويصبح هو الملك الأوحد للنصارى ، فهاجمها وافتتحها لنفسه ، ففر برمودو الثالث ليرقب الفرصة من بعيد ، وقد حاول مرارًا وتكرارًا حتى لقي مصرعه ، وبذا توحدت الممالك كلها في يد سانشو الكبير .

★★★

(723) سانشو يكرر نفس أخطاء ملوك الطوائف :

كان سانشو قبيل وفاته قد قسّم مملكته بين أولاده الأربعة ؛ فجعل قشتالة وليون وجليقيّة من نصيب ابنه فرناندو ، وخصّ ابنه الأكبر غرسيه بنافار ، وجعل لابنه راميرو ما تسمي بمملكة أرغوان ، واقتطع لابنه كونزالو منطقة صغيرة هي ولايتا سوبرابي ورباجورسيا ، هذا فضلًا عن إمارة برشلونة ، وكان هذا التقسيم إيذانًا بعودة الفرقة والتناحر بين الإخوة الأشقاء بعد وفاة سانشو الكبير .

★★★

(724) الحرب الأهلية بين الأشقاء بسبب الطمع :

اندلعت الحرب الضروس بين الأشقاء بسبب الأطماع ، واستعان كل من الإخوة بالغيلة والخيانة والخديعة ، فلم يقنع كل أخ بما لديه وطمع في ما عند أخيه لدرجة إضمار الغيلة والقتل ، كما فعل فرناندو مع أخيه غرسيه وكما تحالف كل أخ بالمسلمين مع الأعداء ليمتلك ما تحت يد أخيه .

★ ★ ★

(725) كل أخ يرى نفسه الأحق بملك أخيه ، وماذا كانت النتيجة ؟

كان غرسيه ملك نافار يرى أنه أحق بقشتالة من أخيه فرناندو ؛ فهو أكبر إخوته سنًا ، فتملكت الغيرة قلبه من أخيه الأصغر فرناندو ، فدبّر له حيلة ومكيدة يكون فيها مقتل فرناندو ؛ إذ دعاه لزيارته قبل موته ، وفطن فرناندو لذلك عن طريق عيونه فعاد مسرعًا وقلبه يمتلئ حقدًا على أخيه ، فما كان منه إلا أن أرسل لأخيه يدعوه إلى زيارته في قشتالة ، ولم يدرك غرسيه حقيقة الأمر فسار إليه وهو مطمئن ، فقبض عليه فرناندو واعتقله ، ولكنه استطاع الفرار وهو يضمر لأخيه الانتقام ، فكان لابد من الحرب .

★ ★ ★

(726) راميرو يطمع في نصيب غرسيه ومملكة نافار :

لم يقنع راميرو بنصيبه من مملكة أبيه ، طمع في نصيب أخيه غرسيه ؛ أي : مملكة نافار نفسها ، ولم تكن قوته وقواته كفيلتين بتحقيق ذلك ، فعقد حلفًا مع جاره المسلم ابن هود صاحب سرقسطة على أن يمدّه بجنوده من عنده ، ثم زحف راميرو في قواته المتحدة إلى نافار ومعه حلفاؤه من المسلمين ، وضرب حصاره على قلعة تافالا ، واستعدّ غرسيه وانقضّ بقواته على جيش راميرو ومَنْ معه ، وقُتل عددٌ كبير من المسلمين المشاركين في المعركة ، وذلك في (1042 م) .

★ ★ ★

(727) غرسيه يستعين بالمقتدر بن هود في مواجهة فرناندو :

بعد حادث اعتقال غرسيه من قبل أخيه فرناندو ، وهروب غرسيه ، جمع حشوده

مستعينًا في ذلك بحليفه المقتدر بن هود صاحب سرقسطة ، كما جمع فرناندو حشوده من قشتالة وليون ، واشتبك الفريقان عند سهل أتابوركا وكانت معركة دامية انقلب فيها الأمر على غرسيه ورجاله وقتل بضربة قاسية ، فانهار جيشه ولاذ بالفرار فتتبعه فرناندو وأعمل السيف في جيش المسلمين ، ومزّقوا شرّ ممزق ما بين أسير وقتيل ، واختار فرناندو سانشو بن غرسيه ليكون خلفًا لأبيه في حكم نافار .



(728) فرناندو واتحاد ممالك إسبانيا الصليبية :

وحّد فرناندو ممالك إسبانيا النصرانية ؛ إذ أضحت قشتالة وليون ونافار وجليقيَّة وأرجوان تحت قبضة رجل واحد هو فرناندو بن سانشو الكبير ، فتغير ميزان القوة السياسية والعسكرية في شبه الجزيرة الإيبيرية بشقيها الإسلامي والنصراني ، وكانت هذه القوة بداية لما يسمى بحرب الاسترداد الصليبية ضد الممالك الأندلسية المسلمة .



(729) سياسة الاسترداد الصليبي لها أكثر من جهة :

تمركزت سياسة الاسترداد التي تزعمها فرناندو الأول (فرذلند ملك الجلالقة) ملك قشتالة على أكثر من جهة ، وكان يهدف إلى إضعاف قوة ملوك الطوائف وإخضاعهم لسلطانه وسيطرته ؛ إما بالسيطرة الفعلية على أراضيهم ، أو بإجبارهم على دفع الجزية والإتاوات .



(730) ذكاء فرناندو في التعامل مع الممالك الإسلامية القوية :

لم يولِ فرناندو نظره وقوّته إلا للممالك الأقوى بين ملوك الطوائف ، وكانت هذه الممالك هي : طُليطلة ، وإشبيلية ، وسَرَقسطة ، وبطليوس ، فبعد أن وحّد الجبهة الصليبية وجّه قوته إلى بني الأفطس أصحاب بطليوس لإخضاعهم فهاجمها وعاث فيها فسادًا وتخريبًا في مدينتي بازو ولاميجو ، ثم قام بعملية تصفية وتطهير عرقي ضد مسلمي المدينتين الإسلاميتين ؛ إذ طرد المسلمين منها ، واستوطنها بالنصارى .

(731) بنو الأفطس يؤدون الجزية لفرناندو عن بطليوس :

بعد سيطرة فرناندو على كثير من المدن ، طلب من المظفر بن الأفطس دفع الجزية والإتاوة ، إلا أن المظفر رفض دفع الجزية فسيّر فرناندو جيوشه إلى شنترين فسبقة الأفطس إليها ، وعلم أنه لا قِبل له بجيش النصارى فعرض عليهم الصلح والهدنة ، وانتهت المفاوضات على أن يدفع ابن الأفطس الجزية السنوية ومقدارها خمسة آلاف دينار .

★★★

(732) فرناندو ومملكة طُلَيْطلة :

قنع فرناندو بما حدث من بني الأفطس ، فوجه وجهته ناحية طليطلة ، فكان يبعث سراياه تعيث في الأرض فسادًا ، وفي (454 هـ = 1062 م) هاجم فرناندو حدود مملكة طليطلة ، فأغار على مدينة سالم ، ووادي الحجارة ، وقلعة النهر (هنارس) ، وعاث فيها فسادًا وتخريبًا ، فهرع المأمون وجمع أطنانًا من الذهب والفضة ، وقدّم له الهدايا اعترافًا بطاعته ، وتعهّد بدفع الجزية له .

★★★

(733) فرناندو ومملكة إشبيلية :

بعد ولاء المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة ، خرج فرناندو بقوات كثيفة سنة (455 هـ = 1063 م) ، وأغار على مملكة إشبيلية ، وأحرق قراها وخرّب أراضيها ، فلم يجد المعتضد بن عباد بُدًّا من أن يحتذى حذو المأمون فهرع إلى تقديم الهدايا ، وأعلن الولاء ، وعرض الصلح والمهادنة والسلم فقبل منه .

★★★

(734) فرناندو ومملكة بني هود (سرقسطة) :

لم يَعُد أمام فرناندو إلا سرقسطة وإخضاع مملكة بني هود في دفع الجزية والإتاوات المفروضة عليهم ، فتوجه بقواته صوب بلنسية (457 هـ = 1065 م) ، فاخترق حدود

سرقسطة الجنوبية ، وأعمل فيها القتل والتخريب ونهب الزروع والقرى ، واجتاح سائر البقاع والحصون ، وبذلك أرغم المقتدر بن هود على دفع الجزية ، ثم اتجه إلى بلنسية وفرض عليها الحصار فاستسلمت في النهاية ، ولكنه أحس بالمرض فآثر العودة إلى ليون ، ولم تمضِ أيام حتى توفيّ (457 هـ = 1065 م) .

★★★

(735) فرناندو لم يتعلم الدرس الذي ذاق ويلاته :

لم يتعلم فرناندو من درس والده الكبير سانشو ؛ إذْ عمد قبيل وفاته إلى تقسيم مملكته المتحدة على أبنائه الثلاثة وبنتيه ، فجمع الأساقفة (1064 م) ، وانتهى إلى أن خصّ سانشو بقشتالة وحقوق الجزية من مملكة سَرَقسطة ، وخصّ ألفونسو بليون وحقوق الجزية من مملكة طُليطلة ، وخصّ غرسيه بجليّقيّة والبرتغال وحقوق الجزية من مملكة إشبيلية وبطليوس ، وخصّ أوراكا بمدينة سَمّورة الحصينة ، وخصّ إِلبيرة بمدينة تورو وأماكن أخرى على نهر دويرة .

★★★

(736) اندلاع الشقاق والنزاع بين الإخوة ومعركة فيانا (1067 م) :

كان هذا التقسيم الذي أقدم عليه فرناندو سبيلاً إلى اندلاع الشقاق بين الإخوة الأشقاء ، وسبيلاً إلي الفرقة والتنازع ، فقد كانت مملكة نافار تحت يد سانشو بن غرسيه ، وكانت مملكة إرجوان تحت يد سانشو بن راميرو ، فطمع سانشو بن فرناندو في ضم المملكتين فتحالفا ضدّ ابن فرناندو ، واستطاعا أن يصدّاه عن مملكتيهما في معركة فيانا (1067 م) ، وبعد عام هاجم سانشو بن فرناندو ملك مملكة قشتالة أراضي ليون ، وحاول أخوه ألفونسو ردّه ، ولكنه هُزم وتنازل لسانشو عن بعض ممتلكاته عام (1068 م) .

★★★

(737) جِلّيقِيّة :

الجلاَلِقة من ولد يافث بن نوح عليه السلام وهو الأصغر من ولد نوح ، وبلد الجليقيين

سهلٌ ، والغالب على أرضهم الرَّمل ، وأكثر أقواتهم الدُّخْنُ والذُّرة ، ومُعَوّلهم في الأشربة على شراب التّفاح ، وأهلها أهل غَذْرٍ ودناءة أخلاق ، لا يتنظفون ولا يغتسلون في العام إلا مرة واحدة أو مرتين بالماء البارد ، ويزعمون أن الوضوء الذي يتفصد من عرقهم به تتنعّم أجسامهم ، وتصلح أبدانهم ، وثيابهم أضيق الثياب ، وفيهم بأس شديد ، لا يرون الفرار عند اللقاء ، بل يرون الموت دونه .

★★★

(738) سانشو يستعيد (ليون) ويعتقل أخاه ألفونسو :

أعاد سانشو الكرّة (1071 م) على ليون ليستعيدها ، وهُزم في بادئ الأمر ، ولكنه استطاع بحيلة القمبيطور (ردر يجوياث) أن ينتصر على ألفونسو ، واعتقله وسجنه ، ولكنه خرج من معتقله بوساطة أخته أوراكا ، ثم دبّرت مكيدة بعد ذلك في هروبه فلجأ إلى طُليطلة في رعاية المأمون بن ذي النون ، فاستقبله استقبالاً حافلاً .

★★★

(739) ألفونسو يقضي منفاه في عمل وجهد في جنبات طليلطة :

قضى ألفونسو تسعة أشهر في منفاه معززًا مكرّمًا ، وعاش في كنف المأمون أحسن عيشة ، ويبدو أن لم يقضِ منفاه في لهو ولعب ، وإنما كان يتنقل بين جنبات طليطلة يختلط بالسكان ويتريض في المدينة الحصينة ، ويفكر في أي الأماكن وبأي نوع من أدوات الحرب يمكن اقتحامها .

★★★

(740) سانشو يطمع في ملك بقية الإخوة بعد نفي ألفونسو :

لم يقنع سانشو بما تحقق من أهداف ؛ إذ طمع في ملك جِلِّيقيَّة والبرتغال ، وقد تم له ذلك ، وفرّ أخوه غرسيه هاربًا ليكون في حمى المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية (1071 م) ، وبعدها ولّى وجهته تجاه مُلك أُختيه في مدينتي سَمُّورة وتورو ، واستطاع الاستيلاء على تورو حيث لم تصمد أخته إلبيرة أمامه .

★★★

(741) حصار سانشو لمدينة سَمُّورَة وقلب الموازين :

وجّه سانشو جيشه إلى الخطوة الأخيرة وهي سَمُّورة ، فصمدت أمامه كثيرًا ، ففرض عليها الحصار ، وفي ذات يوم وفد فارسٌ إلى معسكره وطلب مقابلته لينبّهه عن بعض أحوال المدينة المحصورة ، وما كاد الفارس يراه حتى طعنه بحربته فأرداه قتيلاً ، وانفضّ الحصار عن المدينة ، وكانت أوراكا وراء هذه الجريمة في أكتوبر (1072 م) .

★★★

(742) استدعاء ألفونسو من طُليطلة بشروط :

قتل سانشو وبقيت المملكة بلا ملك يتولى شئونها ، ولم يبق من إخوته إلا ألفونسو في طليطلة ، وغرسيه في إشبيلية ، فاجتمع الأشراف على استدعاء ألفونسو بشرط أن يُقْسم أنه لم يشترك بأي حال في تدبير مقتل أخيه سانشو ، فأرسلت أخته أوراكا تستدعيه وتُعلمه بالأمر .

★★★

(743) ياالخيبة المأمون لو كان يعلم ما سيُفعل به !

لما علم ألفونسو الخبر أنبأ المأمون بن ذي النون بالنبأ ، فما كان من المأمون إلا أن أعرب عن سروره وغبطته ، ووعده بمساعدته بالمال والخيل ، ولم يطلب سوى صداقته ، وأن يعده أن يساعده ضد إخوانه من المسلمين ، فقطع ألفونسو عهده ، وودّعه المأمون في موكب عظيم إلى حدود مملكته ، فياللخيبة والخسارة !

★★★

(744) ألفونسو ينفرد بالمملكة الصليبية المترامية الأطراف :

لم يكن المأمون يعلم ما سيُفعل به ، وأن مملكته ستسقط على يد حليفه ألفونسو ، فقد غدا ألفونسو ملكًا على عرش ليون وقشتالة ، وعادت المملكة الصليبية وحدة واحدة ، بعد أن دبّر مكيدة بإيعاز من أختهما أوراكا ، حيث دعاه للتفاهم فلما أتى قبض عليه ، وزجّ به في السجن إلى أن توفي (1090 م) ، وخلص عرش المملكة لألفونسو بلا منازع .

(745) الصراع بين المسلمين والنصارى يتسم بالدينية في عهد ألفونسو :

كان ألفونسو السادس ملك ليون أقوى ملك نصراني صليبي ، وقد اتسم الصراع بينه وبين المسلمين بالدينية ، وكان ذلك بتأييد من البابوية الكنسية ؛ لذلك اتّسم الصراع بالحماسة الشديدة من أجل تحقيق أهداف الكنيسة في القضاء على الإسلام والمسلمين في الأندلس .

★ ★ ★

(746) ملوك الطوائف يدفعون الجزية للنصارى :

إن أصعب شيء على النفس أن تسمع أن ملوك الطوائف في هذه الفترة كانوا يدفعون الجزية للنصارى ، فكانوا يدفعون الجزية لألفونسو السادس ، وهم في ذلة ومهانة ؛ حرصًا على أماكنهم وبقائهم على الحكم في بلادهم ، ورضا ألفونسو السادس عنهم .

★ ★ ★

(747) سياسة ألفونسو في إسقاط ملوك الطوائف :

كانت سياسة ألفونسو السادس ، التي استعان بها في إنجاح خطته وسيطرته على ممالك الطوائف ، تقوم على شقّين ؛ **هما** : إرهاقهم بالغارات المتواصلة ، وإرهاقهم بالجزية والإتاوات ، فضعفت ملوك الطوائف عسكريًا واقتصاديًا .

★ ★ ★

(748) نور العزّة والإباء ورفض الجزية يلوح من ابن الأفطس :

أرهق ألفونسو جميع الممالك بالغارات والجزية إلا أن ابن الأفطس لم يذعن ، فقد فقد أرسل ألفونسو السادس إليه رسالة شديدة اللهجة يطلب فيها منه أن يدفع الجزية ، كما كان يدفعها إخوانه في الممالك الإسلامية المجاورة .

★ ★ ★

(749) ردّ المتوكل بن الأفطس على ألفونسو السادس :

« وصل إلينا من عظيم الروم كتاب مُدَّعٍ في المقادير ،وأحكام العزيز القدير ، يرعد

ويبرق ، ويهدّد بجنوده الوافرة ، ولو علم أن لله جنودًا أعزّ بهم ملة الإسلام وأظهر بهم دين نبينا محمد ﷺ ، وأما نحن ؛ وإن قلّت أعدادنا ، وعُدِم من المخلوقين استمدادنا ، فما بيننا وبينك البحر نخوضه ، ولا صعب نروضه إلا سيوفًا تشهد بحدّتها رقاب قومك ، وجلادًا تبصره في نهارك وليلك . . . وفي الله العوض مما هددّت به ، وفرج يبتر مما به هددت ، ويقطع بك فيما أعددت » .

★★★

(750) رد فعل ألفونسو السادس بعد هذه الرسالة الشديدة :

كان ردّ فعل ألفونسو السادس أن وجم ولم يفكر ، ولم يستطع أن يُرسل له جيشًا ؛ فقد غزا كل بلاد المسلمين في الأندلس خلا بطليوس ، ولم يتجرأ على أن يغزوها ، فقد علم أنه لا يستطيع أن ينازلهم ، فأعزّ الله الإسلام ورفع من شأن المتوكل بن الأفطس ومن معه من الجنود القليلين الذين رفعوا لواء الجهاد .

★★★

(751) هل ثبت الأفطس على موقفه أم غيّرته شهوة الملك ؟

الأفطس صاحب هذه الرسالة الشهيرة ، وصاحب هذا العلم وذاك الفضل ، وصاحب المواقف المشرفة والمقدم على رفض دفع الجزية للنصارى ، ختم حياته أسوأ وأخزى ما يكون الختام ؛ إذ لما أتى الله بالفرج وتوحدت الممالك الإسلامية أخذته شهوة الملك فتحالف مع ألفونسو السادس في نهاية المطاف ، وكانت خاتمته القتل جزّاء خيانته .

★★★

(752) ألفونسو ذو الملتين يستهين بملوك الطوائف :

بعد أن استطاع ألفونسو أن يستولي على طليطلة (487 هـ = 1085 م) ، تسمى بـ (ذي الملتين) ، فأرسل رسالة إلى المعتمد بن عباد يطلب منه الجزية بسبب تأخره وبالغ في طلباته ؛ إذ طلب أن تلد امرأته جنينها في مسجد قرطبة ، وأن تسكن في

الزهراء بحجة أن الأطباء أشاروا عليه بنقاء الهواء في الزهراء ، كما أن القساوسة أشاروا عليه بذلك ، وكان رسوله وزيرًا يهوديًا ، الذي قام بدوره بالرد على المعتمد بن عباد ردًا مهينًا أمام مجلسه ووزرائه إزاء رفض الطلبات .

★★★

(753) النخوة الإسلامية وعوالق الفطرة السوية في المعتمد بن عباد :

كعادة النفوس السوية والغيرة الإسلامية والنخوة الدينية ، التي قد بقي بها شيء من عوالق الفطرة السوية ، أخذت الغيرة المعتمد بن عباد ، فقام بضرب اليهودي وقطع رأسه وصلبه بقرطبة ، واعتقل بقية وفد ألفونسو السادس .

★★★

(754) ردّ فعل ألفونسو السادس وحصار إشبيلية (478 هـ) :

جُن جنون ألفونسو وجمع جيشه وفرض حصارًا على إشبيلية (478 هـ = 1085 م) ، بعد أن خرّب قراها وعاث في أرض شذونة فسادًا ، وأرسل برسالة شديدة اللهجة للمعتمد بن عباد ، **يقول فيها** : « من الإمبراطور ذي الملتين إلى المعتمد ؛ الحَذِر من أيقظ باله قبل الوقوع في الحبالة ، ولولا عهد سلف بيننا لنهض بنا ناهض العزم ورائده ، ووصل رسول الغزو ورائده ، لكن الإنذار يقطع الأعذار » .

★★★

(755) المعتمد بن عباد يجمع أكابر القوم للمشاورة :

لما قدم رسول ألفونسو جمع المعتمد أكابر القوم ووزراءه وفقهاءه ، فلما قرأ الكتاب بكى فقيه الأندلس أبو عبد الله بن عبد البر ، **وقال** : قد أُبصرنا ببصائر أنّ مآل هذه الأموال إلى هذا ، وأنّ مسالمة اللعين قوّة لبلاده ، فلو تضافرنا لم نصبح في التّلاف تحت ذل الخلاف ، وما بقي إلا الرجوع إلى الجهاد .

★★★

(756) رسالة شعرية من المعتمد على ظهر رسالة ألفونسو :

أخذ المعتمد بن عباد رسالة ألفونسو وكتب عليها :

الــذُّلُّ تَــأْبَــاه الــكِــرَامُ ودِيــنُنَا لــك مــا تَــدِيــنُ بــه مــن الــبَــأْسَــاءِ

سُــمْــنَــاكَ سِــلْــمًــا مَــا أَرَدْتَ وَبَــعْــدَ ذَا نَــغْــزُوكَ فِي الإِصْــبَــاحِ والإِمْــسَــاءِ

الــلــهُ أَعْــلــىٰ مِــنْ صَــلِــيــبِــكَ فــادَّرِعْ لِــكَــتِــيــبَــةٍ خَــطَــبَــتْــكَ في الــهــيْــجَــاءِ

سَــوْدَاءَ غَــابَــتْ شَــمْــسُــهَــا في غَــيْــمِــهــا فَــجَــرَتْ مَــدَامِــعُــهــا بِــفَــيْــضِ دِمَــاءِ

مَــا بَــيْــنَــنَــا إلا الــنِّــزَالُ وَفِــتْــنَــةٌ قَــدَحَــتْ زِنَــادَ الــصَّــبْــرِ في الــغَــمَّــاءِ

فَــلَــنَــقْــدُمَــنَّ إذا لَــقَــيْــتَ أَسِــنَّــةً زُرْقًــا تُــرَىٰ بِــالْــوَجْــنَــةِ الْــوَجْــنَــاءِ

★ ★ ★

(757) رسالة نثرية نارية إلى الطاغية الباغية ألفونسو :

ثم **قال** : من الملك المنصور بفضل الله المعتمد على الله إلى الطاغية الباغية أذفونس الذي لقب نفسه بملك الملوك ، وتسمى بذي الملتين ، سلام على مَنْ اتّبع الهدى ، كيف لا تستحي أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك ، وإنّا لنعجب من استعجالك وإعجابك بصنع وافقك فيه القدر ، ومتى كان لأسلافك الأخدمين مع أسلافنا الأكرمين يدٌ صاعدة ، أو وقفة مساعدة ، فاستعدّ بحرب . . . . فالحمد لله الذي جعل عقوبة توبيخك وتقريعك بما الموت دونه ، والله ينصر دينه ولو كره الكافرون ، وبه نستعين عليك » .

★ ★ ★

(758) رسالة أخرى من ألفونسو فيها من القبح ما فيها :

أرسل ألفونسو السادس رسالة أخرى فيها كبرياء وغرور وغطرسة ، بعد أن طال أمد الحصار لإشبيلية حيث قام المعتمد بتحصينها ، فأرسل ألفونسو رسالة لبث الهزيمة النفسية في قلوب المسلمين والفتّ في عضدهم مؤداها : « كَثُر بطول مجلسي الذِّبّان (جع ذُباب) ، واشتدّ عليّ الحرّ فأتحفني من قصرك بمروحة أُرَوِّح بها عن نفسي ،

وأطرد بها الذباب عنّي » ؛ يريد أن يخبره أن أكثر ما يضايقه في هذا الحصار هو الذباب أو البعوض ، أمّا أنت وجيشك وأمتك وحصونك فهي أهون عندي منه .

★ ★ ★

(759) ردّ القوي لا يزيد على السطر الواحد ، وعود على بَدْء :

وبنخوة أخرى قلب المعتمد الرسالة ، وكتب على ظهرها ردًا لا يتعدى السطر الواحد : « قرأت كتابك ، وفهمت خيلاءك وإعجابك ، وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللّمطيّة « نسبة إلى رجال أشداء من قبيلة لمطة » في أيدي الجيوش المرابطية ، تُريح منك لا تروح عليك إن شاء الله » ، فما إن قرأ ألفونسو الرسالة حتى تملكه الخوف والرعب والفزع ، وأخذ جيشه ، ورجع من حيث أتى .

★ ★ ★

(760) رَعْي الجمال خير من رعي الخنازير :

أيقن المعتمد فداحة جرمه وخطأه في دفع الجزية للنصارى ، وإغارته على ممالك المسلمين ، وقد أيقن أنه لا قبل له بألفونسو إلا بالمرابطين ، وقد استنكر عليه بعضهم ، **وقالوا** : « الملك عقيم ، والسيفان لا يجتمعان في غمد » ، **فأجابهم ابن عباد** : « رعي الجمال خير من رعي الخنازير » .

★ ★ ★

(761) المعتمد بن عباد بين الشك واليقين :

قال المعتمد بن عباد لُعذّاله ولوّامه : يا قوم ، إني من امرئ على حالتين : حالة يقين ، وحالة شكّ ، ولابُدّ لي من إحداهما ، أما حالة الشكّ فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى الأذفونس ، ففي الممكن أن يفي لي ويبقى على وفائه ، ويمكن أن لا يفعل ، فهذه حالة شك ، وأما حالة اليقين فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فأنا أرضي الله ، وإن استندت إلى الأذفونش أسخطت الله تعالى ، فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة ، فلأى شيء أدعُ ما يُرضي الله وآتى ما يُسخطه ؟ فحينئذ قصر أصحابه عن لومه .

الفصل السادس

عصر المرابطين

(762) قبيلة جُدَالة وأصل المرابطين :

هي قبيلة تنطق (جُدَالة) مثل الكاف الفارسية أو الجيم القاهرية ، وهي قبيلة كبيرة من صنهاجة ، كانت تعيش في جهل تام بتعاليم الإسلام ، كانوا يغيرون على بعضهم البعض ، ولا يعرفون عن الإسلام إلا الشهادتين ، يتزوجون ما يشاءون من النساء بلا عدد ، ولا يعرفون من الإسلام صلاة ولا زكاة ولا شرائع .

★★★

(763) يحيى بن إبراهيم الجدالي يحمل همّ أهله وقبيلته :

مع ابتعاد هذه القبيلة في أعماق الصحراء ، ومع الجهل الذي يعيشون فيه ، كانوا يجتمعون على ملك فإذا مات خلفه آخر من أبنائه أو أحفاده ، حتى وصل الأمر إلى يحيى ابن إبراهيم الجدالي الذي صار رئيسًا للصهانجة ، وأراد أن يحج « أي يطلب العلم في ذلك الزمان » فاستخلف ابنه إبراهيم وسار إلى الشرق ، وفي طريق عودته ذهب إلى القيروان فالتقى بشيخ المالكية في بلاد الشمال الإفريقي (يحيى بن إبراهيم أبي عمران الفاسي) فسمع منه وأسمعه عن أحوال بلاده ، وطلب منه إرسال بعض تلاميذه معه ؛ لأن فيهم أقوامًا يرغبون في تعلّم العلم ، والتفقّه في الدين ، لو وجدوا إلى ذلك سبيلاً ، فاختبره الفقيه حتى تأكد من حقيقة كلامه .

★★★

(764) الفاسي يرسل أحد طلابه إلى صنهاجة :

عرض الفاسي الأمر على طلابه فأبوا ، فأرسل الحبرالي إلى أحد فقهاء المغرب ويُدْعى وجاج بن ذلو اللمطي ، وكان من طلابه ، وكان قد تفقّه وجلس للتدريس ، فرحل إليه يحيى الجدالي ، فأرسل معه الفقيه وجاج واحدًا من ألمع وأذكى تلاميذه وهو عبد الله بن ياسين .

(765) مَنْ هو عبد الله بن ياسين ؟

هو عالم قوي النفس ذو رأي وتدبير ، وشخصية كبيرة له علم وبصر بالأمور ، وله قدرة على حسن التصرف ، ومن حُذّاق الطلبة الأذكياء النبهاء النبلاء ، ومن أهل الدين والفضل ، قبل القيام بهذه المهمة الكبيرة التي أحجم عنها أقرانه من تلاميذ الفقيه وجاج ، وفضّل أن يُغَوِّر في الصحراء ، وهو بحقّ الزعيم الأول للمرابطين ، وجامع شملهم .

★★★

(766) مهمة قاسية يقوم بها عبد الله بن ياسين :

اتجه عبد الله بن ياسين صوب الصحراء حيث قبيلة جُدَالة ، فَهَالَهُ أمر الناس في ارتكاب المنكرات عيانًا ، فبدأ يعلِّم الناس في أناة ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، فثار عليه زعماء القوم وأصحاب المصالح ، وبدأ الناس يجادلونه ويصدونه عما يفعل ، ولم يستطع يحيى بن إبراهيم الجدالي زعيم القبيلة أن يحميه .

★★★

(767) الشيخ عبد الله بن ياسين يزداد صلابة رغم المحن والتهديدات :

رغم المضايقات والتهديد بالضرب أحيانًا ، وبالقتل أخرى ، وبالطرد وقد نفَّذوه فعلًا ، لم يقنط الشيخ وازداد صلابة بعدما طردوه فعلًا فتعمَّق في الصحراء ناحية الجنوب بعيدًا في أعماق القارة الإفريقية ، حتى وصل إلى جزيرة يُرجَّح أنها تقع في منحنى نهر (النيجر) على مقربة من مدينة تنبكتو ، فمن هنا بدأ أمر المرابطين ؛ حيث كان عدد أتباعه لا يتجاوز السبعة ، أحدهم الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي الذي ترك قومه ومكانته ونزل مع الفقيه .

★★★

(768) سبعة رجال يصبحون ألفًا في أربع سنوات :

بعد أن كان العدد سبعة نفر ، إذا بهم يصبحون خمسين نفسًا ثم المائة فالمائتين ،

وهنا قسمهم الشيخ عبد الله بن ياسين إلى مجموعات صغيرة ، وعلى رأس كل مجموعة رجل من النابغين ، وفي زمن لم يتعدَّ أربع سنوات يتخرج من تحت يديه ألف رجل على أفضل ما يكون من فهم الإسلام فهم الواقع .

★★★

(769) إلى الجهاد .. فقد أبلغناهم وأنذرناهم :

لمَّا تفقّه أصحاب عبد الله بن ياسين وكثر عددهم ، قام فيهم خطيبًا فوعظهم وشوّقهم إلى الجنة ، وخوّفهم من النار ، ثم دعاهم إلى جهاد مَنْ خالفهم من قبائل صنهاجة ، **فقالوا له** : أيها الشيخ المبارك ؛ مُرْنا بما شئت تجدنا سامعين مطيعين ، ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا ، **فقال لهم** : اخرجوا على بركة الله ، وأنذروا قومكم ، وخوّفوهم عقاب الله ؛ فإن أبوا جاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ، فجمعهم الشيخ عبد الله سبعة أيام وهم على عنادهم ، **فقال لهم** : قد أبلغنا الحجة وأنذرنا ، وقد وجب علينا الآن جهادهم ، فاغزوهم على بركة الله تعالى .

★★★

(770) المرابطون أم الملثمون ؟

المرابطون : هم أولئك المجاهدون الذين كانوا يتخذون خيامًا على الثغور ليحموا ثغور الإسلام ، ويجاهدوا في سبيل الله ، وقد كانت بعض المصادر تطلق عليهم اسم (الملثمين) ؛ **فيقال** : أمير الملثمين ، ودولة الملثمين ؛ لأنهم كانوا يتلثمون ولا يكشفون وجوههم ، وكانت سنةً يتوارثونها سلفًا عن خلف ، **وقيل** : إنهم تلثموا في زي النساء ؛ ليثأروا ممن يخرجون عليهم خفية ، فلزموا اللثام تبركًا بما حصل لهم من الظفر بالعدو .

★★★

(771) الزعامة تنتقل من جدالة إلى لمتونة :

استشهد يحيى بن إبراهيم الجدالي إثر غزوة شارك فيها ، فعرض الشيخ عبد الله بن ياسين الزعامة على جوهر الجدالي فزهد فيها ، فاتخذ قرارًا حكيمًا بعيد النظر حقًّا ،

ألا وهو إسناد الزعامة إلى يحيى بن عمر اللمتوني أحد أبناء أكبر قبيلة في هذه المنطقة من المغرب الأقصى هي قبيلة (لمتونة) .

★★★

(772) يحيى بن عمر اللمتوني والمرابطون :

هو أحد السبعة الذين انعزلوا مع الشيخ ابن ياسين في الرباط ، بعد أن أُخرج من أراضي جدالة في أول الأمر ، وقد كان هو وأخوه أبو بكر فقط من قبيلة لمتونة ومن زعمائها ، لكنهما تركا الزعامة لما آمنا به من دعوة الشيخ عبد الله بن ياسين ، وفي سنة (445 هـ = 1053 م) ازداد نطاق الجهاد المرابطي الذي تساقطت أمامه الإمارات والقبائل الصغيرة والمتناثرة ، واتسعت دولة المرابطين ودخل في سلطانها الآلاف من الناس ، وبعد قليل من دخول قبيلة لمتونة في جماعة المرابطين يستشهد يحيى بن عمر (447 هـ = 1055 م) .

★★★

(773) نهاية المؤسس الكبير الشيخ ابن ياسين :

بعد استشهاد الشيخ يحيى بن عمر ، تولى الزعامة أخوه أبو بكر بحماسة شديدة ، فقوي أمر المرابطين وازدادت أعدادهم ، وفي هذه الأثناء تنتهي قصة الاسم الخالد والمؤسس الكبير الشيخ عبد الله بن ياسين باستشهاده في حرب (برغواطة) في سنة (451 هـ = 1059 م) ، بعد أن أمضى أحد عشر عامًا في تربية الرجال على الجهاد .

★★★

(774) ظهور دولة المرابطين رسميًّا في زعامة أبي بكر اللمتوني :

تولى الشيخ أبو بكر بن عمر الزعامة بعد أخيه يحيى ، وقد جمع الشيخ عمر بين الزعامتين الدينية والسياسية ، وفي سنتين من زعامته ظهر في التاريخ نجم المرابطين ، في شمال السنغال وجنوب موريتانيا .

★★★

(775) فتنة تكاد تعصف بالمرابطين وذكاء أبي بكر بن عمر :

وفي سنة (453 هـ = 1061 م) بعد سنتين من تولّي الشيخ أبي بكر بن عمر نشب خلاف بين جدالة ولمتونة ، وقال بعض المؤرخين : بين مسوفة ولمتونة ، فتوجّه أبو بكر بقسم من المرابطين إلى الفتنة ليحلّ الخلاف تاركًا زعامة المرابطين لابن عمّه يوسف بن تاشفين .

★★★

(776) أبو بكر بن عمر أعظم قادة المرابطين ... لماذا ؟

بعد أن حلّ أبو بكر الخلاف ، وأطفأ نار الفتنة ، توجّه إلى المناطق الجنوبية للمغرب العربي ؛ ليدعو أهل هذه المناطق إلى الإسلام ، حيث وجد هذه القبائل وثنية لا تعبد الله بل تعبد الأشجار والأصنام ، فأقبل ومعه سبعة آلاف يعلّم هؤلاء الناس ويعرّفهم دين الله الواحد ، وبصبر شديد دخل معه عدد كبير وقاومه عدد أكبر ، ولكنه ظل خمسة عشر عامًا ينتقل بين القبائل ، فنشر الإسلام في الصحاري القاحلة وحدود السنغال والنيجر .

★★★

(777) يوسف بن تاشفين رجل المهام الصعبة :

هو رجل - كما قال الذهبي - كثير العفو ، مُقرِّبٌ للعلماء ، وكان أسمر اللون نحيفًا ، خفيف اللحية ، دقيق الصوت ، سائسًا ، حازمًا .

وهو رجل - كما قال ابن الأثير - حليمٌ ، كريمٌ ، دَيِّن ، خَيِّرٌ ، يُحب أهل العلم والدين ، ويبالغ في إكرام العلماء ، وكان إذا وعظه أحد العلماء خشع عند استماع الموعظة ، وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام (400 هـ - 500 هـ) .

★★★

(778) أمور عجيبة من أحوال البربر في المغرب الأقصى :

كانت قبيلة (غمارة) إحدى قبائل البربر ، قد ظهر فيها رجل يُدعى حاميم بن عبد الله

قد ادّعى النبوة ، ولم ينكر نبوة محمد ﷺ **بل قال إنه** : نبي على دين الإسلام ، وأخذ يشرّع للناس ؛ فجعل للناس صلاتين فقط : **إحداهما** في الشروق **والأخرى** في الغروب ، وبدأ يؤلف لهم قرآنًا بالبربرية ، ووضع عنهم الوضوء ، ووضع عنهم الطهر من الجنابة ، ووضع عنهم فريضة الحج ، وحرّم عليهم أكل بيض الطيور ، وأحلّ لهم أكل لحم أنثى الخنزير ، وحرّم أكل السمك حتى يذبح ، والعجيب أن الناس قد تبعوه على هذا الأمر ، ويعتقدون أن هذا هو الدين ، وقد أرسل عبد الرحمن الناصر له من قتله (315 هـ) ، وقد عاد أتباعه إلى الإسلام بعد ذلك .

★★★

(779) رجل من المسلمين يدعي النبوة في قبيلة برغواطة :

في قبيلة برغواطة ، وهي إحدى قبائل البربر ، ظهر رجل يُدْعى صالح بن طريف بن شمعون أيام الخليفة هشام بن عبد الملك ، وقد ادّعى النبوة ، وفرض على الناس خمس صلوات في الصباح وخمسًا في المساء ، وفرض عليهم وضوء المسلمين نفسه ، بالإضافة إلى غسل السُّرة وغسل الخاصرتين ، كما حرّم عليهم الزواج من بنات أعمامهم ، وجوّز لهم الزواج بأكثر من أربعة ، والغريب في ذلك أنه كان يَدَّعي أنه من المسلمين .

★★★

(780) يوسف بن تاشفين وصناعة دولة المرابطين :

جهز يوسف بن تاشفين جيشًا قوامه أربعون ألفًا ، وانطلق به إلى الشمال وحارب كل القبائل بما فيهم القبائل السّنية (زناتة) ؛ لأنها قد تفشّى فيها الظلم ، وبمرور الأيام بدأ الناس يتعلّمون منه الإسلام ، ويدخلون في جماعته المجاهدة .

★★★

(781) الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني يعود من أدغال إفريقيا فيجد دولة (المرابطين) :

رجع اللمتوني في سنة (468 هـ) ، بعد أن قضى خمسة عشر عامًا من الدعوة في

جنوب السنغال وأدغال إفريقيا ، فوجد ابن تاشفين أميرًا على السنغال بكاملها ، وموريتانيا بكاملها ، والمغرب بكاملها ، والجزائر بكاملها ، وتونس بكاملها ، وعلى جيش يصل إلى مائة ألف فارس غير الرَّجالة ، يرفعون راية واحدة ، ويحملون اسم (المرابطين) .

★★★

(782) « أنت أحق بالحكم منّي ؛ فأنت الأمير » :

وجد اللمتوني رجلاً قد أسس دولة لم تُعرف في المنطقة منذ سنوات ، زاهدًا متقشفًا ورعًا تقيًا ، عالمًا بدينه ، طائعًا لربه ، **فقال ليوسف بن تاشفين** : « أنت أحق بالحكم مني ؛ أنت الأمير ، فإذا كنتُ قد استخلفتُك لأجل حتى أعود ، فإنك تستحق الآن أن تكون أميرًا على هذه البلاد ، أنت تستطيع أن تجمع الناس ، وتستطيع أن تملك البلاد وتنشر الإسلام أكثر من ذلك ، أما أنا فقد ذقت حلاوة دخول الناس في الإسلام ، فسأعود مرة أخرى إلى أدغال إفريقيا أدعو إلى الله هناك » .

★★★

(783) اللمتوني يُدخل أكثر من خمس عشرة دولة في الإسلام :

عاد الشيخ أبو بكر اللمتوني مرة أخرى إلى أدغال إفريقيا يدعو إلى الله على بصيرة ، فأدخل الإسلام في غينيا بيساو جنوب السنغال ، وفي سيراليون ، وفي ساحل العاج ، وفي مالي ، وفي بوركينا فاسو ، وفي النيجر ، وفي غانا ، وفي راهومي ، وفي توجو ، وفي نيجيريا ، وفي الكاميرون ، وفي إفريقيا الوسطى ، وفي الجابون ، كل هذه البلاد قد دخلها الإسلام على يد هذا المجاهد البطل الشيخ اللمتوني .

★★★

(784) رجلٌ إذا دعا للجهاد قام له خمسمائة ألف مقاتل :

إنه الشيخ **أبو بكر بن عمر اللمتوني** ، الذي إذا دعا إلى الجهاد في سبيل الله قام له خمسمائة ألف مقاتل ؛ أي نصف مليون من المقاتلين الأشداء ، غير مَنْ لا يقومون من النساء والأطفال ، وغير بقية الشعوب في هذه البلاد من أعداد لا تحصى قد هداها الله

على يديه ، فكلما صلّى رجل صلاة في النيجر أو غيرها ، وكلما فعلوا الخير أضيف إلى حسنات هذا الشيخ المجاهد ومن معه - رحمهم الله - ، وقد استشهد في أحد فتوحاته في سنة (480 هـ = 1087 م) .

★ ★ ★

(785) أمير المسلمين وليس أمير المؤمنين :

إنه **يوسف بن تاشفين** أمير المسلمين ، وناصر الدين الذي أصبح زعيم هذه الدولة العظيمة ، **وحين سُئل** : لماذا لا تُسمّي نفسك بأمير المؤمنين ؟ **أجاب** : « حاشا لله أن نَتسمّى بهذا الاسم ، إنما يتسمى به خلفاء بني العباس ؛ لكونهم من تلك السلالة الكريمة ؛ لأنهم ملوك الحرمين : مكة والمدينة ، وأنا رجلهم ، والقائم بدعوتهم » .

★ ★ ★

(786) فكرة الاستعانة بالمرابطين منبعها العلماء والمشايخ :

إن فكرة الاستعانة بالمرابطين كانت فكرة شعبية أندلسية ، خرجت أول ما خرجت من العلماء والمشايخ ، وتلقاها العامة بالقبول والتأييد ، ثم صارت مطلبًا عامًا ، ونداء متكررًا يجد الدعم الشعبي ، وقد بدأت قبل سقوط طليطلة بأعوام .

★ ★ ★

(787) رسائل متنوعة تصل إلى ابن تاشفين تطالب بالمساعدة :

وصلت رسائل إلى ابن تاشفين ، **منها** : رسالة من القاضي عبد الله بن محمد بن أدهم رسول المعتمد بن عباد ، وصحبه أبو بكر ابن القصيرة ، ورسالة من حركة المشايخ والفقهاء في (474 هـ) وفدوا إلى ابن تاشفين يشكون إليه ما حلّ بهم من أعدائهم ، كما كتب إليه المتوكل على الله ابن الأفطس صاحب بطليوس يستصرخه .

★ ★ ★

(788) صعوبات أمام ابن تاشفين لدخول الأندلس :

كانت لدى ابن تاشفين صعوبتان : **الأولى** : أنه لم يسيطر على سبتة ، وهو الميناء

المهم الذي يُعَدّ منفذًا لدخول الأندلس ، **والثانية** : أنه ما كان يمكنه العبور إلى الأندلس من دون النزول في أراضي غرناطة أو إشبيلية ، فهي أقرب المناطق إلى المغرب ، فكان في أشد الحاجة إلى رسالة ابن عباد لكي يستطيع النزول بأمان ولا يعتبر محاربًا مهاجمًا لأراضي إشبيلية أو غرناطة .

★★★

(789) الناس يستبشرون خيرًا بقرار المعتمد بن عباد :

انتشر في الأندلس الرد الذي كتبه المعتمد بن عباد إلى ألفونسو ، والذي يهدده فيه بالجيوش المرابطية ، وما أظهر من العزيمة على ابن تاشفين ، والاستظهار به على العدو ، فاستبشر الناس ، وفرحوا بذلك ، وفتحت لهم أبواب الآمال .

★★★

(790) ملوك الطوائف مهمومون بما عزم عليه ابن عبّاد :

أما ملوك الطوائف في الأندلس ، فلمّا تحققوا من عزم المعتمد بن عباد وانفراده برأيه في ذلك أصابهم الهمّ والغم ، ومنهم من كاتبه ، ومنهم من كلّمه ، يحذرونه من عاقبة ذلك .

★★★

(791) المُلك عقيم ، والسيفان لا يجتمعان في غمدٍ واحدٍ :

راسل ملوك الأندلس ابن عباد من الاستظهار بابن تاشفين على عدّوه ابن فرذلانْد ، **وقالوا له** : الملك عقيم ، والسيفان لا يجتمعان في غمد واحدٍ ! **فأجابهم ابن عبّاد بكلمته السائرة** : « رَعْي الجمال خير من رعي الخنازير » ؛ **أي** : إن كوني مأكولاً لابن تاشفين أسيرًا ، أرعى جماله في الصحراء ، خيرٌ لي من أن أكون أسيرًا أرعى خنازير فزلاند في قشتالة .

★★★

(792) الحواضر الإسلامية الضخمة متفقة على الاستعانة بالمرابطين :

كان ممن وافق ابن عباد على رأيه المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس ، وكذلك عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، **فأصبحت** : (غرناطة ، وإشبيلية ، وبطليوس) الحواضر الإسلامية الضخمة متفقة على الاستعانة بالمرابطين .

★★★

(793) سفارة من قضاة المدن الثلاث لإبرام العقود السلطانية :

وفور موافقة الأمراء الثلاثة ، جعلوا منهم سفارة كانت مكونة من قضاة المدن الثلاث : قاضي الجماعة بقرطبة أبو بكر بن أدهم ، وقاضي غرناطة أبو جعفر القليعي ، وقاضي بطليوس أبو إسحاق بن مُقَانا ، ثم أضاف المعتمد إليهم وزيره أبا بكر بن زيدون ، وأسند إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ ابن تاشفين ، وترغيبه في الجهاد ، وأسند إلى وزيره ما لابد منه في تلك السفارة من إبرام العقود السلطانية .

★★★

(794) البحر يهيج ، والأمواج ترتفع أمام جيش ابن تاشفين :

في سنة (478 هـ = 1085 م) أعدّ ابن تاشفين العُدة ، وجهّز السفن ، وبينما يعبر مضيق جبل طارق وفي وسطه يهيج البحر ، وترتفع الأمواج ، وتكاد السفن أن تغرق ، مما قد يهدد الحملة بأكملها . . .

★★★

(795) ابن تاشفين القدوة والإمام الخاشع الذليل يرفع يده إلى السماء !

وكما كان ابن تاشفين قائدًا ، فهو أيضًا كان قدوة وإمامًا ، يقف خاشعًا ذليلًا ، يرفع يده إلى السماء **قائلًا** : « اللهم إنْ كنت تعلم أن في جوازي هذا خيرًا وصلاحًا للمسلمين فسهِّل علينا جواز هذا البحر ، وإن كان غير ذلك فصعبّه عليَّ حتى لا أجوزه » ، فتسكن الريح ، ويَعْبُر هو ومَنْ مَعه ، ويستقبل استقبال الفاتحين فيسجد لله شكرًا أن مَكّنه من العبور ، وأن اختاره ليكون جنديًا من جنوده ومجاهدًا في سبيله .

(796) جيش ابن تاشفين يربو على الثلاثين ألفًا :

دخل ابن تاشفين أرض الأندلس ، فيمرّ بإشبيلية فينضم إليه المتطوعون ، ثم يجتمع بابن عباد ، ثم يمرّ بقرطبة وبطليوس ، حتى وصل الجيش إلى الزَّلاقة في شمال البلاد الإسلامية وعدده يربو على الثلاثين ألفًا من الرجال .

★ ★ ★

(797) ما هي بطحاء الزَّلّاقة ؟

هي بطحاء من إقليم بطليوس من غرب الأندلس ، وفيها كانت الوقعة الشهيرة للمسلمين ضد الطاغية زعيم الجلالقة إذفونش بن فرذلاند سنة (479 هـ) ، الذي عاهد المعتمد بن عباد ففسد العقد فكانت الحرب .

★ ★ ★

(798) استنفار عام عند النصارى استعدادًا للمسلمين :

لمّا علم ابن فَرْذِلاند بهذا الاتفاق استنفر جميع أهل بلاده وما يليها ، وما وراءها ، ورفع القسّيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم ، ونشروا أناجيلهم ، فاجتمع له من الجلالقة والإفرنجة وما يليهم ما لا يحصى عدده ، وجعل يتقصّى أخبار المسلمين ، ويرسل عيونه متوعدًا متغيظًا على ابن عباد .

★ ★ ★

(799) النصارىٰ يتجهزون بجيش يقاتلون به الجن والإنس وملائكة السماء :

برز ابن فرذلاند بالمختار من أنجاد جموعه على باب دَرْبة ، وترك بقية جموعه خلفه ، **وقال حين نظر إلى ما اختاره من جموعه** : « بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء » ، **فالمُقَلِّل يقول** : كان هؤلاء المختارون من أجناده أربعين ألف دارع ، ولابد لمن هذه صفته أن يتبعه واحد أو اثنان .

★ ★ ★

(800) فيل ابن فرذلاند في منامه :

رأى ابن فرذلاند في نومه كأنه راكبٌ على فيل ، فضرب نقيره طبل ، فهالته رؤياه ، وسأل عنها القساوسة والرهبان فلم يجد جوابًا عند أحد منهم ، ودسَّ يهوديًا إلى مَنْ يعلم تأويلها من المسلمين ، فَدُلّ على عابر فقصَّها عليه ، ونسبها إلى نفسه ، **فقال العابر** : كذبت ! ما هذه الرؤيا لك ، ولابد أن تخبرني مَنْ صاحبها ، وإلاّ لم أعبرها لك ! **فقال له** : اكتم ، ذلك هو الفنش بن فرذلاند ! **فقال العابر** : قد علمتُ أنها رؤياه ، ولا ينبغي أن تكون لغيره ، وهي تدل على بلاء عظيم ، ومصيبة فادحة ، تُؤذن بصلبه عمّا قريب ، وأمّا الفيل فقد قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل : 1] ، وأمّا ضرب الناقور ، فقد قال تعالى : ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [المدثر : 8 ، 9] ، فانصرف اليهودي إلى الفنش وجمجم له ، وذكر له ما وافق خاطره ، ولم يفسرها له .

★★★

(801) حرب إعلامية ورسالة كلها غرور من ألفونسو إلى ابن تاشفين :

أرسل ألفونسو إلى ابن تاشفين رسالة نصّها : « باسمك اللهم فاطر السموات والأرض ، وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته ، الرسول الفصيح ، **أما بعدُ** : فإنه لا يخفى على ذي ذهنٍ ثاقب ، ولا ذي عقل لازب ، أنك أمير الملة الحنيفية كما أنّي أمير الملة النصرانية ، وقد علمتَ الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية ، وإخلادهم إلى الراحة ، وأنا أسومهم بحكم القهر وجلاء الديار ، وأسبي الذراري وأُمَثّل بالرجال ، ولا عذر لك في التَّخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة ، وأنتم تزعمون أن الله - تعالى - فرض عليكم قتال عشرة منّا بواحد منكم ، فالآن خفف الله عنكم ، وعلم أن فيكم ضعفًا ، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا ، لا تستطيعون دفاعًا ، ولا تملكون امتناعًا ، وقد حُكي لي عنك أنك أخذت في الاحتفال ، وأشرفت على ربوة القتال ، وتماطل نفسك عامًا بعد عام ، تقدِّم رجلاً وتؤخِّر أخرى ، فلا أدري أكان الجُبن أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربك ؟ **ثم قيل لي** : إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلاً لعلّةٍ لا يسوغ لك التقحُّم معها ، وها أنا أقول لك ما

فيه الراحة لك ، وأعتذر لك وعنك ، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهائن ، وتُرسل إليَّ جملة من عبيدك بالمراكب والشواني والطرائد والمسطحات ، وأجوز بجملتي إليك ، وأقاتلك في أعزّ الأماكن لديك ، فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جُبلت إليك ، وهدية عظيمة مَثلت بين يديك ، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك ، واستحققت إمارة الملتين والحُكم على البرَّين ، والله تعالى يُوَفِّق للسعادة ، ويسهِّل الإرادة ، لا ربّ غيره ، ولا خير إلا خيره ، إن شاء الله تعالى » .

★★★

(802) رسالة من ابن تاشفين إلى ألفونسو السادس :

لمّا عبر ابن تاشفين إلى الأندلس ، أرسل برسالة إلى ألفونسو السادس **يقول فيها** : « بلغنا يا أذفونش أنك دعوت إلى الاجتماع بنا ، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر بها البحر إلينا ، فقد عبرنا إليك ، وقد جمع الله تعالى في هذه الساحة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك ﴿ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [الرعد : 14] » وخيَّره يوسف بن تاشفين بين الإسلام والجزية والحرب .

★★★

(803) ألفونسو يستشيط غضبًا من رسالة ابن تاشفين :

تسلم ألفونسو السادس الرسالة ، وما إن قرأها حتى استشاط غضبًا ، وجاش بحر غيظه ، وزاد في طغيانه وكفره ، **وقال** : أبمثل هذه المخاطبة يخاطبني وأنا وأبي نغرم الجزية لأهل ملّته منذ ثمانين سنة ؟! ثم أرسل رسالة لابن تاشفين متوعدًا مهددًا : فإني اخترت الحرب ، فما ردُّك على ذلك ؟

★★★

(804) ابن تاشفين يقلب الرسالة ويردّ عليها :

قلب ابن تاشفين الرسالة وكتب عليها : الجواب ما تراه بعينيك لا ما تسمعه بأذنك ، والسلام على مَن اتّبع الهدىٰ ، فلما وقف ألفونسو على هذا الجواب ارتاع له ، وعلم أنه بُلي برجل لا طاقة له به .

(805) رسالة ماكرة خادعة من ألفونسو كاد ينخدع لها ابن تاشفين :

وفي محاولة ماكرة خادعة ، أرسل ألفونسو السادس رسالة يحدِّد فيها يوم المعركة **فقال** : « إنّ غدًا الجمعة ، ولا نحبُّ مقاتلتكم فيه ؛ لأنه عيدكم ، وبعده السبت يوم عيد اليهود ، وهم كثيرون في محلّتنا ، ونحن نفتقر إليهم ، وبعده الأحد عيدنا ، فلنحترم هذه الأعياد ، ويكون اللقاء يوم الإثنين » ، تسلّم ابن تاشفين الرسالة ، وكاد ينخدع بها لأنه كان يعتقد أن الملوك لا تغدر ، ولقد كانت هذه أولى جولاته مع النصارى ، إلا أنّ المعتمد بن عباد فهم الخديعة ونبّه يوسف إلى ما قد يكون فيها من الغدر .

★★★

(806) لحظات تتلقاها قلوب المؤمنين باشتياق :

إنها لحظة لم يتذوقها الأندلسيون منذ سنوات ، حين يستعدون لحرب النصارى من بعد سنوات الذل والهزيمة والجزية ، هي لحظة الشهادة ، لحظة العزّة والكرامة ، لحظة تتلقاها قلوب المؤمنين باشتياق إلى الجنة .

★★★

(807) ابن تاشفين وسورة الأنفال :

أمر ابن تاشفين بقراءة سورة الأنفال ، وحثّ الخطباء على تحفيز الناس على الجهاد ، ومرّ بنفسه على الفصائل ينادي ويقول : « طوبى لمن أحرز الشهادة ، ومَنْ بقي فله الأجر والغنيمة » .

★★★

(808) « إنكم مَنْصُورون ، وإنّك مُلاقينا يا بن رُمَيْلَة » :

وفي ليلة الجمعة كان ينام شيخ المالكية في قرطبة **أبو العباس أحمد ابن رُميلة القرطبي** ، فرأى رسول الله ﷺ في منامه وهو **يقول له** : « يا ابن رُميلةَ ، إنكم منصورون ، وإنك ملاقينا » .

★★★

(809) مَنْ هو ابن رُمَيْلة ؟

هو الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رُميلة ، كان معنيًا بالعلم ، وصحبة الشيوخ ، وله شعر حسن في الزهد ، كثير الصدقة ، وفعل المعروف ، ومن أهل العلم والورع والفضل والدين ، لم تكن مهمته يومها هي مجرد الجلوس في المسجد ، أو إلقاء الدروس ، أو تعليم الناس فقط ، بل كان يحث الناس على الجهاد أيضًا .

★★★

(810) الشيخ يطير فرحًا بهذه البشرى :

قام الشيخ فرحًا مسرورًا ، لا يستطيع أن يملك نفسه ، فقد بشّره رسول الله ﷺ ، وسيموت في سبيل الله ، **فالحسنيان أمام عينيه** : نصر للمؤمنين ، وشهادة تناله ، فيا لها من فرحة ويا له من أجر :

★★★

(811) ابن رُمَيْلَة يوقظ قادة المسلمين في جنح الليل :

وعلى الفور وبلا مقدمات ، أسرع الشيخ في ظلام الليل يوقظ القادة وعلى رأسهم ابن عباد ، وقصّ عليهم الرؤيا التي هزّت ابن عبّاد فأرسل بخبرها إلى ابن تاشفين وكل قادة الجيش ، ومن شدة فرحهم أيقظوا الجيش كله في منتصف الليل على صوت واحد : رأى ابن رُميلة رسول الله ﷺ **يقول له** : « إنكم منصورون ، وإنك ملاقينا » .

★★★

(812) مع المخابرات والجواسيس الخبر اليقين عن صاحب الفيل :

كان المعتمد يراقب معسكر المرابطين خوفًا عليهم لأنهم ليسوا من أهل البلاد ، فكان كثير التجوال ، حتى جاءه في الليل فارسان يخبران أنهما سمعا ضوضاء الجيوش واضطراب الأسلحة في محلة ألفونسو ، ثم تلاحقت بقية الطلائع محققين بتحرك ألفونسو ، ثم جاءت الجواسيس مؤكدين بصحة الخبر .

★★★

(813) ألفونسو يبدأ بموقد هذه الحروب (ابن عباد) :

قال ابن فرذلاند لأصحابه : « ابن عباد مسعر هذه الحروب ، وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ وذوي بصائر في الجهاد ، غير عارفين بهذه البلاد ، وإنما قادهم ابن عباد ، فاقصدوه واهجموا عليه ، وإن انكشف لكم هان عليكم هؤلاء الصحراويون بعده ، ولا أرى ابن عباد يصبر لكم إن صدقتموه الحملة » .

★★★

(814) ابن عباد يخبر ابن تاشفين بالأنباء التي وردت إليه :

لمّا تيقن ابن عباد بصحّة الأخبار الواردة إليه ، وبتجهُّز ألفونسو له ، بعث كاتبه أبا بكر بن القصيرة إلى يوسف بن تاشفين يُعَرّفه بإقبال ألفونسو ويستحث نصرته ، فمضى ابن القصيرة يطوي الأرض طيًا حتى جاء يوسف بن تاشفين فعرّفه جلية الأمر .

★★★

(815) ابن تاشفين رجل يقرأ التاريخ ويعرف رجالاته :

استخدم في ملاقاة جيش النصارى خطة خالد بن الوليد ﵁ في معركة الولجة في فتوح فارس ، وخطة النعمان بن مقرن ﵀ في معركة نهاوند في فتوح فارس ؛ **ألا وهي** : أن يتأخر بجزء كبير من جيشه بحيث لا يُرى ، حتى تحتدم المعركة فتنهك قوى الطرفين حتى لا يستطيعا القتال ، كما يحدث في سباق الماراثون ، فيقوم هو ويتدخّل بجيشه ليعدل الكِفَّة لصالح صفّ المسلمين .

★★★

(816) الجيش الإسلامي يتحرك في ثلاث فرق رئيسة :

بعد ترتيب الجيش وصلاة فجر يوم الجمعة 12 من شهر رجب (479 هـ = 23 من أكتوبر 1086 م) نقض ألفونسو العهد ، وبدأ بالهجوم ، فخرج الجيش بثلاث فرق رئيسة .

★★★

(817) الفرقة الأولى : على رأسها المعتمد بن عباد :

وتضم هذه الفرقة الأندلسيين ، وعلى رأسهم المعتمد بن عباد ومعه ملوك الأندلس : ابن صمادح صاحب ألمريَّة ، وعبد الله بن بلقين ابن حبوس صاحب غرناطة ، وابن مسلمة صاحب الثغر الأعلى ، وابن ذي النون ، وابن الأفطس . . . وغيرهم ، وقد أمرهم يوسف أن يكونوا مع المعتمد ، وكان المعتمد في القلب ، والمتوكل بن الأفطس في ميمنتها ، وأهل شرق الأندلس في ميسرتها ، وسائر أهل الأندلس الآخرين في مؤخرة هذه الفرقة ، وقد اختار المعتمد بن عباد أن يكون في المقدمة وأول من يصادم الجيش الصليبي .

★★★

(818) الفرقة الثانية : فرقة جيش المرابطين :

وفي الفرقة الثانية ، وخلف الجيش الأندلسي وعلى مقربة منه ؛ فرقة جيش المرابطين ، وعلى رأسهم البطل المرابطي الكبير داود ابن عائشة .

★★★

(819) الفرقة الثالثة : جيش المرابطين بقيادة البطل المغوار ابن تاشفين :

وفي هذه الفرقة جيش المرابطين الرئيس بقيادة يوسف بن تاشفين ، يختفي خلف أحد التلال على مسافة من الجيش ، بحيث لا يُرى هذا الجيش ، فيُظن أن كل جيش المسلمين هو الفرقتان الأوليان : جيش الأندلسيين وجيش المرابطين .

★★★

(820) ألفونسو وجيش ابن عباد وثبات منقطع النظير :

هجم ألفونسو بجيشه الضخم على الجيش الأول (الأندلسي) ، وأحاط به من كل جانب فاستحر القتل فيهم ، وصبر ابن عباد وجيشه صبرًا لم يعهد مثله لأحد ، واستبطأ يوسف وهو يلاحظ طريقه ، وعضّته الحرب ، واشتدّ البلاء ، وأُثْخن ابن عباد جراحات ، وضُرِب على رأسه ضربة فلقتْ هامته حتى وصلت إلى صدغه ، وجُرحت

يمنى يديه ، وطُعن في أحد جانبيه ، وعُقرتْ تحته ثلاثة أفراس ، كلما هلك واحد قُدِّم له آخر ، وهو يقاسي حياض الموت يضرب يمينًا وشمالاً .

★★★

(821) القسم الأول من جيش المرابطين ودوره في المعركة :

انضم القسم الأول من جيش المرابطين وقائده داود ابن عائشة ، وكان قائدًا شهمًا فنفَّس بمجيئه عن ابن عباد ، وكان ألفونسو قد قسَّم هو الآخر جيشه إلى قسمين ، فانهال بالقسم الآخر على جيش المرابطين ، الذي يقوده داود ابن عائشة بأعداد ضخمة ، فاقتتلوا اقتتالاً عظيمًا ، وصبر المرابطون صبرًا جميلاً ، وداسهم اللعين بكثرة جنوده حتى كاد يستأصلهم .

★★★

(822) تحرك جيش المغوار ابن تاشفين وحصار النصارى :

وهنا بدأ تحرك الجيش المرابطي الرئيس الذي يقوده ابن تاشفين ، وذلك بعد أن كانت قد أنهكت قوى الطرفين من المسلمين والنصارى ، وبعد طول صبر نزل وهو في كامل قوته فحاصر الجيش النصراني ؛ **حيث قسّم جيشه إلى قسمين** : قسم قاده سير ابن أبي بكر يساعد جيش ابن عباد وداود ، والقسم الثاني يقوده ابن تاشفين بنفسه يلتفّ خلف جيش النصارى ويقصد مباشرة إلى معسكراتهم فيحرقها ويقتل كل من فيها .

★★★

(823) أثر الحصار على النصارى :

وحين علم النصارى أن المسلمين من ورائهم ، وأنهم محاصرون ، ارتاعت قلوبهم ، وتجلجلت أفئدتهم ، ورأوا النار تشتعل في محلتهم ، وأتاهم الصريخ بهلاك أموالهم وأخبيتهم ، فدارت حرب ضروس وطُحنت الرءوس ، فأمدّ الله المسلمين بنصره ، وقذف الرعب في قلوب المشركين .

★★★

(824) مهمة خاصة لحرس ابن تاشفين في المعمعة :

ازدادت شراسة المعركة ، ومن بعيد يشير يوسف بن تاشفين إلى أربعة آلاف فارس من رجال السودان المهرة ، وهم حرسه الخاص ، فيترجلون عن خيولهم ؛ ليقتحموا قلب جيش النصارى وينفذون إلى ملكهم ؛ وبالفعل استطاع أحدهم أن يصل إلى ملك قشتالة ، وأن يطعنه بخنجره في فخذه طعنة نافذة ، **وهنا قال أذفنش** : « التحق بي غلام أسود فضربني بمنجل أراق دمي » ، وبقي أثر الطعنة مع ألفونسو بقية عمره ، فكان يعرج منها .

★★★

(825) أربعون ألفًا من النصارى لا ينجو منهم سوى الثلاثين رجلًا :

بعد هذه المعركة الشرسة لجأ ألفونسو إلى تل يحتمي به ، كان قريبًا من معسكره ومعه نحو الخمسمائة فارس كلهم مكلوم ، وأباد القتل والأسر مَنْ عداهم من أصحابهم . . . ولما جاء الليل تسلل وهو لا يلوي على شيء ، وأصحابه يتساقطون في الطريق واحدًا بعد واحد من أثر جراحهم ، فلم يدخل طليطلة إلا في دون المائة ، وبعض الروايات تقول بأن الذين نجوا أقل من الثلاثين .

★★★

(826) الكلبُ إذا أُرهِق لابد أن يَعضّ :

كان رأي المعتمد بن عباد أن يواصل الجيش مطاردته لألفونسو المنسحب حتى يقضي عليه نهائيًا ، ولكن لابن تاشفين رأيًا آخر ، إذ رأى أن الضغط عليهم وإرهاقهم يجعلهم يستبسلون في القتال ، فيقاتلون قتال مَنْ لا يرى حياته إلا بموت خصمه ، وفي هذا ضرر على المسلمين ، فردّ ابن عباد عليه **قائلًا** : « إن فرّ أمامنا لقيه أصحابنا المنهزمون فلا يعجزون عنه » ، إلا أن ابن تاشفين أصرّ على الامتناع ، **وقال** : « الكلب إذا أرهق لابُدّ أن يَعضّ » .

★★★

(827) التاريخ يؤكد صواب رأي ابن عباد :

وبعد قراءة التاريخ تأكد صواب رأي ابن عباد ؛ فلقد استمر ألفونسو يقاتل المسلمين بعدها عشرين سنة ولم يضعف ولم يتوانَ ، ويُتوقع أن لو كان قُضي عليه في يوم الزلاقة لكنّا نكتب الآن تاريخًا آخر .

★★★

(828) عودة ابن تاشفين إلى المغرب :

وما إن تنتهي أحداث الزلاقة حتى يصل إلى يوسف بن تاشفين نبأ مفزع من بلاده بالمغرب ، إنه يحمل مصيبة قد حَلَّت به وبداره ، فابنه الأكبر قد مات ، فيعجل هذا برجوع ابن تاشفين إلى المغرب .

★★★

(829) صورة مُشرقة ومُشَرِّفة من الإخلاص والتجرّد :

بعد هذه المعركة جمع المسلمون من الغنائم الكثير ، لكن يوسف بن تاشفين في صورة مشرقة ومشرِّفة من صور الإخلاص والتجرّد ، وفي درس عملي بليغ لأهل الأندلس عامة ولأمرائهم خاصّة ، يترك كل هذه الغنائم لأهل الأندلس ، ويرجع في زهد عجيب وورع صادق إلى بلاد المغرب ، ولسان حاله يقول : ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان : 9] .

★★★

(830) المقصد هو الجهاد والأجر العظيم لا الغنائم :

أقامت العساكر بالموضع أربعة أيام ؛ حتى جمعت الغنائم ، واستؤذن في ذلك السلطان يوسف ، فعفَّ عنها ، وآثر بها ملوك الأندلس ، وعرّفهم أن مقصده الجهاد والأجر العظيم ، وما عند الله في ذلك من الثواب المقيم ، فلما رأت ملوك الأندلس إيثار يوسف لهم بالغنائم استكرموه وأحبُّوه وشكروا له ذلك .

وفي نهاية المطاف ، نذكر أن يوم الزلاقة قد استشهد فيه جماعة من الفضلاء

والعلماء وأعيان الناس ؛ **مثل** : ابن رُميلة صاحب الرؤية المذكورة ، وقاضي مراكش أبي مروان عبد الملك المصمودي . . . وغيرهما .

★★★

(831) المعتمد بن عباد وشرف الجهاد :

ولما دخل ابن عباد إشبيلية جلس للناس ، وهُنِّئ بالفتح ، وقَرَأت القرّاء ، وقامت على رأسه الشعراء فأنشدوه ، يقول عبد الجليل بن وهبون ؛ حضرت ذلك اليوم ، وأعددتُ قصيدة أنشده إياها ، **فقرأ القارئ** : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة : 40] ، **فقلت** : بُعْدًا لي ولشعري ، والله أبقت لي هذه الآية معنى أحضره وأقوم به .

★★★

(832) ملوك الطوائف يسالمون ابن عباد ويُشْتَهَر ذكره :

وطار ذكر ابن عباد بهذه الوقعة وشهر مجده ، ومالت إليه القلوب ، وسالمته ملوك الطوائف ، وخاطبوه جميعًا بالتهنئة ، ولم يزل ملحوظًا معظمًا إلى أن كان من أمره مع يوسف ما كان .

★★★

(833) عودة ابن تاشفين للمرة الثانية للأندلس :

لم يستطع ملوك الطوائف صد عبث النصارى في بلاد الإسلام ، بل سقطت في أيديهم بلنسية ؛ فاستغاث الناس بابن تاشفين ، وكذلك فعل المعتمد بن عباد ؛ فكان العبور الثاني ، فهزموا النصارى ونصروا الأندلسيين في أكثر من موقعة وذلك سنة (481 هـ = 1088 م) .

★★★

(834) حقائق تظهر جليًا لابن تاشفين :

في أثناء حصار حصن لبيط في سنة (481 هـ) ، رأى ابن تاشفين خداع أمراء الأندلس وشهد تمردهم ونفاقهم ، وجنوحهم إلى ممالأة النصارى ، حيث تخلّف بعض

رؤساء الشرق عن معاونته ، **وقالوا** : إن طاعته ليست بواجبة ؛ لأنه ليس إمامًا شرعيًا من قريش ، وأبشع من ذلك وأشنع أن رسالة قد وقعت في يد يوسف وُجِّهت من بعض ملوك الطوائف إلى العدو ، يُشَجِّعه على المقاومة والصمود ، **وكان جواب يوسف لأولئك الزعماء المتمردين أنه** : « خادم أمير المؤمنين المستظهر ، وأن الخطبة تجري باسمه على أكثر من ألفي منبر ، وتُضْرَب السكة باسمه » .

★★★

(835) الجواز الثالث لابن تاشفين واعتزام لحل المشكلة :

عاد ابن تاشفين بسبب اختلافات ملوك الطوائف ، وتحالف بعضهم مع عدوِّ الإسلام ، وكان الجواز الثالث لوضع حدٍّ لمهزلة ملوك الطوائف ، لقد آن وباسم الإسلام لهذه الدويلات الضعيفة المتناحرة المتحالف بعضها مع الأعداء أن تنتهي ، ومن هنا اعتزم يوسف بن تاشفين أمره في افتتاح ممالك الطوائف ، وأخذ يستولي عليها تباعًا ، وأرسل طلبًا للخليفة ليجعل ما يفعله ذا شرعية .

★★★

(836) ابن تاشفين يبحث عن سند شرعي يبرِّر تصرفه نحو الطوائف :

أرسل ابن تاشفين إلى بغداد طلبًا للخليفة ليحصل على كتاب منه بتوليته المغرب والأندلس ، وكان يهمه - إلى جانب الحصول على المرسوم الخلافي - أن يحصل على سند شرعي يُبَرِّر تصرفه نحو أولئك الأمراء .

★★★

(837) ابن تاشفين يرسل ابن العربي وولده إلى المشرق :

أرسل ابن تاشفين الفقيه أبا محمد العربي وولده أبا بكر إلى بغداد ، وهناك لقيا الإمام أبا حامد الغزالي قطب فقهاء المشرق ، فحكى له حالة الأندلس ، فأفتى بحكم الشرع في ملوك الطوائف حسبما شرحه ابن العربي ، وحق ابن تاشفين في الحصول على المرسوم الخلافي ، كما حصل ابن العربي من العلاَّمة أبي بكر الطرطوشي ، حين

مروره على ثغر الإسكندرية في طريق العودة ، على خطاب آخر يُسدي الطرشوشي فيه النصح لابن تاشفين بأن يحكم بالحق وفقًا لكتاب الله .

★ ★ ★

(838) مرسوم خلافي لابن تاشفين يقضي بتوليته حاكمًا على المغرب والأندلس :

حصل ابن العربي على مرسوم من الخليفة المستظهر إلى عاهل المرابطين ، كما حمل رسالتين من الغزالي والطرطوشي بحق يوسف في الحصول على هذا المرسوم بولايته على ما فتحه من الأقطار بسيفه ، ولكن الفقيه ابن العربي توفي بثغر الإسكندرية في فاتحة (493 هـ) ، وعاد ابنه أبو بكر إلى الأندلس في العام نفسه .

★ ★ ★

(839) المعتمد بن عباد يحارب ابن تاشفين من جديد :

لم يكن دخول ابن تاشفين الأندلس أمرًا سهلاً ، فقد حاربه الأمراء هناك بمن فيهم المعتمد بن عباد ؛ ذلك الرجل الذي لم يجد العزّة إلا تحت راية ابن تاشفين ، واستعرت الحرب بين المرابطين وملوك الطوائف ، وانتهت بضم كل ممالك الأندلس إلى دولة المرابطين ، وهنا أصبح ابن تاشفين أميرًا على دولة تملك من شمال الأندلس وبالقرب من فرنسا وحتى وسط إفريقيا ، دولة واحدة تسمى (المرابطين) .

★ ★ ★

(840) ابن تاشفين يودّع أقوى دول العالم في ذلك الزمان :

ظل ابن تاشفين يحكم حتى (500 هـ = 1106 م) ، وكان قد بلغ من الكبر عتيًا ، وتوفى رَحِمَهُ اللهُ بعد حياة حافلة بالجهاد ، وقد وفّى تمام المائة ، منها سبع وأربعون سنة في الحكم ، وكان تمام ستين عامًا على ميلاد دولة المرابطين ، تلك الدولة التي أصبحت من أقوى دول العالم في ذلك الزمان .

★ ★ ★

(841) موقعة الزّلاقة الثانية (أُقْلِيش) :

بعد موت ابن تاشفين ، تولى ابنه علي بن يوسف بن تاشفين الحكم خلفًا لأبيه ، فأرسل تميم بن يوسف بن تاشفين على رأس جيش لقتال النصارى وذلك في (501 هـ = 1107 م) فتلاقى الجيشان ؛ جيش تميم وجيش سانشو بن ألفونسو ، فانتصر المسلمون انتصارًا ساحقًا في هذه الموقعة ، وقُتل من النصارى ثلاثة وعشرون ألفًا من بينهم سانشو بن ألفونسو ، الذي كان في الحادية عشرة من عمره ، وكان أبوه قد أرسله لإثارة حماسة الجند بعدما بلغ الثمانين ولم يعد قادرًا على قيادة الجيش بنفسه .

★ ★ ★

(842) وفاة (نور إسبانيا ودرعها) ألفونسو السادس :

حزن ألفونسو على وحيده سانشو حزنًا شديدًا ، حتى مات بعدها بعشرين يومًا ، في (ذي الحجة 501 هـ = 29 يونيه 1109 م) ، فحزن القشتاليون قاطبة لوفاته ، مات وقد أسس خلال أربعة وأربعين عامًا حكمًا قويًا مستنيرًا مجّد قشتالة إلى قرون ، وكان يلقب بـ (نور إسبانيا ودرعها) ، وبلغت قشتالة في عهده من القوة ما لم توهنه بعدها حرب أهلية ولا تقسيم .

أشهر العلماء في عهد علي بن يوسف بن تاشفين

(843) القاضي أبو بكر بن العربي (468 هـ - 543 هـ) :

هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن العربي المعافري الإشبيلي ، الأندلسي المالكي ، من أشهر شيوخه أبو حامد الغزالي ، وأبو بكر الشاشي ، وأبو زكريا التبريزي ، والطرطوشي ، وتخرج على يديه أئمة كثيرون ، **أشهرهم** : « القاضي عياض ، وأبو جعفر بن الباذش » ، **ومن مؤلفاته** : (العواصم من القواصم) ، و(أحكام القرآن وأنوار الفجر في التفسير) ، و(أئمة في ثمانين ألف ورقة) ، و(الناسخ والمنسوخ) ، و(القبس) ، و(شرح موطأ مالك بن أنس) ،

و(عارضة الأحوذي شرح صحيح الترمذي) . توفي بالعدوة ، ودُفِن بمدينة (فاس) في ربيع الآخر (543 هـ) .

★★★

(844) عياض بن موسى بن عياض القاضي (476 هـ - 544 هـ) :

هو القاضي الإمام المجتهد اليحصبي ، سبتي الدار والميلاد ، أندلسي الأصل ، ولد في شعبان (476 هـ) ، رحل إلى الأندلس فدرس بقرطُبة ومُرْسية وغيرهما ، ثم عاد إلى سبتة فكان من علمائها وهو ابن ثلاثين سنة أو أكثر بقليل ، ثم جلس للشورى ، ثم ولي القضاء ، فسار في ذلك حسن السيرة مشكور الطريقة ، ثم انتقل إلى غرناطة في أول صفر (531 هـ) ، فتولّى القضاء بها ، ثم قضاء تادلة .

من مؤلفاته : (كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى) ، و(إكمال المُعلم في شرح مُسلم) ، و(المُستنبطة على الكتب والمختلطة) ، و(ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب مالك) ، و(الإعلام بحدود قواعد الإسلام) .

★★★

(845) إفرادات القاضي عياض :

قال الفقيه محمد بن حمادة السبتي : « جلس القاضي للمناظرة وله نحو من ثمانٍ وعشرين سنة ، وولي القضاء وله خمس وثلاثون سنة ، كان هيِّنًا من غير ضعف ، صلبًا في الحقِّ . . . ولم يكن أحد بسبتة في عصره أكثر تواليف منه . . . » ، **وقال عنه ابن خلكان** : « كان إمام وقته في الحديث وعلومه ، والنحو واللغة ، وكلام العرب ، وأيامهم وأنسابهم » ، **وقال عنه أبو عبد الله محمد الأمين** : « مقام عياض مثل مقام البخاري والأئمة الأربعة » .

توفيَّ بمراكش ليلة الجمعة نصف الليلة التاسعة من جمادى الآخرة من سنة (544 هـ) ، ودفن في باب إيلان من داخل السور .

★★★

(846) قاصمة ظهر المرابطين :

صرف المرابطون جُلَّ اهتمامهم على جانب واحد من جوانب الإسلام ، ألا وهو الجهاد في بلاد الأندلس ، وتركوا أو أهملوا الجوانب الأخرى حيث إدارة الحكم والسياسة داخل البلاد ، فقد شغلوا بالأمور الخارجية عن الأمور الداخلية ، والإسلام دين متوازن ، ونظام شامل ، لا يُغَلّب جانبًا على جانب ، فأبناؤه فرسان مجاهدون ، ورهبان عابدون ، وسياسيون بارعون ، كما أنهم متعاونون على البر والتقوى والعمل الصالح .

★★★

(847) علماءُ المرابطين يطرقون أمورًا ويتركون أمورًا أخرى :

أن تكثر الذنوب في دولة المرابطين ، رغم أن راية الجهاد كانت خفاقة عالية سواء أكان ذلك في المغرب أم الأندلس ، فواقع الأمر أن العلماء هم الذين يقع على عاتقهم العبء الأكبر من هذا التدني الأخلاقي وذلك الانحدار ؛ إذ نراهم قد انشغلوا بفرعيات الأمور وأغفلوا أساسياتها ، لقد طرقوا أمورًا وتركوا أمورًا ، فقد أخذوا يؤلفون المؤلفات ، ويعقدون المناظرات ، ويقسّمون التقسيمات في أمور لا يبنى عليها كثير عمل ولا كثير جدوى ، وأغفلوا تربية الناس وإرشادهم أمور دينهم مما كثر على إثره الذنوب .



(848) خطوة غريبة نحو كتب أبي حامد الغزالي :

كفَّر كثير من العلماء ، في ذلك الوقت ، كل مَنْ ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام ، وقرر العلماء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام ، وكراهة السلف له ، وأنه بدعة في الدين ، ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي المغرب أمر علي بن يوسف بن تاشفين بإحراقها ، وتقديم الوعيد الشديد من سفك الدماء واستئصال المال إلى مَنْ وُجد عنده شيء منها ، هذا الإمام الذي يُعد حجة الإسلام ، وسيد فقهاء المشرق ، وصاحب فتوى حكم الشرع في ملوك الطوائف وتوسيع دولة المرابطين .

★★★

(849) نتائج عزلة العلماء عن المجتمع :

اتجه العلماء إلى دقائق الأمور من الفروع ، ولم يشتغلوا بهموم مجتمعهم وما يحتاجه العامة ؛ فتوسّعت الهُوَّة كثيرًا بينهم وبين مجتمعاتهم ، وحدثت بذلك عزلة خطيرة لهم في العهد الأخير للمرابطين ؛ فكانت الخمور تُباع وتشترى ، بل وتُصنع في البلاد ولا يتكلم أحد ، وكانت الضرائب الباهظة تفرض على الناس غير الزكاة وبغير حق ، ولا يتكلم من العلماء أحد ، وكان الظلم من الولاة لأفراد الشعب ولا يتكلم من العلماء أحد ، وكانت ملاهي الرقص لا تُسْتر بل تُعلن عن نفسها في سفور ، ولا يتكلم أحد ، حيث كان العلماء مشغولين بالجدل مع المرجئة والمعطلة .

★★★

(850) أزمة اقتصادية عنيفة تهزُّ المرابطين :

حدثت أزمة اقتصادية حادة في دولة المرابطين في سنة (532 هـ) ، حيث وقع السيل العظيم بطنجة ، حمل الديار والجدر ، ومات فيه خلق عظيم من الناس والدواب ، كما فتك الجراد بحقول الأندلس في سنة (526 هـ) ، وحتى (531 هـ) فاشتدت المجاعة وانتشر الوباء ، وأصاب البلاد قحط يبست على إثره الأرض وجفّ الزرع وهلكت الدواب .

★★★

(851) هزائم متعددة للمرابطين تؤذن بزوال دولتهم :

سبق وأعقب هذه الأحداث هزائم متعددة من قبل النصارى ، فكانت موقعة قُتُنْدة في سنة (514 هـ = 1120 م) حيث هزم فيها المسلمون هزيمة منكرة ، ثم هزموا أيضًا في سنة (523 هـ = 1129 م) ، وكانت هذه الهزائم بعد ثورة عنيفة قام بها أهل المغرب (512 هـ = 1118 م) .

★★★

(852) التغيير والتبديل سُنّة الله في خلقه :

كانت دولة المرابطين تتجّه بقوة نحو هاوية سحيقة وكارثة محققة ، وكان لابد أن

تتحقق سنة الله بتغيير هؤلاء واستبدال غيرهم بهم ، ففي سنة (512 هـ) قام رجل من قبائل مصمودة الأمازيغية (البربرية) يُدعى محمد بن تومرت بثورة على المرابطين ؛ إذ كان صاحب منهج في التغيير والإصلاح مختلف بالكلية عن منهج الشيخ عبد الله ابن ياسين .

أشهر شعراء المرابطين

(853) ابن خفاجة الشُّقْري الملقّب بـ (الجَنَّان) :

هو من أعلام من ظهر في ذلك العصر (450 هـ - 533 هـ) ، وصفه ابن سعيد بأنه : شاعر الأندلس في وصف الأزهار والأنهار وما أشبه ، وقد لقبه الناس بـ (الجَنّان) ؛ لكثرة ما وصف الرياض ، كان أسلوبه الخفاجي قد ظل سائدًا حتى نهاية أعصر غرناطة ، وله (روضات) سائغة بديعة ، صدرت عن طبع مالح لمّاح ، وكأنها مشاهد خيالية .



(854) ابن الزقاق البارع :

هو ابن أخت ابن خفاجة ، كان بارعًا في التصوير ، يرجع السرّ في ذلك إلى تلك الألوان الرقيقة التي يلجأ إليها ليغير من صور التشبيهات التي ملّها الناس لكثرة تواردها ، فأغرب أحسن إغراب ، وأعرب عن فهمه بحسن تخيله أنبل إعراب ، ويعتبر هو وخاله الذروة العليا للشعر القديم المجدَّد ، وليس بعدهما إلا تقليد وانحدار .

★ ★ ★

الفصل السابع

دولة الموحِّدين

(855) محمد بن تومرت .. نشأته ورحلاته المكوكية :

ولد في بيت متدين في قبيلة (مصمودة) سنة (473 هـ = 1080 م) ، وقد نسب نفسه إلى الحسن بن علي ، لكنه كان في الغالب من قبائل الأمازيغ ، ولما بلغ سبعًا وعشرين سنة ، وكان شغوفًا بالعلم ، تجوّل في بلاد العالم الإسلامي ، فسافر إلى قرطبة وتلقّى العلم هناك ، ثم سافر إلى المشرق حيث الإسكندرية ، ثم مكة فأدى فريضة الحج ، ثم رحل إلى بغداد وقضى بها عشر سنوات .

★★★

(856) محمد بن تومرت أصبح من كبار علماء المسلمين في هذه الآونة :

تلقّى العلم في بغداد على أيدي علماء بغداد جميعهم ، بما كانت تموج به من تيارات الشيعة والسنة والمعتزلة ، وكان حين عودته إلى المغرب العربي قد بلغ تسعًا وثلاثين سنة بحرًا متفجرًا من العلم ، وشهابًا واريًا من الدين ، حيث جمع علومًا كثيرة وأفكارًا جمّة من تيارات إسلامية مختلفة .

★★★

(857) شدّة في الأمر والنهي تخرجه من الإسكندرية :

في طريق عودته ، أقام فترة في الإسكندرية يُكمل فيها تعليمه ، وهناك بدأ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في شدة غاية الشدة قد تصل إلى التنفير ، فنفر منه كثير من الناس ، حتى أخرجه والي الإسكندرية مطرودًا بعدما خشي منه ، فركب في السفينة متجهًا إلى بلاد المغرب ، وظلّ في حدّته وهو على ظهر السفينة ، فمنع الخمور وأمر بقراءة القرآن .

★★★

(858) أهل السفينة يلقون ابن تومرت في عُرض البحر :

اشتد ابن تومرت على الناس على ظهر السفينة فألقوه في عُرض البحر ، وتركوه وساروا في طريقهم إلى بلاد المغرب ، وهو يسبح بإزاء السفينة نصف يوم كامل ، فلما رأوا ذلك أشفقوا عليه وأنزلوا مَنْ أخذه من البحر ، وعظم عندئذ في صدورهم ، ولم يزالوا مكرمين له إلى أن نزل في بلاد المغرب .

★★★

(859) ابن تومرت يريد تغيير المنكر جذريًّا :

نزل محمد بن تومرت تونس في بلدة تُدعى (المهدية) ، فنزل مسجدها المغلق ، فجلس في قاع شارع ينظر إلى الناس فلا يرى منكرًا إلاَّ غيّره ، من آلة الملاهي أو أواني الخمر ، فتسامع الناس به في البلد ، فجاءوا إليه وقرأ عليهم كتبًا من أصول الدين .

★★★

(860) محمد بن تومرت وعبد المؤمن بن علي ولقاء الأفكار الثورية :

في (بجاية) التقى ابن تومرت برجل يُدعى عبد المؤمن بن علي ، فسأله عن سبب تركه لبلاده وسياحته في البلاد ، **فأجابه** : طلبًا للعلم والدين ، **فقال له** : بضاعتك عندي ، فأعجب به عبد المؤمن ، وتآخيا في الله ، وظلاّ معًا في طريقهما لم يفترقا حتى مات ابن تومرت .

★★★

(861) ابن تومرت يعترض موكب أخت أمير المؤمنين :

أخذ عبد المؤمن وابن تومرت يسيران في طريقهما حيث الشدّة في الأمر والنهي ، وانضم إليهما خمسة آخرون ، ورفضوا السفور والخمور والملاهي ، حتى رأوا بأعينهم امرأة سافرة تسير في موكب كبير ، وعليه حراسة مما يماثل أفواج الملوك ، وحينما سألوا عن صاحبته علموا أنها أخت أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ، فأنكر ابن تومرت ذلك إنكارًا شديدًا ، فأخذ هو وأصحابه يضربون وجوه مطاياها حتى أوقعوها من عليه .

(862) الحل هو البدء بالرأس وإقصاء الحكام والولاة عن الحكم :

رأى محمد بن تومرت وستة نفر ممن معه أن الحلّ ، بعد أن بلغ السيل الزّبى ، هو أن يبدأ بالرأس فيقصي الحكام ، فيبدأ بعليّ بن يوسف ومن معه من الحُكام والولاة وقادة الجيش ، فلابد من الخروج عليهم وإقصائهم عن الحكم ، مع العلم أن عليَّ بن يوسف كان يقيم شرع الله ويجاهد في سبيل الله ، رغم بعض التجاوزات والمخالفات .

★★★

(863) علي بن يوسف يدعو محمد بن تومرت لعقد مناظرة في قصر الخليفة :

لمّا سمع علي بن يوسف بابن تومرت وبدعوته ، بمنطق سليم فكّر الخليفة في عقد مناظرة بين ابن تومرت وبين علماء دولة المرابطين ، وعلى رأسهم كبير العلماء وقاضي القضاة مالك بن وهيب ، وبدأ الفريقان في المناظرة تفوّق خلالها ابن تومرت تفوقًا ملحوظًا ، حتى بكى عليّ بن يوسف في مجلسه لِما رأى من كثرة المعاصي في دولته .

★★★

(864) علي بن يوسف يوازن بين رأي قاضي القضاة ورأي وزيره :

أسرّ مالك بن وهيب قاضي القضاة في أذن علي بن يوسف ، أن يعتقل محمد بن تومرت وينفق عليه في سجنه كل يوم دينارًا ، وإلا أنفق عليه آلاف الدنانير من خزائن الدولة إذا تركه ، وأشار عليه الوزير بعدم فعل هذا ، فلا يُعقل أن يعتقله بعد أن بكى في مجلسه ، فقد يُحدث ذلك بلبلة وتزداد شعبيته ، وازن عليٌّ بين الرأيين واستقرّ على ترك ابن تومرت خشية أن يأثم إن حبسه دون وجه حقّ .

★★★

(865) قيام دولة الموحِّدين في (تينملل) :

خرج ابن تومرت من المناظرة ، ونزل عند صديق له في قرية في عمق الجبل اسمها (تينملل) حيث ستكون عاصمة الموحُدين ، فالتف أهل القرية حوله وسمعوا كلامه ، فشرع في تدريس العلم والدعاء إلى الخير ، فلما استوثق منهم دعاهم إلى القيام معه ،

على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون سفك دماء ، وجعل يذكر المهدي ويشوّق إليه ، ويذكر الأحاديث على ذلك .

★★★

(866) محمد بن تومرت وادّعاء العصمة :

لمّا قرر ابن تومرت في نفوس الناس فضيلة المهدي ونسبه ونعته ، ادّعى ذلك لنفسه ، **وقال** : أنا محمد بن عبد الله ، ورفع نسبه إلى النبي ﷺ ، وصرّح بدعوى العصمة لنفسه ، وأنه هو المهدي المعصوم ، وظهرت منه انحرافات عقدية خطيرة ؛ بسبب أخذه العلم من تيارات مختلفة تمثل السنة والشيعة والمعتزلة ، فظهر عليه خليط هذه العقائد المختلفة .

★★★

(867) ابن تومرت يكفّر المرابطين ومَنْ رضي بحكمهم :

كان المرابطون يثبتون لله صفاته ، لكن ابن تومرت تبنّى فكر المعتزلة في نفي الصفات عن الله - تعالى - ، ومن هنا فقد كفّر المرابطين ومن معهم من الولاة والعلماء ، ومن يعمل تحت حكمهم ، ومَنْ يرضى بحكمهم هو من الكافرين أيضًا ، ولهذا سميّ أصحابه بالموحِّدين ؛ لأنهم في رأيه هم الذين يوحدون الله لنفيهم الصفات عنه ، كما سمّاهم بالمؤمنين ، **ويقول لهم** : « ما على الأرض من يُؤمن إيمانكم » .

★★★

(868) قَتْلُ المرابطين واستحلال دمائهم إحراز لثواب عظيم :

وتبعًا لهذا التكفير السابق ، فقد استحلّ دماء هؤلاء الكفار - من وجهة نظره - ، وأمر بالخروج عليهم وقتلهم ، وليس في ذلك إثم بل هو إحراز لثواب عظيم ، وهذا تساهل في الدماء وهي خصيصة من خصائص الخوارج ، فاستباح الدماء والأرواح والأموال .

★★★

(869) ابن تومرت والونشريشي :

افتعل ابن تومرت قصة جديدة وهي قصة التمييز بين الخبيث والطيب ، واستعان برجل على شاكلته يسمى أبا عبد الله بن محسن الونشريشي ، وكان يلقبه بالبشير ؛ إمعانًا في خداع الناس وإضلالهم ، فقد طلب منه أن يخفي علمه وحفظه القرآن ، ويظهر أمام القبائل كأنه مجنون يسيل لعابه على وجهه ، فلما كان عام (519 هـ) ، أتى به بعد صلاة الفجر وعرّف الناس به فعرفوه فسأله عن علمه ، **فقال** : « إنني أتاني الليلة ملك من السماء ، فغسل قلبي ، وعلّمني الله القرآن ، والموطأ ، وغيره من العلوم والأحاديث » ، فبكى المهدي بحضرة الناس وامتحنه وبعدها نودي في الناس : ليأتِ الجميع حتى يمتحنهم البشير ، فيخرج قوم عن يمينه وقوم عن شماله ، فيعد بعضهم بالجنة وآخرين بالنار ، ويعترف أصحاب الذنوب ، حتى أقدم الأخ على قتل أخيه ، وبهذا دبّر فكرة التمييز ليتخلص من خصومه وهذا مع أتباعه ، فما بالك بالمرابطين !

★★★

(870) لقاء بين المرابطين والموحِّدين :

ولما كانت (517 هـ) جهز ابن تومرت جيشًا عظيمًا من المصامدة ، جُلُّهم من أهل (تينملل) مع مَنِ انضاف إليهم من أهل سوس ، **وقال لهم** : اقصدوا هؤلاء المارقين المبدِّلين ، الذين تسمُّوا بالمرابطين ، فادعوهم إلى إماتة المنكر وإحياء المعروف ، وإزالة البدع ، والإقرار بالإمام المهدي المعصوم ، فإن أجابوكم فهم إخوانكم ، وإن لم يفعلوا فاقتلوهم ، فقد أباحت لكم السُّنّة قتالهم ، وأمَّر على الجيش عبد المؤمن بن علي ، **وقال** : أنتم المؤمنون ، وهذا أميركم ، فاستحق ابن علي من يومئذ اسم إمرة المؤمنين .

وخرج إليهم الزبير بن علي بن يوسف بن تاشفين ، فالتقت الفئتان فانهزم المصامدة وقتل منهم خلق كثير ، ونجا عبد المؤمن ومَنْ معه من بعض أصحابه ، فلما بلغ الخبر ابن تومرت **قال** : مادام عبد المؤمن قد نجا لم يُفقد أحد .

★★★

(871) موقعة البحيرة أو البستان ومقتل خلق كثير من الموحدين :

كانت هذه المعركة سنة (524 هـ = 1130 م) ، انتصر فيها المرابطون على الموحدين ، وقُتل فيها من الموحدين أربعون ألفًا ، وهذه المعركة هي التي سُبقت بحادث التمييز ، حيث قام ابن تومرت بقتل كل من يشكّ في ولائه له ، بل جعل أقرباءهم وأهلهم هم الذين يقتلونهم ، وقتل فيها الونشريشي أميرهم ، فاجتمعوا على عبد المؤمن وجعلوه أميرًا عليهم ، وسميت بمعركة البحيرة أو البستان ؛ لأن الموحِّدين حينما رأوا قوة المرابطين أسندوا ظهورهم إلى بستان كبير - والبستان عندهم يسمى البحيرة - وصاروا يقاتلون من جهة واحدة إلى أن أدركهم الليل ، ولمَّا عادوا إلى ابن تومرت هوّن عليهم أمر الهزيمة .

★★★

(872) نهاية ابن تومرت والبيعة لعبد المؤمن :

لم يلبث ابن تومرت أن توفي بعد معركة البحيرة تاركًا أصحابه ، بعد أن أمّر عليهم عبد المؤمن ، ولما مات كفّنه عبد المؤمن بن علي وصلّى عليه ودفنه بمسجده ، وهكذا انتهت حياته ، ومصير دعوته مجهول بسبب هذه الهزيمة الشديدة التي نزلت بأتباعه في موقعة البحيرة .

★★★

(873) المؤسس الحقيقي لدولة الموحِّدين عبد المؤمن بن علي :

وفي سنة (541 هـ = 1146 م) بزغ نجم دولة الموحدين ، وكان أول حُكامها عبد المؤمن بن علي (487 هـ - 558 هـ) صاحب ابن تومرت والرجل الثاني بعده والمؤسس الحقيقي والفعلي لجماعة الموحدين ، وهو عبد المؤمن بن علي بن مخلوف الكومي (نسبة إلى كومية من قبائل الأمازيغ) نسب نفسه إلى العرب من مضر ، وولد في (تاجرت) بالمغرب غرب (تلمسان) ، ونشأ فيها طالب علم ، وأبوه صانع فُخّار ، وكان عادلاً ، سائسًا ، عظيم الهيبة ، عالي الهمة ، متين الديانة ، كثير المحاسن ،

قليل المِثْل ، وكان يقرأ كل يوم سُبعًا من القرآن العظيم ، ويجتنب لبس الحرير ، وكان يصوم الإثنين والخميس ، ويهتم بالجهاد والنظر في الملك .

★★★

(874) عبد المؤمن بن علي وقوة لا مثيل لها :

قال الزركلي : « كان عاقلاً حازمًا شجاعًا مُوَفَّقًا ، كثير البذل للأموال ، شديد العقاب على الجرم الصغير ، عظيم الاهتمام بشئون الدين ، مُحبًا للغزو والفتوح ، خضع له المَغْربان (الأقصى والأوسط) ، واستولى على إشبيلية ، وقرطبة ، وغرناطة ، والجزائر ، والمهدية ، وطرابلس الغرب ، وسائر بلاد إفريقية ، وأنشأ الأساطيل ، وضرب الخراج على قبائل المغرب ، وهو أول من فعل ذلك هناك » .

★★★

(875) قتلَ من لا يحافظ على الصلاة وحرقَ الغنائم :

قال ابن كثير في البداية والنهاية : « وكان من لا يحافظ على الصلوات في زمانه يُقتل ، وكان إذا أَذَّن المؤذن ، وقبل الأذان ، يزدحم الخلق في المساجد ، ولكنه كان سفاكًا للدماء حتى على الذنب الصغير . . . . » ، إضافة إلى هذا المنهج العقيم ، فقد كان ابن تومرت ومن تبعه في حربهم مع المرابطين يأخذون الغنائم فيحرقونها .

★★★

(876) عبد المؤمن يطوي البلاد مملكةً مملكةً :

في سنة (528 هـ) جهز عبد المؤمن جيشًا كبيرًا وقاده فاستولى على تادَلة ، ثم وصل إلى غرناطة في شتاء 533 هـ ، وتوجه إلى تلمسان فاستولى عليها في (538 هـ) ، ثم توجه إلى تاهَرْت فاستولى عليها ، وفي (540 هـ) حاصر مدينة فاس فاستولى عليها ، ثم توجه إلى مدينة مراكش (541 هـ) ، فتمكّن منها ، وجعلها عاصمة للموحِّدين ، ولم يزل عبد المؤمن يطوي الممالك مملكة مملكة ويَدُوخها ؛ **أي** : يقهرها إلى أن ذلّت له البلاد وأطاعته العباد .

★★★

(877) قيام دولة الموحدين على أشلاء الآلاف من المسلمين :

وبنظرة إجمالية ، فإن عدد مَنْ قُتل من المسلمين في المواقع التي دارت بين المرابطين والموحّدين تجاوز عشرات الآلاف ، وذلك في نحو ثمانٍ وعشرين سنة ؛ من سنة (512 هـ وحتى 541 هـ) ، وقامت دولة الموحدين على أشلاء الآلاف من المسلمين ، وكان هذا هو الطريق الذي سلكه محمد بن تومرت ومَنْ معه ، وكان هذا هو نهجهم في التغيير .

★★★

(878) الحرب بين المرابطين والموحِّدين في المغرب وأثر ذلك على الأندلس :

كان للحروب التي دارت بين المرابطين والموحدين أثر كبير على الحياة في الأندلس ؛ إذ قتل في عام (541 هـ = 1146 م) ما يربو على الثمانين ألف مسلم في بلاد الأندلس ، حيث سقطت ألَمرِيَّة في يد النصارى ، فاستشهد آلاف من المسلمين وسُبِيَت أكثر من أربعة عشر ألف فتاة مسلمة من الأبكار .

وفي عام (543 هـ = 1148 م) سقطت طرشوشة ثم لارِدة في أيدي النصارى ، ثم توسعت مملكة البرتغال في الجنوب ، وبدأ النصارى يتخطُّون الأندلس ويهاجمون بلاد المغرب العربي ، فاحتلّوا تونس في السنة نفسها وهي خارج بلاد الأندلس .

★★★

(879) عبد المؤمن بن علي والعلم والعلماء :

أنشأ عبد المؤمن الكثير من المدارس ، واهتم غاية الاهتمام بالتعليم والتثقيف ، وكان مُؤْثِرًا لأهل العلم محبًا لهم ، محسنًا إليهم ، يستدعيهم من البلاد للحضور إليه والجوار بحضرته ، ويجري عليهم الأرزاق الواسعة ، ويظهر التنويه بهم ، والإعظام لهم ، وقسّم الطلبة طائفتين ؛ طلبة الموحُدين وطلبة الحضر .

★★★

(880) عبد المؤمن وإنشاء جيلٍ فريدٍ من قواد الحروب والسياسيين البارعين :

عمل عبد المؤمن على إقران الخدمة العسكرية بالعلوم التثقيفية ، وأنشأ معسكرًا

بقصره لتدريس وتعليم وتخريج رجال السياسة والحُكم ، وكان يمتحن الطلاب بنفسه ، فأنشأ جيلًا فريدًا من قواد الحروب والسياسيين البارعين في دولة الموحدين ، كما أنشأ بحيرة صناعية كبيرة في بلاد المغرب لتعليم الناس كيف يقاتلون في الماء ، وكيف تكون الحروب البحرية .

★★★

(881) عبد المؤمن وفرديّة في الحكم والإدارة (الديكتاتور) :

كان عبد المؤمن ذا فردية في نظام الحكم والإدارة ، مستبدًا في رأيه ، لا يأخذ بالشورى ، سفَّاكًا للدماء ، حيث أحصى له المؤرخ (البيزق) أكثر من ثلاثين ألف قتيل بدأ بها عهده لنشر الرعب وتثبيت أقدام الدولة بالسيف .

★★★

(882) عبد المؤمن يقبل دعوة القاضي ابن العربي ويتوجّه إلى الأندلس :

بعد تساقط المرابطين في المغرب أمام الموحدين ، قدم القاضي ابن العربي إلى المغرب وبايع عبد المؤمن بن علي ، وطلب النجدة لأهل الأندلس ، فقَبِل عبد المؤمن الدعوة ، وجهّز جيشًا وانطلق به إلى الأندلس ، وبدأ يحارب الممالك الصليبية حتى ضم معظم بلاد الأندلس الإسلامية ، وفي سنة (552 هـ = 1157 م) استطاع أن يستعيد ألمرية ، بعد أن ضمّ كل أملاك المرابطين ، ثم أعاد تونس (555 هـ) من يد النصارى .

★★★

(883) يوسف بن عبد المؤمن بن علي يتولى الأمر بعد أبيه :

وفي عام (558 هـ = 1163 م) توفي عبد المؤمن بن علي في رباط سلا فنقل إلى تينملل فدفن بها ، ثم خلفه ابنه محمد ، ثم خُلع لفسقه وسوء خلقه ، وولي الأمر ابنه يوسف وهو يبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا ، وقد كان مجاهدًا شهمًا كريمًا إلا أنه لم يكن في كفاءة أبيه القتالية .

★★★

(884) أعمال يوسف بن عبد المؤمن :

كان يوسف عارفًا بالسياسة والفقه والحكمة والفلسفة ، استقدم بعض علماء الأقطار وفي جملتهم أبو الوليد بن رشد ، وهو باني مسجد إشبيلية (567 هـ) ، وإليه تنسب الدنانير (اليوسفية) في المغرب ، وظل يحكم اثنين وعشرين عامًا متصلة منذ سنة (558 هـ = 1163 م) وحتى (580 هـ = 1185 م) ، فنظم الأمور وأحكم البلاد ، وله أعمال جهادية كبيرة ضد النصارى ، إلا أنه كان مستبدًا كأبيه لا يأخذ بالشورى .

★★★

(885) خطأ إداري قاتل يتسبب في مقتل يوسف بن عبد المؤمن :

مات يوسف بن عبد المؤمن وهو في جهاد الصليبيين عند مدينة شنترين نتيجة خطأ إداري خطير ؛ ففي سنة (579 هـ) تجهز للغزو وعبر بجنوده ووصل بهم إلى إشبيلية ثم شنترين ، فحاصرها مدة حتى خافوا البرد وزيادة النهر ، فأشاروا على أبي يعقوب بالرجوع فوافقهم ، **وقال** : غدًا نرحل ، فبدأ الناس بالرحيل من ليلتهم خشية الزحام في الغد دون علم الأمير ، فلما رأى الروم عبور العساكر وأخبرهم عيونهم بالأمر ، انتهزوا الفرصة وخرجوا وحملوا على الناس ، فانهزموا أمامهم حتى بلغوا إلى مخيم أبي يعقوب (يوسف بن عبد المؤمن) ، فقُتِل على باب المخيم خلق كثير حتى وصلوا إلى أمير المؤمنين فطُعن طعنة مات على إثرها بعد أيام .

أشهر علماء الأندلس في عهد يوسف بن عبد المؤمن

(886) ابن العوّام الإشبيلي (ت : 580 هـ = 1185 م) :

هو أبو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد ، الشهير بابن العوام الإشبيلي ، الذي عاش في فترة غروب الحضارة الإسلامية عن الأندلس ، فاهتم بالفلاحة فأتقنها ، وصنّفها علمًا كاملًا ، ولولاه ما وصل هذا العلم إلى أوروبا بدءًا من القرن الثاني عشر الميلادي ، فاستفادوا في مجالات التربة ، والأسمدة ، والحرث ، والسقي ، وله في الفلاحة كتابٌ

عظيم الشأن اختصر فيه علوم القدماء في الزراعة ، وما زال هذا الكتاب مخطوطًا ، وألّف رسالة في (تربية الكَرْم) ، و(عيون الحقائق وإيضاح الطرائق) .

★★★

(887) ابن طفيل ورسالة (حي بن يقظان) :

هو الفيلسوف الشهير أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسي من أهل وادي آش جنوب الأندلس ، وهو صاحب المؤلف الفلسفي الشهير (**رسالة حي بن يقظان**) ، كان عالمًا صدرًا ، حكيمًا فيلسوفًا ، عارفًا بالمقالات والآراء ، كلفًا بالحكمة المشرقية ، محققًا ، متصوفًا ، طبيبًا ماهرًا ، فقيهًا ، بارع الأدب ، ناظمًا ، ناثرًا ، مشاركًا في جملة الفنون ، وكان أحسن حسنات الدهر في ذاته وأدواته ، وله شعر غاية في الجودة ، عاش سبعة وثمانين عامًا ، وتوفي بمراكش سنة (581 هـ = 1185 م) ، وحضر الخليفة يعقوب المنصور جنازته .

★★★

(888) العصر الذهبي للموحِّدين :

بعد وفاة يوسف بن عبد المؤمن (580 هـ) تولّى من بعده ابنه يعقوب ، وقد لُقب بالمنصور ، وكان له ابن يُدعى (يوسف) فدُعِي بأبي يوسف ، كان جهوري الصوت ، جَزْل الألفاظ ، من أصدق الناس لهجة ، وأحسنهم حديثًا ، وأكثرهم إصابة بالظّن ، مجربًا للأمور ، أظهر أبهة الملك ، ورفع راية الجهاد ، ونصب ميزان العدل ، وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع ، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين ، فاستقامت أحوال الناس وعظمت الفتوحات .

★★★

(889) أبو يوسف المنصور من أعظم الشخصيات في تاريخ المسلمين :

حكم أبو يوسف الموحدي خمس عشرة سنة متصلة من (580 هـ = 1184 م) وحتى (595 هـ = 1199 م) ، وكان أقوى شخصية في تاريخ دولة الموحدين ، ومن أعظم الشخصيات في تاريخ المسلمين بصفة عامة ، وقد عُدّ عصره في دولة الموحدين **بالعصر**

الذهبي ، كان عمره حتى تولى الحكم ستًا وعشرين سنة فقط ، فقام بالأمر على أحسن ما يكون ، واستطاع أن يغير الكثير من أسلوب السابقين ، وكان سمته الهدوء والسكينة والعدل والحلم ، فحارب الخمور ، وأحرق كتب الفلاسفة ، واهتمّ بالطب والهندسة ، وألغى المناظرات العقيمة ، ومال إلى مذهب ابن حزم الظاهري ، وأحرق الكثير من كتب الفروع ، وأمر بالاعتماد على كتاب الله وعلى كُتب السُّنة الصحيحة .

★★★

(890) أبو يوسف المنصور والعمران والرعية :

وفي دولته اهتم بالعمران ، حيث أكمل إنشاء مدينة الرباط التي اختطها أبوه ، ورسم حدودها وسمّاها رباط الفتح ، وأقام فيها المستشفى الكبير ، وأمر أن يُغرس فيه من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات ، وأجرى فيه مياهًا كثيرة تدور على جميع البيوت ، واهتم بالفقراء والأغنياء من المرضى ، بل كل من مرض بمراكش من غريب حُمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت ، وكان يجمع الزكاة بنفسه ويفرّقها على أهلها ، وكان كريمًا كثير الإنفاق ، حتى إنه وزّع في يوم عيدٍ أكثر من سبعين ألف شاةٍ على الفقراء .

★★★

(891) المنصور الموحِّدي من أهل السنة والجماعة :

تبرأ المنصور من أباطيل ابن تومرت ، وأبطل القول بالمهدية وأزال رسومها ، إذ العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة ، فما الظنّ بمن يدري بأي يدٍ يأخذ كتابه ، وكان مجلسه عامرًا بالعلماء وأهل الخير والصالحين ، يجيد حفظ القرآن والحديث ، ويتكلم في الفقه ، يرتدي زي الزُّهاد ، وهو من الفئة الصالحة المصلحة مما يجعله من أهل السنة والجماعة .

★★★

(892) سياسة أبي يعقوب المنصور في الحروب :

تعتبر السنوات الخمس عشرة ، التي حكمها أبو يوسف يعقوب المنصور ، **العصر**

الذهبي للدولة الموحدية ، والذروة التي وصل إليها التطور السياسي في المغرب نحو التوحيد وإقامة الدولة الموحدية ، إلا أن العصر الذهبي كان قصيرًا لا يتناسب مع دولة ضخمة مترامية الأطراف ، وكانت جيوش الموحدين تعجُّ بحشود من القبائل من المغرب والأندلسيين ، ومع كل هذا فقد كانت الجيوش الموحدية مفكّكة ، تنقصها القيادة الحازمة التي تقبض على الجيش قبضة محكمة ، وكان المنصور من زعماء الموحدين القلائل ، الذين استطاعوا قيادة جيوشهم قيادة سليمة حكيمة ، فأصبحت جيوش الموحدين في أيامه قوة ضاربة كبرى .

★★★

(893) ملك قشتالة يطلب ودَّ أبي يوسف الموحِّدي :

استقبل أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي رسالة من ملك قشتالة ، يسعى فيها إلىٰ الصلح والمهادنة ، بل ويعرض عليه أن يُحَالفه ضد مَنْ يشاء من أعداء أبي يوسف وأبناء ملّة ملك قشتالة ، فقبل أبو يوسف مسالمته بما لا يتعارض مع عزّة الإسلام والمسلمين .

★★★

(894) عدوان ملك البرتغال على مدينة شلب (585 هـ) :

جاء عدوان ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز (بطرو بن الريق) على مدينة شلب من جزيرة الأندلس ؛ فنزل عليها بعساكره ، وأعانه من البحر الإفرنج بالبطس والشواني ، فملكوا المدينة من البرّ والبحر ، وسبوا أهلها ، وتجهز أمير المؤمنين في جيوش عظيمة ، وسار حتى عبر البحر ، فنزل شلب ، فلم تطق الروم دفاعه ، وخرجوا عنها وعما كانوا قد ملكوه من أعمالها ، ولم يكفه ذلك ، حتى أخذ حصنًا من حصونهم **يقال له** (طرش) .

★★★

(895) المقصود بالبطس :

مفردها : **بطسة** ، وهي من أنواع المراكب البحرية الكبيرة ، عرفها العرب المسلمون منذ بداية العصر الإسلامي ، واستعملوها في الحروب البحرية والأعمال التجارية ، عدد

أشرعتها أربعون شراعًا ، تحمل على متنها ما يزيد عن ألفين وخمسمائة شخص .

★ ★ ★

(896) المقصود بالشواني :

جمع : **شونة** ، وهي طراز من السفن المستخدمة للأغراض الحربية ، عرفها اليونان والرومان ، واستعملها العرب في العصر الإسلامي ، تسير بالشراع ، يصل عدد مجاديفها إلى مائة ، وهي مزودة بأبراج خاصة ، وتحمل على متنها حوالي مائة وخمسين من المقاتلين المزودين بأسلحتهم .

★ ★ ★

(897) موقعة الأرك الفارقة :

على حصن يبعد عشرين كيلومترًا إلى الشمال الغربي من قلعة رباح ، على أحد فروع نهر وادي آنة ، وفي التاسع من شعبان سنة (591 هـ = 1195 م) التقت الجيوش الإسلامية مع جيوش النصارى ، بعد أن أغاروا على بلاد الأندلس ، وفيها استعان (ألفونسو الثامن) بمملكتي (ليون ونافار) في قوّة يبلغ قوامها خمسة وعشرين ألفًا ومائتي ألف نصراني ، وقد أحضروا معهم بعض جماعات اليهود لشراء أسرى المسلمين بعد انتهاء المعركة لصالحهم ؛ ليتمّ بيعهم بعد ذلك في أوروبا .

وأعدّ أبو يوسف يعقوب جيشًا كبيرًا ، بلغ قوامه مائتي ألف مسلم نتيجة لحميَّة المسلمين على الإسلام خاصة بعد النصر المؤزر على الصليبيين في حطين (583 هـ) .

★ ★ ★

(898) مجلس استشاري لوضع الخطط وسماع الآراء المقترحة :

في خطوة غريبة على الموحدين ، إذ كان نظام أمير المؤمنين فيه استبداديًا ، ولكنّ أبا يوسف يستخدم نظامًا استشاريًا جديدًا يستوضح من خلاله الآراء والخطط المقترحة في هذا الشأن ، بل سمع رأي أبي عبد الله بن صناديد ، أحد زعماء قبائل المغرب البربرية ، وبهذه المجالس ضم أبو يوسف من خلالها آراء المغاربة والأندلسيين والبربر القادمين من الصحراء .

(899) خطة الأرك شبيهة بخطة الزَّلاَّقة :

في خطة شبيهة جدًا بخطة الزَّلأقة ، قسَّم المنصور الجيش إلى نصفين ؛ فجعل جزءًا في المقدمة ، وأخفى الآخر خلف التلال ، وكان هو على رأسه ، ثم اختار أميرًا عامًا للجيش ، وهو كبير وزرائه أبو يحيى بن أبي حفص ، وقد ولَّى قيادة الأندلسيين لأبي عبد الله بن صناديد حتى لا يُوغر رأي الأندلسيين حين يُولَّى عليهم بربريٌّ ، أو مغربيٌّ .

★★★

(900) رسالة من أمير المؤمنين إلى كل المسلمين يطلب المغفرة :

وعند اكتمال الحشد وانتهاء الاستعداد للقتال ، أرسل الأمير الموحدي رسالة إلى كل المسلمين ، **يقول فيها** : « إن الأمير يقول لكم : اغفروا له ؛ فإنَّ هذا موضع غفران ، وتغافروا فيما بينكم ، وطيِّبُوا نفوسكم ، وأخلصوا لله نيّاتكم » ، فبكى الناس جميعهم ، وأعظموا ما سمعوه من أميرهم المؤمن المخلص ، وعلموا أنه موقف وداع ، فخطب الخطباء يخطبون عن الجهاد ، ويُذكُرون بفضله وشرفه ومكانته ، ويحمِّسون الجند له .



(901) اللقاء المرتقب بين جيش التوحيد وجيش الكفر :

دارت معركة عنيفة بين المسلمين والنصارى ، ودُبّرت الخطة بإحكام ، وكان موقع النصارى في أعلى تلٍّ كبير ، وكان على المسلمين أن يقاتلوا من أسفل ذلك التّل ، لكن ذلك لم يردّ المسلمين عن القتال ، ونزل النصارى كالسيل الجارف ، فقابلهم المسلمون بصبر وجلد وقوة ، يضربون أعقاب النصارى ووجوههم ، وأذاقوهم مرارة الحتوف ، وأحاطوا بحصن الأرك ، وانتصر المسلمون في هذه المعركة انتصارًا مُؤَزّرًا ، وغنموا غنائم كبيرة .

★★★

(902) سقطة من سقطات الملوك :

أخذ المسلمون يتقدمون ويستولون على الحصون ، ويقبضون على الروم وزعمائهم حتى وصل عددهم إلى أربعة وعشرين ألف فارس أسارى ، فامتنّ عليهم أمير المؤمنين ، وأطلقهم بعدما ملكهم ؛ ليكون له بذلك يد الامتنان ويدٌ عليا عليهم ، فعزّ فعله ذلك على الموحدين ، وعلى كافة المسلمين ، وحُسِبَتْ له تلك الفعلة سقطة من سقطات الملوك .

★★★

(903) غنائم المسلمين من معركة الأرك :

قال المقري : وكان عدة من قُتِل من الفرنج - فيما قيل - مائة ألف وستَّة وأربعين ألفًا ، وعدة الأسارى ثلاثين ألفًا ، وعدة الخيام مائة ألف وستَّة وخمسين ألف خيمة ، والخيل ثمانين ألفًا ، والبغال مائة ألف ، والحمير أربعمائة ألف ، جاء بها الكفار لحمل أثقالهم ؛ لأنهم لا إبل لهم ، وأمّا الجواهر والأموال فلا تُحصى . . . وقسّم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع ، ونجا ألفونسو ملك النصارى إلى طليطلة في أسوأ حال .



(904) نهاية ألفونسو بعد قسم مغلَّظ له :

نجا ألفونسو إلى طليطلة ، فحلق رأسه ولحيته ، ونكّس صليبه ، وآلى ألاّ ينام على فراش ، ولا يقرب النساء ، ولا يركب فرسًا ولا دابَّة حتى يأخذ بالثأر ، وصار يجمع من الجزائر والبلاد البعيدة ويستعدّ ، ثم لقيه يعقوب وهزمه ، وسار خلفه إلى طليطلة وحاصرها ، ورمى عليها بالمجانيق ، وضيَّق عليها ، ولم يبق إلا فتحها ، فخرجت إليه والدة ألفونسو وبناته ونساؤه وبكينَ بين يديه ، وسألنه إبقاء البلد عليهن ، فرقَّ لهن ومَنَّ عليهن بها ، وعفا بعد القدرة .

★★★

(905) صراعات شتى بين ممالك النصارى قبل المعاهدة مع المسلمين :

بعد معركة (الأرك) حدثت صراعات شتى بين ليون ونافار من ناحية ، وبين قشتالة من ناحية أخرى . . . فقد ألقى عليهم ألفونسو الثامن (ملك قشتالة) مسئولية الهزيمة ، إذ وقعت الهزيمة النفسية ، وأتت السفارات تطلب العهد والمصالحة مع المنصور الموحدي ؛ وتمت معاهدة جديدة بين قشتالة والمسلمين على الهدنة ووقف القتال مدّة عشر سنوات .

أشهر العلماء في عهد يعقوب المنصور

(906) ابن رشد الحفيد (520 هـ - 595 هـ) :

هو أبو الوليد محمد بن أبي القاسم أحمد ابن شيخ المالكية ، كان مولده (520 هـ = 1126 م) ، وقد نشأ في بيت من بيوت العلم ، وكان جدّه ابن رشد قد تُوفّي وعمره شهر واحد ، ورث العلم الغزير خاصة في الفقه عن أبيه الذي تربّى وتعلّم على يدّ جدّه وعن غيره من فقهاء عصره ، الذي ما ترك الاشتغال مُذْ عَقَل سوى ليلتين : ليلة موت أبيه ، وليلة عرسه ، وأنه سوّد فيما أَلَّف وقيَّد نحوًا من عشرة آلاف ورقة ، ومال إلى علوم الحكماء ، فكانت له فيها الإمامة .

★★★

(907) من تصانيف ابن رشد :

وله من التصانيف : (بداية المجتهد ونهاية المقتصد في الفقه) ، و(الكليات في الطبّ) ، و(مختصر المستصفى) في الأصول ، و(شرح أرجوزة ابن سينا) في الطب ، و(المقدمات) في الفقه ، و(كتاب الحيوان) ، وكتاب (جوامع كتب أرسطو طاليس) ، و(شرح كتاب النفس) ، و(كتاب في المنطق) . . . وغيرها .

★★★

(908) أثر فلسفة ابن رشد على الغرب :

أثر ابن رشد بفلسفته على روجر بيكون الفيلسوف الشهير ، فقد استفاد هذا الأخير من مؤلفاته وحيًا ، واستنزل من حكمته إلهامًا في كتابه اللاتيني (أبوس ماجوس) حيث أثنى عليه وعلى مواهبه .

وأما توماس الإكويني أعظم لاهوتي في كنائس الغرب ، وأكبر فلاسفة القرون الوسطى ، فقد ذكر أن أسباب اتصاله بالعلوم الدنيوية يعود الفضل فيها إلى ابن رشد وفلسفته .

★★★

(909) محنة ابن رشد وحرق كتب الفلسفة :

استعان الخليفة أبو يعقوب بابن رشد في المهام الرسمية والرحلات المكوكية إلى مراكش ، وإشبيلية ، وقرطبة ، وجعله أبو يعقوب طبيبه الخاص ، ثم ولاه منصب القضاء ، وخلفه ابنه يوسف فقربه ، ولكن بعض المقربين أوغر صدره عليه فنفاه إلى قرية كانت لليهود وأحرق كتبه ، وأصدر منشورًا إلى المسلمين كافة ينهاهم عن قراءة كتب الفلسفة ، أو التفكير في الاهتمام بها ، وهَدّد من يخالف أمره بالعقوبة .

★★★

(910) **محمد بن سعيد بن زرقون** (502 هـ - 586 هـ) :

هو المُسْنِد الفقيه أبو عبد الله محمد بن سعيد بن أحمد الأنصاري الإشبيلي المالكي ، المعروف بابن زرقون ، وزرقون هو لقب جدُه ، ولد (502 هـ) في شريش (هريز) وتلقى العلم على شيوخها ، ولازم القاضي عياضًا (544 هـ) ، وتولى القضاء في إشبيلية وشلب ، وكان مُسنِد الأندلس في وقته ، وله مؤلّف جمع بين الجامع الكبير للترمذي وسنن أبي داود في الحديث ، توفي بإشبيلية (586 هـ) عن أربع وثمانين سنة .

★★★

(911) الإمام الشاطبي (538 هـ - 590 هـ) :

هو الشيخ الإمام ، العالم العامل ، سيد القرّاء ، أبو محمد ، وأبو القاسم ، القاسم ابن فيُّرة بن خلف بن أحمد الرعيني ، الأندلسي الشاطبي ، الضرير ، ولد في شاطبة (538 هـ) ، قرأ القراءات وأتقنها ، ثم رحل إلى بلنسية ثم رحل إلى الحج ، **ومن أشهر مؤلفاته** : (حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع) ، وهي قصيدة رائعة عظيمة الفائدة ، وقد عُرفت بـ (مَتْن الشاطبية) **قال في خاتمتها** :

وَأَبْيَاتُهَا أَلْفٌ تَزِيدُ ثَلَاثَةً   وَمَعْ مائَةٍ سَبْعِينَ زُهْرًا وكُمَّلا

ثم نظم قصيدته الرائية : (عقلية أتراب القصائد في أسنى المقاصد) وهي في علم الرسم ، وقصيدة (ناظمة الزهر) في علم عدد الآي ، وقصيدة دالية في خمسمائة بيت نظّم فيها (التمهيد لابن عبد البرّ) .

★★★

(912) وفاة المنصور وتولية الناصر :

لقي المنصور ربه في سنة (595 هـ = 1199 م) عن عمر يناهز الأربعين سنة ، حكم البلاد خلالها خمس عشرة سنة ، وكان قد استخلف قبل وفاته ابنه الناصر لدين الله أبو محمد عبد الله وعمره آنذاك سبع عشرة سنة وأشهر ، على أمل أن يمدَّ الله في عمره ؛ فيستطيع أن يكتسب من الخبرات ما يُؤهله لأن يصبح بعد ذلك قائدًا فذًا على شاكلة أبيه ، لكنّ الموت فاجأ المنصور مما وضع الناصر على رئاسة البلاد في هذه السنّ .

★★★

(913) بنو غانية يجبرون الناصر على مهادنة النصارى :

كان بنو غانية أصحاب ثورات متعددة في بلاد المغرب على الموحدين ، وقد ازداد نشاطهم بعد وفاة المنصور مما جعل الناصر يوجه كل اهتمامه للقضاء على ثورتهم ، فاضطر إلى مهادنة النصارى للتفرغ لثورات بني غانية التي قضى عليها في النهاية .

(914) ألفونسو الثامن يعدّ العُدّة لردّ الاعتبار :

استغل ألفونسو الوضع القائم ، وأعدّ العدّة قبل انتهاء الهدنة التي كانت بينه وبين المنصور فخالفها وهجم على بلاد المسلمين ، فنهب القرى ، وأحرق الزروع ، وقتل العُزّل من المسلمين ، وكانت هذه بداية الحرب بين المسلمين والنصارى .

معركة العقاب

(915) عيوب خطيرة في دولة الموحِّدين قبل اللقاء المرتقب :

واجه الموحدون كثيرًا من المشكلات كانت قاصمة الظهر بالنسبة لهم قبل اللقاء المرتقب مع النصارى ، منها : ضعف القيادة ، وغياب الكفاءة ، وغياب الشورى أيضًا ، وإنهاك المسلمين في حروب طويلة جرّاء القضاء على ثورات بني غانية ، بجانب استعانة الناصر ببطانة سوء ، من وزير ذميم الخلق وسيئ التدبير يدعى أبا سعيد بن جامع ، وحاشية طامعة في المال .

★★★

(916) جيش أوروبا على رأسه الملوك والرهبان :

قامت دول أوروبا بتعبئة عامة مادية ومعنوية وروحية ، قادها بابا روما بنفسه ، فقد أعلنوها حربًا صليبية ، فقد خاطب البابا مملكة نافار وقشتالة وليون بعد هزيمة الأرك ، يريد منهم التوحد في مواجهة الصف المسلم ، حتى بلغ عدد جيوشها مائتي ألف نصراني ، يتقدمهم الملوك والرهبان نحو معركة فاصلة بينهم وبين المسلمين .

★★★

(917) الناصر يتجهّز للقاء النصارى :

أعلن الناصر الجهاد ، وجمع المجاهدين من بلاد المغرب والأندلس ، ووصل عدد الجيش إلى ما يقرب نصف المليون - وإن كان ذلك مبالغة - ، وانطلق بهم من

المغرب عابرًا المضيق ، ثم سلبطرة ثم إشبيلية ثم العقاب ، وعُرفت العقاب بذلك نسبة إلى قصر قديم كان يحمل هذا الاسم في تلك المنطقة ، وكانت اسمًا على مسمى ، إذ كانت عقابًا للمسلمين على مخالفات كثيرة .

★★★

(918) حصار سَلْبَطْرَة وأثر ذلك على الجيش :

كان أول عمل حربي قام به الناصر هو حصار سَلْبَطرة ؛ هذه القلعة الكبيرة والحصينة رغم قلة عدد النصارى بها ، ولكن حصانتها أعجزت المسلمين عن فتحها حتى كاد الناصر يتجاوزها ، لولا إصرار الوزير الغريب ابن جامع فبقيت الجيوش تحاصر القلعة ؛ مما أضاع الوقت ، وجعل النصارى يكملون عدتهم ، وأصيب المسلمون بالضرر من صقيع الجبال حتى هلك بعضهم من شدة البرد والإنهاك .

★★★

(919) وصف جيش النصارى :

قُسِّم الجيش النصراني ، القادم من إنجلترا وفرنسا والقسطنطينية وأرجوان وقشتالة والبرتغال ، إلى ثلاثة جيوش كبيرة ؛ **فالجيش الأول** : هو الجيش الأوروبي ، **والجيش الثاني** : هو جيش إمارة أرجوان ، **والجيش الثالث** : هو جيش قشتالة والبرتغال وليون ونافار ، وهو أضخم الجيوش .

★★★

(920) أبو الحجاج يوسف بن قادس والتحيُّز إلى فئة المؤمنين :

قامت جيوش النصارى بمحاصرة قلعة رباح التي تملكها المسلمون بعد موقعة الأرك ، وعلى رأسها القائد البارع يوسف بن قادس ، فلما طال أمد الحصار وأدرك قائدها عدم جدوى الدفاع ، بعد تساقط بعض الحوائط ، عرض المعاهدة على النصارى ، على أن يخرج هو ومن معه من المسلمين ويتركوا كامل المؤن والسلاح ، فوافق النصارى وعلى رأسهم ألفونسو الثامن ، فانسحب يوسف ومن معه وانضموا إلى جيش الموحدين .

(921) هزيمة نفسية وهزة كبيرة في جيش النصارى :

اعترض النصارى على هذا الانسحاب ، فقد كانوا يرون أنهم ما أتوا من بلادهم إلا لقتل المسلمين ، فلما حاصر ألفونسو مدينة أخرى من مدن المسلمين وعاهدهم وأبرم معهم المعاهدات ، برم الأوروبيون وانسحبوا من الموقعة ومعهم خمسون ألفًا من النصارى ، وقد كان هذا الانسحاب نصرًا معنويًا وماديًا كبيرًا للمسلمين ، وهزيمة نفسية وهزة كبيرة في جيش النصارى ، وأصبح جيش المسلمين أضعاف جيش النصارى .

★ ★ ★

(922) قتل القائد البارع ابن قادس :

أشار وزير السوء على الناصر بقتل أبي الحجاج يوسف بن قادس بتهمة التقاعس عن حماية القلعة ، فقتله الناصر وكان هذا خطأ آخر من أخطائه ؛ لأن أبا الحجاج لم يتقاعس بل انحاز إلى فرقة أخرى ، مما أضعف جيش المسلمين ؛ لأن الأندلسيين قد أحسوا بالتفريق في المعاملة مما كان له أثر سلبي كبير على واقع المعركة .

★ ★ ★

(923) خُطّة شاذة يضعها الناصر وعلامات استفهام

وضع الناصر خطة شاذة غريبة للقاء النصارى ؛ حيث فرّق جيشه إلى فرقة أمامية وفرقة خلفية ، جعل الأمامية من المتطوعين وعددهم ستون ألفًا ومائة ألف متطوع على قلة خبرتهم في الحروب وكثرة حماستهم ، ومن خلفهم الجيش النظامي ، وجعل الأندلسيين على الميمنة رغم الحرقة التي تكمن في نفوسهم جرّاء قتل قائدهم المجاهد أبي الحجاج ، بجانب اعتقاد الناصر بالنصر نظرًا لكثرة العدد والعتاد والعدة .

★ ★ ★

(924) العقاب ، والعقاب المُرّ .... وحُنَين جديدة :

في أكبر جيش للموحِّدين على الإطلاق ، بل وفي أكبر جيوش المسلمين في بلاد الأندلس ، هجم المتطوعون من المسلمين على جيش النصارى فاصطدموا بقلب

القشتاليين المدرَّب على القتال ، فما كان منهم إلا أن مزَّقوا مقدمة المسلمين ، وقتلوا منهم الآلاف في الضربة الأولى لهم .

ونتيجة لذلك هبطت معنويات الجيش الإسلامي وارتفعت معنويات النصارى ، الأمر الذي جعل عددًا كبيرًا من الأندلسيين يفرون من أرض القتال ، ففرّت الميمنة ، والتف النصارى حول جيش المسلمين فقُتِل الآلاف بسيوف النصارى في ذلك اليوم .

★★★

(925) صَدَق الرحمن وكذب الشيطان :

هُزم المسلمون هزيمة قاسية ، وفرّ الناصر لدين الله من أرض المعركة ، ومعه فلول الجيش المنهزم المنكسر ، والمصاب في كل أجزاء جسده الكبير ، **وقد قال الناصر وهو يفرُّ** : « صدق الرحمن وكذب الشيطان » ، حيث دخل الموقعة وهو يعلم أنه منصور بعدده ، فعلم أن هذا من إلقاء الشيطان وكذبه ، وصدق الرحمن : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة : 25] ، فولّى من العقاب تاركًا بَيّاسة وأُبَّذة بلا حامية ، وانطلق إلى إشبيلية .

★★★

(926) مأساة بيّاسة :

هي مدينة على كُدْية من تُراب ، مُطلة على النهر الكبير المنحدر إلى قرطبة ، وهي ذات أسوار وأسواق ومتاجر ، وحولها زراعات ، ومن أهلها الأديب التاريخي أبو الحجاج يوسف بن إبراهيم البيّاسي مصنِّف كتاب (الإعلام لحروب الإسلام) .

وبعد **موقعة العقاب** ، انطلقت قوة النصارى فاقتحمت المدينة ، بعد أن هجرها أهلها خوفًا على أنفسهم ، ولم يبق فيها إلا الضعفاء والمرضى ، الذين اجتمعوا في الجامع الكبير في المدينة للاحتماء به ، فقام النصارى بقتلهم جميعًا بالسيف .

★★★

(927) مأساة أُبَّذة :

هي مدينة بينها وبين بيَّاسة سبعة أميال على مقربة من النهر الكبير ، ولها مزارع وغلَّات وقمح وشعير ، مالت إليها جيوش النصارى في (609 هـ) ، وقاتل أهلها عنها حتى ملكها النصارى بالسيف ، وقتل فيها كثير وأسر كثير ، وفصل ألفونسو وأصحابه من السبي من النساء والصبيان عددًا يكفي لأن يملئوا به بلاد الروم قاطبة .

★★★

(928) انسحاب الناصر إلى المغرب واستخلاف ابنه :

انسحب الناصر إلى المغرب العربي ، واعتكف في قصره ، واستخلف ابنه وليًا للعهد من بعده ، وهو بعدُ لم يتجاوز خمس عشرة سنة ، ثم توفي الناصر (610 هـ) بعد عام واحد من الاستخلاف وعمره لم يتجاوز الرابعة والثلاثين ، وكان عزمه على الجهاد لم يُعرف عن ملك قبله ، وأصبح المستنصر حاكمًا على البلاد وعمره ست عشرة سنة ، فضيِّعت الأمانة ، ووسِّد الأمر لغير أهله ، وتوالت الهزائم .

شعراء في بلاط الموحِّدين

(929) أبو جعفر بن سعيد وصاحبته حفصة الرَّكونية :

هو شاعر ظهر في هذا العصر ، وعلا نجمه ، هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي ؛ كان ذا خلق سمح جميل وذهن دقيق ، وكان مولعًا بحفصة بنت الحاج الشاعرة الغرناطية الذائعة الصيت الملقبة بالرَّكونية ، وكانت تحتل في عصر الموحُدين مكانة ولأدة في قرطبة ، وكان ولعه بها سبب موته ، واستمتع أبو جعفر وحفصة بهواهما زمنًا ، وأفصح كل منهما عن مشاعره في شعر كثير ، توفي (559 هـ = 1163 م) .

★★★

(930) أبو بكر محمد بن زهر (507 هـ - 596 هـ) :

كان من سلالة دوحة بني زُهر ، التي أنجبت نفرًا من مشاهير الأطباء ، وبرع في

نظم الموشحات ، وله كذلك شعر جيد ، وصف فعل الخمر في الرءوس فأجاد ، ومنها هذه الأبيات التي أوصى أن تكتب على قبره :

تأمَّل بحقك يا واقفًا ولاحظ مكانًا وقعنا إليه

تراب الضريح على وجنتي كأني لم أمش يومًا عليه

أداوي الأنام حذار المنون وَهَا أَنَا قَدْ صِرْتُ رَهْنًا لَدَيْه

★★★

(931) أبو البقاء الرّندي صاحب القصيدة ذائعة الصيت :

هو أبو البقاء صالح بن شريف الرّندي ، وقد ظهر أمره وبقي ذكره بقصيدة يندب فيها ما اقتطعه من الأندلس فرناندو الثالث وجاقمه الأول ، وهي التي ذكرنا بعضها في صدر هذا الكتاب ، **وأولها** :

لكل شيءٍ إذا ما تمّ نقصان فلا يُغَرُّ بطيب العيش إنسانُ

وقد طار ذكر هذه القصيدة وتداولها الناس ، وقد ترجمت إلى الإسبانية .

★★★

(932) ابن الأبّار القضاعي :

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الأبَّار القضاعي ، وصل إلينا من شعره أبيات جميلة رقيقة في النسيب ، وقصيدة ذائعة الصيت ألقاها بين يدي أبي زكريا بن أبي حفص ، وكان قد قصده في سفارة أرسلها الأمير (زيان بن أبي الحملات) الموحدي صاحب بلنسية في ذلك الحين ، **قال فيها** :

أَدرِك بخيلك ، خيل الله ، أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ما التمست فلم يزل منك عز النصر مُلتمسًا

★★★

(933) **علي بن سعيد المغربي** (610 هـ - 673 هـ) :

هو آخر من ظهر من أعلام الشعر خلال هذا العصر هو علي بن سعيد المغربي ، كان في شعره ولعًا بالتفنن في وصف الريح والغصن ، وقد طار اسمه في القرن الماضي في إسبانيا بأبيات ترجمها له خوان فاليرا في شعر إسباني جميل ، يتحدث فيه عن وطنه وحبه ، **يقول فيها** :

هذه مصر ، فأين المغرب ؟ مذ نأى عني دموعي تسكب

فارقته النفس جهلًا إنما يُعرف الشيء إذا ما ذهب

أشهر العلماء في عهد الناصر

(934) **ابن جبير** (540 هـ - 614 هـ) :

هو العلَّامة أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي ، أديب رحَّالة ، ولد ببلنسية (540 هـ) ، تعلم القراءات ، وعني بالأدب فبلغ الغاية فيه ، وتقدَّم في صناعة الشعر ، **من أشهر مؤلفاته** : (رحلة ابن جبير) ، و(نظم الجمان من التشكي من إخوان الزمان) ، و(نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرن الصالح) ، كان من علماء الأندلس بالفقه والحديث ، والمشاركة في الآداب ، نال بالأدب دنيا عريضة ، ثم رفضها وزهد فيها .

توفيَّ بالإسكندرية في التاسع والعشرين من شعبان (614 هـ) .

★★★

(935) **ابن القرطبي** (565 هـ - 611 هـ) :

هو عبد الله بن الحسن بن أحمد بن يحيى بن عبد الله الأنصاري ، مَالقي ، قرطبي الأصل ، يكنى أبا محمد ، ويعرف بالقرطبي ، ولد (565 هـ) ، كان كامل المعارف ، صدرًا في المقرئين والمجودين ، ورئيس المحدِّثين وإمامهم ، واسع المعرفة ، ذاكرًا أسماء رجال الحديث وطبقاتهم وتواريخهم ، وما حُلُوا به من جرح

وتعديل ، ألّف في العروض مجموعات نبيلة ، وفي قراءة نافع ، ولخّص أسانيد الموطأ ، **وله كتاب** : (المُبْدي لخطأ الرّندي) توفي (611 هـ) .

★ ★ ★

(936) دولة الموحِّدين تسير نحو هاوية سحيقة :

دار صراع شديد على السلطة بعد وفاة المستنصر بالله ؛ حيث لم يكن قد استخلف بعدُ ، فأصبح الرجل يتولّى الحكم مدة أربع أو خمس سنوات فقط ثم يُخلع أو يُقتل ، ثم يأتي غيره وغيره ، حتى استقلَّ رجل يُدعى ابن هود بشرق وجنوب الأندلس ، وكان رجلاً جاهلاً ، ضعيف الرأي ، لم يُنصر على النصارى قط .

★ ★ ★

(937) سقوط جوهرة العالم وحاضرة الإسلام (قرطبة) (633 هـ) :

حاصر النصارى قرطبة (633 هـ = 1236 م) ، ولم يهتم ابن هود باستغاثة أهل قرطبة ؛ لأنه كان مشغولاً بقتال بني الأحمر ، فاضطُرَّ أهل قرطبة إلى الإذعان والتسليم والخروج من قرطبة تاركين الكنوز والآثار الفاخرة متجهين جنوبًا ، سقطت قرطبة صاحبة ثلاثة آلاف مسجد ، وثلاثة عشر ألف دار ، وعاصمة الخلافة لأكثر من خمسمائة عام ، وجوهرة العالم ، وصاحبة أكبر مسجد في العالم بعد أن تحوّل المسجد الجامع إلى كنيسة لا تزال قائمة إلى اليوم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

★ ★ ★

(938) سقوط بلنسية وموقعة أنيشة (634 هـ) :

حاصر النصارى بلنسية خمس سنوات متصلة على يد ملك أرجوان بمساعدة فرنسا ، وكاد الناس أن يهلكوا جوعًا ، وفيها حدثت عدة مواقع أشهرها موقعة أنيشة (634 هـ = 1237 م) والتي هلك فيها الكثير من المسلمين والعلماء ، وقد حاول بنو حفص في تونس مساعدة بلنسية ولكن بدون جدوى ، فاضطر الناس إلى ترك البلد ، وهي سياسة التهجُّر ؛ فإما القتل وإما التهجر ، فهُجّر خمسون ألفًا من المسلمين إلى تونس .

(939) سقوط ثلاثة أرباع الأندلس في يد النصارى :

سقطت (دانية) (641 هـ = 1243 م) ، وفي (643 هـ) سقطت جَيّان ، ولم يبقَ في بلاد الأندلس إلا ولايتان فقط ؛ **هما** : ولاية غرناطة في الجنوب الشرقي من البلاد ، وولاية إشبيلية في الجنوب الغربي ، وهما يمثلان ربع بلاد الأندلس .

★★★

(940) بلنسية قاعدة الأندلس :

هي مدينة سهلية ، وقاعدة من قواعد الأندلس ، في مستوٍ من الأرض ، عامرة القطر ، كثيرة التجارب ، وبها أسواق ، وهي على نهر جارٍ ينتفع به ، وبها بساتين وجنات ، وعمارات متصلة ، وهي من حواضر الأندلس ، ولأهلها حُسْن زي ، وكرم طباع ، والغالب عليهم طيب النفوس ، وهي كثيرة الفواكه والثمار ، **قالوا في بلنسية** :

يا للجزيرة أضحى أهلها جَزَرًا ... للحادثات وأمسى جدّها تعسا

يا للمساجد عادت للعِدى بِيَعًا ... وللنداء يُرى أثناءها جَرَسا

وفي بلنسية منها وقرطبة ... ما يُنْسِفُ النّفس أو ما ينزف النفسا

مملكة غرناطة

(941) ابن الأحمر ملك غرناطة التابعة لقشتالة :

هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر ، والذي ينتهي نسبه إلى سعد بن عبادة الخزرجي صاحب رسول الله ﷺ ، ولكن هيهات هيهات بين الشخصيتين ، كانت الأطماع الشخصية في تلك الآونة تذهب بالدين والقومية والخطر المشترك الأمر الذي جعل ابن الأحمر يرضى بالتبعية لمملكة قشتالة .

★★★

(942) معاهدة الخزي والعار بين ابن الأحمر وملك قشتالة :

عقد ملك قشتالة **فرناندو الثالث** معاهدة مع ابن الأحمر ، تقضي بأن يدفع ابن الأحمر الجزية إلى ملك قشتالة ومقدارها مائة وخمسون ألف دينار من الذهب سنويًا ، وأن يحضر اجتماع مجلس قشتالة النيابي (الكورتيس) ؛ وبهذا تكون غرناطة تابعة لمملكة قشتالة ضمنيًا ، وأن يحكم غرناطة باسم ملك قشتالة علانية ، وأن يسلمه ما بقي من حصون جيّان وأرجونة وغرب الجزيرة الخضراء حتى طرف الغار ، وأن يساعده في حروبه ضد أعدائه إذا لزم الأمر أيًا كانت الدولة التي يحاربها .

★★★

(943) اختفاء إشبيلية من الخارطة الإسلامية بأيدي المسلمين :

التزم ابن الأحمر بعهوده مع فرناندو الثالث ، الذي استولى على مدينة قرمونة الحصن الأمامي لإشبيلية ، ثم افتتح باقي الحصون بمساعدة ابن الأحمر الذي كان ينصح المسلمين بالتسليم حقنًا للدماء والشروط السخيّة ، وفي (645 هـ) استولى ملك قشتالة على جميع الحصون الأمامية لإشبيلية ، ثم تحرك جيش قشتالة وجيش المسلمين لمحاصرة إشبيلية مدة سبعة عشر شهرًا ، وفي (27) رمضان (646 هـ) ، سقطت إشبيلية بأيدي المسلمين وبسبب معاونتهم للنصارى ، سقطت ثاني أكبر مدينة في الأندلس بعد قرطبة ؛ صاحبة التاريخ والعمران ، وهُجّر منها أربعمائة ألف مسلم ، وسقط مسجدها الكبير الذي أسسه يعقوب المنصوري بعد (الأرك) ، لا زال إلى اليوم كنيسة يُعَلّق فيها الصليب ، ويُعبد فيها المسيح بعد أن كان من أعظم مساجد الأندلس .

★★★

(944) غرناطة ذات الكثافة السكانية الضخمة ... فما سرّ ذلك ؟

كان من الصعوبة دخول جيوش النصارى إلى غرناطة في هذا الوقت ، نظرًا للكثافة السكانية العالية ؛ الناتجة عن لجوء أهالي مدن المسلمين التي سقطت إليها ، مما يصعب دخول قوات النصارى ، أضف إلى ذلك أنها كانت ذات حصون كثيرة ومنيعة .

★★★

(945) النصارى يحاولون التهام مملكة غرناطة :

ورغم المعاهدة التي كانت تقوم على أساس التعاون والتصالح والنصرة بين الفريقين ، إلا أن النصارى كانوا بين الحين والآخر - كعادتهم في نقض المعاهدات والمواثيق - يتهجمون على بعض مدن غرناطة ، وقد فاتحوا ابن الأحمر بالغزو والعدوان واحتلوا بعض أراضيه في (660 هـ) ، ولكنه استطاع ردّهم بمعاونة من المتطوعين والمجاهدين الذين جاءوا من وراء البحر ، وأن يهزمهم ، وكان هذا أول تطور غريب في (حرب الاسترداد) التي يتزعمها ألفونسو العاشر ملك قشتالة آنذاك .

★ ★ ★

(946) وضوح نيَّة ملك قشتالة في العمل على (حرب الاسترداد) :

في سنة (662 هـ) شدد ملك قشتالة ضغطه على القواعد الإسلامية ؛ فتنازل ابن يونس صاحب إستجة عنها إلى النصارى ، ودخلها دون خيل قائد القشتاليين ، فأخرج منها أهلها المسلمين ، وقتل وسبى كثيرًا منهم ، وفي سنة (663 هـ) بدأت الهجمات على جميع ممالك غرناطة ، وكثر ضغط القشتاليين ، فلم يجد ابن الأحمر سوى مهادنة ملك قشتالة ومصادقته ، فتنازل له في (665 هـ) عن عدد كبير من الحصون بلغ أكثر من مائة موضع ، معظمها في غرب الأندلس ، وبهذا عقد الصلح بين الطرفين .

★ ★ ★

(947) مدينة إِسْتِجَّة :

هي مدينة قديمة لم يزل أهلها في جاهلية وإسلام ، على انحراف وخروج عن الطاعة ، ومعنى هذا الاسم عندهم (جَمَعَتْ الفوائد) ، **وكان يُقال عنها** : « إستجة البغي ، مذكورة باللعنة والخزي ، يذهب خيارها ، ويبقى شرارها » ، وهي مبنية على الرَّصيف العظيم المسلوك عليه من البحر إلى البحر ، وهي مدينة واسعة ذات أسواق عامرة ، وجامعها في وسطها مبنيٌّ بالصخر تجاوره كنيسة النصارى ، والمدينة كثيرة الثمار ، عذبة الماء ، نضيرة الفاكهة .

★ ★ ★

(948) ابن الأحمر يستغيث بيعقوب المريني :

عاد النصارى إلى التحرش رغم المعاهدة ، وذلك في (668 هـ) ؛ حيث سار ملك قشتالة إلى الجزيرة الخضراء فعاث فيها فسادًا وتخريبًا ، وهنا لم يجد ابن الأحمر إلا طريقًا واحدًا ، وهو أن يولي وجهه شطر المغرب ؛ لأنه عاهد مَنْ لا عهد له ، فبعث إلى أمير المسلمين أبي يعقوب المريني ملك المغرب يطلب منه النصرة والغوث والإنجاد ، ولم يعش ابن الأحمر حتى يرى نتيجة استغاثته ؛ إذ توفي بعد ذلك بقليل .

★★★

(949) مَنْ هو يعقوب المريني ؟

كان رجلًا صوّامًا قوامًا ، دائم الذكر ، كثير الفكر ، لا يزال في أكثر نهاره ذاكرًا ، وفي أكثر ليله قائمًا يصلي ، كثير الرأفة والحنين على المساكين ، متواضعًا في ذات الله تعالى لأهل الدين ، متوقفًا في سفك الدماء ، كريمًا جوادًا ، منصور الراية ، لم تهزم له راية قط ، ولم يكسر له جيش ، ولم يغزُ عدوًا إلا قهره ، ولا لقي جيشًا إلا هزمه ودمَّره ، ورث دولة الموحِّدين في المغرب (668 هـ) ، وتسمّى بـ (أمير المسلمين) .

★★★

(950) الأندلس تستورد النصر دومًا :

اعتادت الأندلس أن تستورد النصر من خارجها ، فقد ظلت تستورد النصر لأكثر من مائتي عام من خارج أراضيها ، فمرة من المرابطين ، وأخرى من الموحِّدين ، وثالثة من بني مرين ، فلم تقم للمسلمين في الأندلس قائمة خلال هذه الفترة إلا على أكتاف غيرهم من بلاد المغرب العربي .

★★★

(951) ولاية محمد الفقيه خلفًا لأبيه :

تُوفي محمد بن الأحمر الأول (671 هـ = 1273 م) ، واستخلف من بعده ابنه

محمدًا ، وكانوا يلقبونه بالفقيه ؛ لانتحاله طلب العلم أيام أبيه ، وكان أبوه قد أوصاه بالاستعانة ببني مرين حتى يواجه كثرة هجمات ألفونسو على أطراف غرناطة .

★★★

(952) عبور بني مرين إلى الأندلس :

كان ابن الأحمر قد استعان في حياته ببني مرين ، فأرسل إليه المنصور المريني حوالي ثلاثة آلاف مجاهد تحت قيادة بعض أقاربه فاستقروا بالأندلس ، واستطاعوا أن يردُّوا الهجوم عن غرناطة ، وحفظوها من السقوط كغيرها من الممالك ، وفي (673 هـ) أرسل له خمسة آلاف جندي تحت قيادة ابنه للجزيرة حتى يفرغ من استعداده للجواز ، وفي (674 هـ) كان عبور المنصور المريني الأول ليلاقي النصارى في اللقاء المرتقب .

★★★

(953) موقعة الدونونية ونصرٌ جديد على النصارى :

بالقرب من قرطبة التقى المسلمون بقيادة المنصور المريني مع النصارى بقيادة أكبر قواد قشتالة دون نونيو دي لاري ، الذي سميت المعركة باسمه ، وفي سنة (674 هـ = 1276 م) ، حقق المسلمون انتصارًا عظيمًا بعدد لم يتجاوز عشرة آلاف مجاهد ، وقتل من النصارى ستة آلاف مقاتل ، وأُسِر سبعة آلاف وثمانمائة آخرين ، وقتل دون نونيو ، وغنم المسلمون غنائم لا تُحصى .

★★★

(954) المنصور يعقوب يتمم انتصاراته :

بعد المعركة قاد المنصور جيشه إلى أحواز إشبيلية فحاصرها حصارًا شديدًا ، وقتل وسبى ، وضيّق على أهلها تضييقًا شديدًا ، ثم رحل بجيشه عنها محملاً بالغنائم إلا شريش فحاصرها ثم فضّ الحصار ، وعاد إلى الجزيرة الخضراء ، ثم حاصر قرطبة فرضخت هذه الممالك جميعها للجزية من جديد .

★★★

(955) الفقيه يكرر سيرة ابن عباد والخيانة العظمى :

خشي محمد بن الأحمر الفقيه من كثرة فتوحات المنصور المريني ، إذ لا طاقة له بها ، ففعل كما فعل المعتمد بن عباد مع ابن تاشفين من قبل ، حيث قام الفقيه بالاستعانة بألفونسو العاشر ملك قشتالة في طرد المريني من الجزيرة ، فأتى ملك قشتالة بجيشه وأساطيله وحاصر جزيرة (طريف) ، فسمع المنصور بالخبر فأراد العبور إليهم إلا أنَّ المضايقات من قبل ملوك المغرب منعته ، فحاصر ألفونسو المسلمين حصارًا جعلهم يقتلون صغارهم خشية عليهم من معرة الكفر ، حتى أرسل المنصور ابنه أبا يعقوب على رأس أسطول ضخم (678 هـ = 1279 م) فالتقى بالنصارى ، وعاد الفقيه إلى رشده فانضم إلى أسطول المسلمين ، فهزم النصارى هزيمة نكراء واستولى المسلمون على سفنهم ، وفرّ النصارى من الجزيرة .

★★★

(956) صفاء العلاقة بين ابن الأحمر الفقيه والمنصور المريني :

هذه الخيانة العظمى التي فعلها ابن الأحمر في أول الأمر أوغرت صدر المنصور المريني عليه ، ولكن رغم هذا أرسل السلطان يعقوب المريني رسالة إلى ابن الأحمر يجدّد فيها الرغبة في الصلح والتحالف ، ويحذّر من خطورة انفصام هذا التحالف على المسلمين في الأندلس ومصيرهم ، فقبل ابن الأحمر ، وهنا هدأت العلاقة وصفت لفترة من الزمن .

★★★

(957) انقلاب الحال في قشتالة ومساعدة المريني لألفونسو :

ثار سانشو بن ألفونسو على أبيه ، فلجأ ألفونسو العاشر إلى المنصور المريني ، فذهب المريني لمعاونة ألفونسو استغلالاً لهذه الفرصة في ضرب بعضهم ببعض ، ثم صالحه النصارى بعد ذلك على الهدنة ، ثم وفد سانشو بعد ذلك على أمير المسلمين ، فسأله المريني أن يرسل إليه من الكتب التي أخذوها من بلاد الأندلس ، فأرسل إليه بعد عودته إلى بلاده ثلاثة عشر حملاً .

(958) وفاة المنصور المريني وتكرار خيانة ابن الأحمر :

في (685 هـ = 1286 م) توفي المنصور المريني ، وخلفه ابنه يوسف بن المنصور ، فعرض ابن الأحمر عليه الولاء والطاعة ، فرضي المنصور بولاء ابن الأحمر ودارت معارك هزمت فيها جيوش النصارى وأساطيلهم هزيمة قاسية ، مما خوّف ابن الأحمر وسانشو ، وهنا يعرض سانشو على ابن الأحمر الاتفاق على إخراج المرينيين من جزيرة (طريف) ، فوافق ابن الأحمر شريطة أن يأخذ (طريف) أن يتنازل لملك قشتالة عن ستة حصون .

★★★

(959) جريمة كبرى وخيانة عظمى وسقوط :

حاصر ملك قشتالة جزيرة (طريف) بمعاونة ابن الأحمر ، الذي كان يمدّه بالمؤن والأقوات حتى أُنهِك أهلها فاضطروا إلى التسليم ، ولكنّ النصارى لم يسلموا الجزيرة لابن الأحمر بل أخذوها لأنفسهم ، وبسقوط (طريف) انقطعت بلاد المغرب عن الأندلس ، وانقطع العون والمدد إلى الأندلس تمامًا .

★★★

(960) ولاية الأعمش المخلوع وموالاة ملك قشتالة :

في سنة (701 هـ = 1302 م) توفي ابن الأحمر الفقيه ، وتولّى من بعده محمد الثالث ، الذي كان يلقَّب بالأعمش ، ويُعرف بالمخلوع ، وكان رجلاً ضعيفًا ؛ لأنه ولّى أموره لوزيره أبي عبد الله الحكيم الذي انصرف إلى موالاة ملك قشتالة ، وزاد في ذلك ، إذ أوعز إلى المخلوع ضرورة قتال المرينيين وحصار سبتة حتى يقوى سلطانه ، وهذه الحروب استغلها النصارى فزحفوا بجيوشهم نحو جبل طارق (709 هـ) حتى سقط في أيديهم ، وبهذا عُزِلت بلاد المغرب تمامًا عن بلاد الأندلس ، وتُركت الأندلس وغرناطة لمصيرهما المحتوم .

★★★

(961) هل بقيت غرناطة طويلًا بعد ذلك ؟ :

نعم ، بقيت غرناطة قرابة مائتي عام منذ سنة (709 هـ = 1309 م) وحتى (897 هـ = 1492 م) ، وظل الحال كما هو عليه في بلاد غرناطة ، ولم تسقط ، وكان السر في ذلك والسبب الرئيس هو ذاك الصراع الطويل الذي دار بين مملكتي قشتالة وأرجوان ، بعد أن صارت كل منهما مملكة ضخمة ، وكلتاهما قامت على أنقاض الدولة الإسلامية في بلاد الأندلس .



(962) مملكة غرناطة والحفاظ على التكوين والبناء الاجتماعي :

حاولت غرناطة ، رغم الظروف المحيطة ، المحافظة على ما تبقى للأندلس من أرضٍ ، وعلى التكوين الاجتماعي ، وأنتجت بناءً حضاريًا كبيرًا في مختلف الميادين ؛ فقدمت التآليف ، ولمع العلماء ، وتوفرت الاختراعات ، مثل : المدافع التي ترمي نوعًا من البارود ، وتحويل البارود إلى طاقة قاذفة ، وصناعة السفن ، والأنسجة ، والورق ، والفخار المذهَّب ، والحلي ، وازدهرت الزراعة ، وبُنيت المساجد ، والقصور ، والدور ، والقناطر ، فضلاً عن التنظيمات المختلفة للمجتمع ، حتى غدت مدينة غرناطة من أجمل مدن العالم بشوارعها ، وميادينها ، وحدائقها ، ومبانيها ، ومرافقها ، حتى ضمّت مليون نفس .



(963) اتحاد المملكتين النصرانيتين بعد صراع دام طويلًا :

ظهرت بوادر هذا الاتحاد في (879 هـ = 1474 م) ، عندما توفي هنري الرابع ملك قشتالة ، تاركًا ابنة وأختًا ، وكانت أخته إيزابيلا متزوجة من ابن ملك أرجوان ، وصار الأمر لها ، على أن تحكم هي قشتالة سرًا لقاء أن تصك العملة باسم الملكين ، وذلك في عام (1479 م) ، وكانت إيزابيلا هذه صليبية كاثوليكية ، وكان زوجها كاثوليكيًا ، فاتحدت راية إسبانيا القوية بعد سلسلة من الحروب فأشهرت الحرب على بقية الممالك الإسلامية .

(964) غرناطة بين الغالب والزغل :

في سنة (871 هـ = 1467 م) وقبل سقوط غرناطة بستٍّ وعشرين سنة ، كان يحكم غرناطة علي بن سعد بن محمد بن الأحمر ، وكان يلقب بالغالب بالله على عادة ملوك الغرناطيين ، وكان أخوه أبو عبد الله حمد الملقب بـ (الزغل ؛ **أي** : الشجاع) قد تصارع معه على غرناطة الهزيلة ، فاستعان الزغل بملك قشتالة ضد أخيه الغالب ، فانتهت الحرب بتقسيم غرناطة إلى جزء شمالي على رأسه الغالب بالله ، وجزء جنوبي على رأسه الزغل .

★★★

(965) غرناطة وسلسلة من الحروب ، وإهمال أميرها شئونها :

وفي الوقت الذي استقر المُلك فيه في مملكة إسبانيا تحت راية موحدة قوية ، كانت مملكة غرناطة تغرق في حروب وانقسامات داخلية أهلية ، مع إهمال أميرها أبي الحسن علي بن سعد بن الأحمر لشئون مملكته ، وركونه إلى الراحة والدعة ، وسعيه خلف ملذاته ، ورفض الجهاد ، ونتيجة لذلك قامت ثورة وضعت أبا عبد الله محمد في السلطة ، وفرّ أبوه إلى الزغل في مالقة فقاتل النصارى في معارك عديدة ، وعاد محملاً بالغنائم ، وأثناء عودته قطع النصارى عليه الطريق قرب إلياسنة فأسروه ، وعندها عاد محمد بن سعد إلى غرناطة .



(966) جهود مضنية لافتداء الأسير محمد الصغير :

بذل أبو الحسن حين عوده إلى العرش جهده لافتداء ولده ، لا بباعث الحب له والشفقة عليه ، ولكن ليأمن شرّه ومنافسته ، فعرض على فرناندو فدية كبيرة مع إطلاق سراح النصارى الذين عنده فأبى فرناندو ، ثم بذلت الأميرة عائشة (الحرة) مجهودًا آخر لإنقاذ ولدها ، فانتهت المفاوضات بعقد معاهدة سريّة تتلخص في أن يعترف الأسير بطاعة الملك فرناندو ، ويدفع جزية سنوية قدرها اثنا عشر ألف دوبلًا من الذهب ، وأن يفرج عن أربعمائة من النصارى الموجودين في غرناطة ، ثم سبعين أسيرًا كل عام لمدة

خمس سنوات ، على أن يقدّم هذا الأمير ابنه الأكبر رهينة مع بعض الأمراء ضمانًا بحسن وفائه .

★★★

(967) حصار غرناطة رغم كل هذه العهود :

أصبح الصغير على ولاية (غرناطة) والزغل على (وادي آش) ، وملك إسبانيا تحت قبضته (مالقة) ، واستكمالاً للآمال في (895 هـ) انطلق ملك إسبانيا من (مالقة) إلى (ألمرية) على ساحل البحر فاستولى على كل ما في طريقه من مدن وحصون ، ثم توجّه بعد (ألمرية) إلى (وادي آش) فاستولى عليها بعدما أحاط (الزغل) من كل جانب ، وهنا حوصرت (غرناطة) وقراها ومزارعها من كل مكان بجيوش النصارى .

★★★

(968) صلح عجيب وغريب بين الأمير الصغير وملك إسبانيا :

ضيَّق ملك إسبانيا الخناق حول غرناطة ، واستولى على برجين كبيرين حصينين **وهما** : برج ملاحة غرناطة ، وبرج قرية همدان ، وزاد في تحصينهما وشحنهما بالرجال ، وفي سنة (985 هـ) عُقِدَ صلحٌ ، تعهد فيه الصغير بأن يُسلِّم مدينة (غرناطة) للملكين الكاثوليكيين متى تم تسليم (بسطة) ، و (ألمرية) ، و (وادي آش) .

★★★

(969) ملك إسبانيا يرسل خطابًا للأمير الصغير فحواه تسليم (غرناطة) :

في سنة (895 هـ = 1490 م) أرسل ملك إسبانيا إلى السلطان أبي عبد الله خطابًا يطلب فيه تسليم مدينة الحمراء مقر الملك والحكم ، والمقصود (غرناطة) كلها ، فكان ردّ السلطان بالرفض وإعلان الحرب ، ثم العدول عن فكرة الحرب وإرسال وزيره يوسف بن كُماشة ومعه تاجر كبير من سراة غرناطة يسمى إبراهيم القيسي لإقناع ملك إسبانيا بالعدول عن مطلبه ، ولكن باءت كل المحاولات بالفشل .

★★★

(970) لا بديل عن الحرب ... لماذا ؟

أصبحت (غرناطة) معقل الإسلام الوحيد ، وغدت تموج بسكانها حتى أصبحت تضم بين أسوارها أكثر من أربعمائة ألف نفس ، وكانت موجة من اليأس والنقمة تغمر هذه الألوف ؛ لأنها أوذيت في أوطانها وفي أولادها وأهلها وهربت إلى غرناطة ، وكانت فكرة التسليم للعدو الباغي أو مباغتته تلقى استنكارًا عامًّا ، وكان السلطان يدرك هذا كله ، فجمع الكبراء والقادة فأجمعوا على رفض ما طلبه ملك النصارى ، وعزموا عزمًا راسخًا على الدفاع حتى الموت عن أوطانهم ودينهم .



(971) لقاء ونتيجة غير متوقعة على الإطلاق :

أبلغ السلطان أبو عبد الله ملك النصارى بالقول الفصل ، ألا وهو المقاومة والدفاع وعدم التسليم والإذعان ، فجمع ملك قشتالة جموعهُ ، وحاصر غرناطة ، فحاربه المسلمون ، وظهرت بطولة الأمير أبي عبد الله محمد ، وصمد المسلمون في وجه الطاغية ، فارتدّ خائبًا خاسرًا ، وبعدها بدأ المسلمون يستردون الممالك السابقة ، ويساعدون الثوار في الممالك التي في أيدي النصارى ، فاستطاعوا الاستيلاء على الحصون والمدن القريبة والمهمة ، فحاصرها مرة بعد مرة ، وفي كل مرة يعود ملك غرناطة خائبًا خاسرًا دون جدوى ، بل أصبحت سرايا المسلمين تخرج للعيث في البلاد النصرانية القريبة .



(972) انتفاضة داخل غرناطة بقيادة (موسى بن أبي غَسَّان) :

في الحصار الذي ضربه ملك قشتالة حول غرناطة مرة بعد مرة ، ظهرت حركة جهادية وانتفاضة عسكرية من قبل رجل يسمى (موسى بن غسان) ، إذ حرّك الجهاد في نفوس الناس وحمسهم للموت في سبيل الله ، والدفاع عن بلدهم وهويتهم ، فاستجاب له الشعب وظل يجاهد طيلة سبعة أشهر ضد الهجمات النصرانية الشرسة .

★ ★ ★

(973) مفاوضات سرِّيَّة بين الأمير أبي عبد الله وملك قشتالة :

كانت نفس السلطان توّاقة إلى التسليم ، ولكنه كان يخشى العامة ، وقد ظلت بسالة الرجال سبعة أشهر فنيت فيها خيل المسلمين ، وقلّت النجدات ، وزادت الجراحات ، والبسالة وحدها لا تكفي ، فراسل الغرناطيون السلطان محمدًا يطلبون منه عرض التسليم على ملك قشتالة ، فصادف هوى في نفسه ، خاصة وأن هناك مَن يشير إلى أنه كانت هناك مساعٍ تبذل في الخفاء لتحقيق ما يمكن من الضمانات والمغانم الخاصة لأبي عبد الله وأسرته ووزرائه ، يحصل من خلالها على ضياع وأموال نقدية وحقوق مالية ، إذا هو أقنع أهل غرناطة بالتسليم .

★ ★ ★

(974) تسليم غرناطة مقابل سبعة وستين شرطًا :

استقر الأمر على تسليم غرناطة بالأمان مقابل سبعة وستين شرطًا ، **منها** : تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال ، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ، وإقامة شريعتهم ولا يُحكمون إلا بها ، وأن تبقى المساجد والأوقاف كما كانت ، وألا يدخل النصارى دار مسلم ، وألا يتولى على المسلمين إلا مسلم أو يهودي ، وألا يُقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم ، وأن مَنْ تَنَصّر من المسلمين يوقف أيامًا حتى يظهر حاله ، وأن يسير المسلم في بلاد النصارى آمنًا ، ولا يمنع مصلٍ ولا مؤذن ولا صائم ولا غيره على أمور دينه .

★ ★ ★

(975) موسى بن أبي غسان يرفض الصلح ويلقى الله شهيدًا :

وقف موسى في قصر الحمراء رافضًا هذه الشروط **قائلًا** : « لا تخدعوا أنفسكم ، ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم ، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم ، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها ، وتدنيس مساجدنا ، وتخريب بيوتنا . . . أما أنا فوالله لا أقبل هذا » ، وانطلق يقابل سرية من سرايا النصارى ، وبمفرده يقتل معظمهم ثم يقتل في سبيل الله .

★ ★ ★

(976) تسليم غرناطة وتعليق الصليب فوق البرج الأعلى للقصر :

أعطى أبو عبد الله محمد الصغير الموافقة بتسليم غرناطة لملك إسبانيا فرناندو الخامس وزوجته إيزابيلا ، وعندها دخل الملكان في خيلاء قصر الحمراء الكبير ومعهما الرهبان ، وفي أول عمل رسمي يقومون بتعليق صليب فضي كبير فوق برج القصر الأعلى ، ويعلق فوق هذا البرج لوحة تعلن أن غرناطة أصبحت تابعة للملكين الكاثوليكيين ، وأن حكم المسلمين قد انتهى من بلاد الأندلس .

★★★

(977) زفرة العربي الأخيرة ، ومقوّلة خالدة :

وفي نكسة كبيرة وقف أبو عبد الله محمد بن الأحمر على ربوة عالية تطل على قصر الحمراء يتطلع منها إليه ، وانطلق يبكي حتى بللت دموعه لحيته ، حتى **قالت له أمه (عائشة الحرة)** : « أجل ، فلتبكِ كالنساء مُلكًا لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال » ، وإلى هذه اللحظة لم يزل هذا التل موجودًا في إسبانيا ، حيث يذهب الناس إليه ويتأملونه ، **وقد أطلق على هذا التل** : (زفرة العربي الأخيرة) ، وكان ذلك في الثاني من شهر ربيع الأول ، سنة (897 هـ) الموافق الثاني من يناير لعام 1492 م .

★★★

(978) أبناء محمد الصغير في المغرب يعدّون من الشحاذين :

بعد هذا الموقف هاجر أبو عبد الله محمد إلى المغرب ، واستقر بفاس ، وبنى هناك قصورًا على طراز الأندلس ، وأصبح أبناؤه يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين ، ويعدون من جملة الشحاذين ، فلعنة الله على ترك الجهاد الذي يئول إلى هذا المثوى وتلك المنزلة .

★★★

(979) الملكان فرناندو وإيزابيلا يطهران الأندلس من الكفرة (المسلمين) ! :

بعد خروج أبي عبد الله محمد الصغير من البلاد ، نقض النصارى عهد الحفاظ على

الحريات الدينية في غرناطة وحماية الأماكن المقدسة ، فأهانوا المسلمين بشدة ، وصادروا أموالهم ، وبعد تسع سنوات من سقوط غرناطة (1051 م) أصدر الملكان فرناندو الخامس وإيزابيلا أمرًا بتطهير الأندلس من الكفرة (المسلمين) وحظر وجودهم في الأندلس ، فإن تنصّروا فلا بأس بذلك وإلا يعاقبوا بالموت أو بمصادرة أموالهم .

★★★

(980) تنصّر المسلمين ليصبحوا مُورِسْكيين :

وحتى يستطيع المسلمون العيش في بلاد الأندلس في ظل حكم النصارى الإسبان ، تنصّر بعضهم ، وهؤلاء لم يرتضِ النصارى لهم بالنصرانية فأهانوهم وسمّوهم بالمُورسْكيين ؛ احتقارًا لهم ، وتصغيرًا من شأنهم ، حيث لم يكن الموركسي نصرانيًا من الدرجة الأولى ، لكنه كان تصغيرًا للنصراني الأصيل .

★★★

(981) وثيقة قضائية في ديوان التحقيق الإسباني :

إن هذه الوثيقة قد نقلها الدون لورنتي مؤرخ ديوان التحقيق الإسباني ، **والتي تنص على** : « يعتبر الموركسي أو العربي المتنصر قد عاد إلى الإسلام إذا امتدح دين محمد ، **أو قال** : إن يسوع المسيح ليس إلهًا ، وليس إلا رسولاً ، أو أن صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أمه ، ويجب على كل نصراني أن يبلغ عن ذلك ، وأن يبلغ عمّا إذا كان قد رأى أو سمع بأن أحدًا من الموركسيين يباشر بعض العادات الإسلامية » .

★★★

(982) حرب العصابات وقرار التَّهْجير :

إثر قرارات التنصير ، التي أصدرها الملكان فرناندو وإيزابيلا قامت ثورات شعبية ومواجهات محدودة الإمكانيات بمنطق (حرب العصابات) ؛ إذ كان المجاهدون يختبئون في الجبال والأودية والمناطق البعيدة ، واستطاعوا أن يكبّدوا الإسبان خسائر فادحة ، وعندها عزم الإسبان على القضاء على الثوار نهائيًا ، إلا أنهم فشلوا فشلاً

ذريعًا وأصدروا عفوًا عامًا عنهم ، وسمحوا لهم بالهجرة إلى بلاد المغرب دون أن يكون معهم غير الثياب التي يرتدونها ، وكان ذلك في (1609 م) .

★★★

(983) مصرع غرناطة دينيًّا وثقافيًّا :

عمل الإسبان على تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية ، وبأشد وسائل العنف ، ولما رفض المسلمون عقائد النصارى ودينهم المنحرف ، وامتنعوا عنه وكافحوه ، اعتبرهم النصارى ثوارًا وعملاء لجهات خارجية في المغرب ، والقاهرة ، والقسطنطينية ، وبدأ القتل فيهم ، ومزقوهم بلا رأفة ولا شفقة ولا رحمة ، بل الأشد من ذلك قيام الكاردينال الإسباني كمينس ، ذلك الصليبي الحاقد ، بحرق ثمانين ألف كتاب جمعت من غرناطة وأرباضها في يوم واحد .

★★★

(984) محاكم التفتيش للبحث عن المسلمين :

أنشأ الإسبان ما يسمى بـ (محاكم التفتيش) ؛ وذلك للبحث عن المسلمين الذين ادَّعوا النصرانية وأخفوا الإسلام ، فكانوا إذا وجدوا رجلًا يدّعي النصرانية ويخفي إسلامه ؛ كأن يجدوا في بيته مصحفًا ، أو يجدوه يُصَلِّي ، أو كان لا يشرب الخمر ، أقاموا عليه الحدود المغلظة ، فكانوا يلقون بهم في السجون ، ويعذبونهم عذابًا لا يخطر على بال بشر ؛ إذ كانوا يملأون بطونهم بالماء حتى الاختناق ، ويضعون في أجسامهم أسياخًا محمية ، ويسحقون عظامهم بآلات ضاغطة ، ويمزقون أرجلهم ، وكانت لهم توابيت مغلقة بها مسامير حديدية ضخمة تنغرس في جسم المعذب تدريجيًا ، ويدفنونهم أحياء ، ويقطعون الألسن وغير ذلك من أبشع ألوان التعذيب .

★★★

(985) كيف كانوا يعذبون النساء العنيدات ؟

كان هناك عذاب اختصت به محاكم التفتيش النساء العنيدات اللائي يشتمن رجال المحكمة ؛ وهو تعرية المرأة إلا ما يستر عورتها ، وكانوا يضعون المرأة في مقبرة

مهجورة ، ويجلسونها على قبر من القبور ، يضعون رأسها بين ركبتيها ويشدون وثاقها ، وهي على هذه الحالة السيئة ، فلا يمكنها الحراك ، وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديدية ، ويرخون شعرها فيجللها ، وتظهر لمن يراها عن كثب كأنما هي جنيّة ، وتُترك المسكينة على هذه الحالة إلى أن تُجَنّ ، أو تموت جوعًا ورعبًا .

★★★

(986) محاكمة الموتى والغائبين في موكب (الأوتودافي) :

كان دستور **ديوان التحقيق** يجيز محاكمة الموتى والغائبين ، وتصدر الأحكام في حقهم ، وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء فتصادر أموالهم ، وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق ، أو نبش قبورهم ، وتستخرج رفاتهم ؛ لتحرق في موكب (الأوتودافي) ، وكذلك يتعدى أثر الأحكام الصادرة بالإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده ، فيقضي بحرمانهم من تولّي الوظائف العامة وامتهان بعض المهن الخاصة .

من علماء غرناطة

(987) الشريف الإدريسي مصمم خريطة العالم (493 هـ - 560 هـ) :

هو محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الإدريسي الحسني الطالبي ، مؤرخ من أكابر العلماء بالجغرافيا ، ولد في سبتة ونشأ وتعلم بقرطبة ، ترك لنا موسوعة جغرافية هي : (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ، قام برحلات عديدة وتجول في شبه الجزيرة الإسبانية ، ووصل إلى شواطئ فرنسا وإنجلترا الجنوبية ، ثم عبر البحر إلى المغرب ، وانتهى به المطاف إلى جزيرة صقلية ، وفيها صمم خريطة العالم وهي الأدق والأفضل حتى وقت قريب .

★★★

(988) لسان الدين بن الخطيب (713 هـ - 776 هـ) :

هو محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني ، وزير مُؤرّخ نبيل ، كان أسلافه يُعرفون ببني الوزير ، وُلِد ونشأ بغرناطة ، استوزره سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل (733 هـ) فعظمت مكانته ، ثم شعر بسعي حاسديه في الوشاية به ، فكاتب عبد العزيز بن علي المريني برغبته في الرحلة إليه ، كان طائر الصيت في المغرب والمشرق ، عرف الثناء عليه بالعنبر والعبير ، كان مثلًا في الكتابة والشعر والطب ومعرفة العلوم على اختلاف أنواعها ، **من مؤلفاته** : (الإحاطة في أخبار غرناطة) ، (الإعلام في مَنْ بُويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام) ، و(اللمحة البدرية في الدولة النصرية) ، و(رَقْم الحُلَلِ في نظم الدول) ، و(أعمال الأعلام) ، و(مقنعة السائل عن المرض الهائل) ، و(عمل من طب لمن أحب) . . . . إلخ » .

★★★

(989) ابن بطوطة (703 هـ - 779 هـ) :

هو الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي ، ثم الطنجي المعروف **بابن بطوطة** ، ولد في طنجة (703 هـ = 1304 م) ، ينتمي إلى قبيلة لواتة ، وهي قبيلة بربرية كبيرة ، **يُعَدُّ أشهر رحالة عربي** ، بل سيد رحالة القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر الميلادي دون منازع ، حيث قضى ثمانية وعشرين عامًا متنقلًا أو مرتحلًا في أجزاء العالم المعروفة في أيامه ، ولا يخفى على ذي عقل أنه رحّال العصر ، مات في مراكش (779 هـ = 1377 م) ، وتلقبه **جامعة كامبريدج** في كتبها وأطالسها **بأمير الرحالة المسلمين** .

★★★

(990) ابن البناء المراكشي (654 هـ - 721 هـ) :

هو الشيخ المحقق أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان بن البناء الأزدي المراكشي ، سُمّي بـ (ابن البناء) ؛ لأن أباه كان يعمل بنّاءً ، ولد في مراكش سنة (654 هـ) ، **ومن مؤلفاته** : (حاشية على الكشاف) ، و(منتهى السلوك) (في علم

الأصول) ، و(كليات في المنطق وشرحها) ، و(كليات في العربية) ، و(المقالات) في الحساب ، و(اللوازم العقلية في مدارك العلوم) ، و(الروض المريع في صناعة البديع) .... وغيرها .

قال عنه (فرانسيس كاجوري) : إن ابن البناء المراكشي قدَّم خدمة عظيمة بإيجاده الطرق الرياضية البحتة لإيجاد القيم التقريبية لجذور الأعداد الصمّ ، عاش سبعة وستين عامًا ، وتوفيٌ في مراكش سنة (721 هـ = 1321 م) .

★★★

(991) غروب شمس الأندلس وشروق شمس القسطنطينية :

حدث حادث عجيب ، قبل **سقوط الأندلس** بنحو أربعين سنة ، فقد فُتحت القسطنطينية في سنة (857 هـ = 1453 م) ، فكان غروب شمس الإسلام على أوروبا من ناحية الغرب يزامنه شروق جديد عليها من ناحية الشرق ، حيث استبدل الله بالذين باعوا دينهم وأوطانهم ، وخانوا الله ، وتحالفوا مع ملوك النصارى غيرهم من العثمانيين المجاهدين الفاتحين الأبرار ، وإنها لآية من آيات الله .

★★★

(992) عدد المسلمين بين بلاد الأندلس وولاية واحدة من ولايات أمريكا :

الأمر العجيب في زماننا أن عدد المسلمين في بلاد الأندلس يبلغ الآن حوالي مائة ألف مسلم ، وهو أمر عجيب إذا ما قورن بعدد المسلمين في مدينة دالاس الأمريكية وحدها ، إذ يصل عدد المسلمين فيها إلى أكثر من مائة ألف مسلم ، ولم تكن قد حكمت بالإسلام من قبل ، بينما حكمت الأندلس ثمانية قرون ، وتكون النتيجة هذا العدد القليل ، فياللأسف !

★★★

(993) النصارى كانوا يستخدمون أساليب الاستعمار :

السرُّ في قلة عدد المسلمين في الأندلس ؛ هو أن الاستعمار الإسباني في بلاد الأندلس ، كان استعمارًا استيطانيًا إحلاليًا ؛ ما إن يدخلوا بلدًا إلا قتلوا مَنْ فيها أو

يطردونهم ويهجّرونهم إلى خارج البلاد ، ثم يعيدون اللاجئين من النصارى وفق نظام الإحلال والتبديل .

★★★

(994) فلسطين اليوم أندلس الأمس :

إنّ ما يحدث الآن على أرض فلسطين ، من تهجير واستيطان ، وإبادة جماعية من قتل وطرد وتشريد ، وإصرار اليهود على عدم عودة اللاجئين إلى ديارهم لهو نفس السيناريو الذي تم في الأندلس ، فقد شُرِّدَ الشعب الفلسطيني وأصبح مصيره أوكاد في طيِّ النسيان ، وأخشى ما أخشاه أن ينسى العالم القضية الفلسطينية ، بل ينسى الفلسطينيون أنفسهم قضيتهم ، كما نسيها أهل الأندلس الذين هاجروا إلى المغرب وتونس والجزائر أو غيرها ، فهل يذكر أحد الآن قضية الأندلس وعودتها إلى السيادة الإسلامية كما كانت ؟! .

★★★

(995) لماذا عقد مؤتمر السلام في مدريد 1992 م ؟!

لقد عقد مؤتمر السلام بين الفلسطينيين واليهود في مدريد 1992 م ، وقبلها كانت تعقد هذه المؤتمرات في أوسلو ، ولكنّ لهذا سببًا خفيًا ، فقد كانت شوارع مدريد قبلها بخمسمائة عام في (1492 م) تكتظُّ بالاحتفالات والمهرجانات حيث هزيمة المسلمين وانتصار النصارى الصليبيين ، وكأنهم يريدون أن **يقولوا** : « ها هو التاريخ يعيد نفسه ، ولا داعي للحرب والجدال والمحاورات » .

★★★

ماذا قَدّم مسلمو الأندلس للعالم ؟

(996) الأندلس معبر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا :

كانت الأندلس هي معبر الحضارة الإسلامية الرئيس ، والجسر الأهم في عملية انتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا ، وذلك في شتّى المجالات العلمية ، والفكرية ، والاجتماعية مدة ثمانية قرون ، فقد كانت منبر إشعاع حضاري خلال وجود المسلمين بها ، وحتى أثناء ضعفها السياسي ؛ فقد كانت جامعاتها ، ومكتباتها ، ومدارسها ، وقصورها ، ومصانعها ، وحدائقها ، وعلماؤها ، وأدباؤها محط أنظار الأوروبيين ، وعلى صلات وثيقة بهم .

★★★

(997) المسلمون في الأندلس يقومون برسالة الحضارة فيها :

ما إن استقر المسلمون في إسبانيا حتى تفرَّغوا للعلم ، وانصرفوا إلى العناية بالعلوم والآداب والفنون ، وقد فاقوا في ذلك ما وصل إليه إخوانهم في المشرق من تَقَدُّم ، وابتكروا الجديد والعظيم في كل العلوم ، وهو ما أتاح لأوروبا موردًا عذبًا ظلَّت تنهل منه منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي حتى عصر النهضة الإيطالية في القرن الخامس عشر .

يقول جوستاف لوبون : « ولم يَكَد العرب يُتمّون فتح إسبانيا حتى بدءوا يقومون برسالة الحضارة فيها ؛ فاستطاعوا في أقل من قرن أن يُحْيُوا مَيِّت الأرضين ، ويُعَمّروا خراب المدن ، ويقيموا فخر المباني ، ويُوَطِّدوا وثيق الصلات التجارية بالأمم الأخرى ، ثم شرعوا يتفرَّغون لدراسة العلوم والآداب ، ويُترجمون كتب اليونانيين واللاتينيين ، ويُنشئون الجامعات التي ظَلَّتْ ملجأً للثقافة في أوروبا زمنًا طويلاً » .

★★★

(998) أثر التسامح الديني على أهل الذِّمة :

وقد كان لسياسة التسامح الإسلامي أثرها العظيم في نفوس أهل الذِّمَّة ؛ من اليهود والنصارى ؛ حيث أقبل المستعربون الإسبان على تعلُّم اللغة العربية واستخدامها في حياتهم ، بل فضّلوها على اللاتينية ، كما تتلمذ كثير من اليهود على أساتذتهم العرب .

★★★

(999) نشاط حركة الترجمة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر :

وقد نشطت حركة الترجمة عن العربية نشاطًا كبيرًا ، وخاصة في مدينة **طليطلة** خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، وكانت الترجمة تتمُّ من العربية إلى الإسبانية ، ثَمّ إلى اللاتينية ، أو من العربية إلى اللاتينية مباشرة ، ولم تقتصر الترجمة على مؤلفات العلماء العرب في كل مناحي المعرفة فحسب ، وإنما شملت المؤلفات الإغريقية الكبرى ، التي كانت قد تُرجمت في المشرق قبل ذلك بقرنين ؛ فترجمت بعض مؤلّفات اليونانيين ، **مثل** : كتب جالينوس ، وأبقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، وإقليدس ، وغيرهم .

★★★

(1000) عباقرة الشرق يحققون أعظم المآثر في القرون الوسطى :

يقول سارتون : « حقّق المسلمون - عباقرة الشرق - أعظم المآثر في القرون الوسطى ، فكُتِبَت أعظم المؤلفات قيمة ، وأكثرها أصالة ، وأغزرها مادة باللغة العربية ، وكانت من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر لغة العلم الارتقائية للجنس البشري ، حتى لقد كان ينبغي لأي كائن إذا أراد أن يُلِمّ بثقافة عصره وبأحدث صورها أن يتعلم اللغة العربية . . . وأعتقد أننا لسنا في حاجة إلى أن نبيِّن منجزات المسلمين العلمية في الرياضيات ، والفيزياء ، وعلم الفلك ، والكيمياء ، والنبات ، والطبّ ، والجغرافيا » .

ويقول جوان براند تراند : « إن قرطبة التي فاقت كل حواضر أوروبا مدنية - أثناء القرن العاشر - كانت في الحقيقة محطَّ إعجاب العالم ودهشته ، كمدينة فينسيا في أعين دول البلقان ، وكان السياح القادمون من الشمال يسمعون بما هو أشبه بالخشوع والهيبة عن تلك المدينة ، التي تحوي سبعين مكتبة ، وتسعمائة حمّام عمومي ؛ فإن أدركت الحاجة حُكّام ليون أو النافار أو برشلونة إلى جَرّاح ، أو مهندس ، أو معماري ، أو خائط ثياب ، أو موسيقيٍّ ، فلا يتجهون بمطالبهم إلا إلى قرطبة » .

ويؤكد **المفكر ليوبولدفايس** أثر قرطبة في التدشين لعصر النهضة **قائلًا** : « لسنا نبالغ **إذا قلنا** : إنَّ العصر العلمي الحديث الذي نعيش فيه لم يُدَشَّن في مدن أوروبا ، ولكن في المراكز الإسلامية : في دمشق ، وبغداد ، والقاهرة ، وقرطبة » .

وتقول زيجريد هونكه : « ولم تكن جبال البرانس لتمنع تلك الصلات ، ومن هنا وجدت الحضارة العربية الأندلسية طريقها إلى الغرب . . . وقد حمل مشعل الحضارة العربية عبر الأندلس ألوفٌ من الأسرى الأوروبيين ، عادوا من قرطبة ، وسرقسطة ، وغيرها من مراكز الثقافة الأندلسية ، كما مثّل تجار ليون ، وجنوا ، والبندقية ، ونورمبرج دور الوسيط بين المدن الأوروبية والمدن الأندلسية » .

★★★

الموشحات الأندلسية

المقصود بالموشحات الأندلسية :

هو لون شعري نشأ بالأنِدلس خاصة في أواخر القرن الثالث الهجري ، على يد مقدام بن معافى القبري ، وفيه تبدأ الموشحة بمطلع يتألف في أقل صورة من شطرين يسمى كل منهما (الغصن) ، ويعقب المطلع ما يسمى بـ (الدور) ، ويتكون في أقلّه من ثلاثة أسماط (أشطار) ، ويعقب الدور ما يسمى بـ (القفل) ، وهو يماثل المطلع في عدد الأغصان ونظام القافية ، ويسمى آخر قفل في الموشحة بـ (الخرجة) .



مُقَدَّم بن معافَى القبري ، مبتكر الموشحة :

هو أول من استعمل هذا الفن الشعري ، الذي عاش بين سنتي (225 هـ - 299 هـ) ، وكان أبو بكر في ذلك العصر (الدولة العامرية والحمودية) شيخ الصناعة وإمام الجماعة ، سلك إلى الشعر مسلكًا سهلاً ، **فقالت غرائبه** : مرحبًا وأهلاً ، وكانت صنعة التوشيح التي نهج الأندلسيون طريقتها ، ووضعوا حقيقتها ، غير مرقومة البرود ، ولا منظومة العقود ، فأقام مُقدم منارها ومرساها ومنادها ، فكأنما لم تُسمع بالأندلس إلا منه ، ولا أخذت إلا عنه .

الزجل

المقصود بالزجل :

هو فن من فنون الشعر العامي ، نشأ وازدهر في الأندلس ، ثم انتقل إلى المشرق العربي على خلاف في ذلك بين مؤرخي الأدب ، وهو شكل من أشكال النظم

العربي ، أداته اللغوية هي إحدى اللهجات العربية الدارجة ، وأوزانه مشتقة من أوزان العروض العربي ، وإن تعرضت لتعديلات وتنوعات تتواءم مع الأداء الصوتي للهجات .

★★★

ابن قزمان من أشهر الزَّجالين :

هو أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان ، عاش في عصر المرابطين وتوفي في عصر الموحدين ، ولد في قرطبة (460 هـ) ، وتوفي (554 هـ) ، وُجِد في الأندلس ضربان من الزجل جنبًا إلى جنب : **أولهما** : شعبي خالص جافٍ غليظ يستخدم فيه الشاعر اللغة الدارجة ، وكان يوافق أذواق العوام ، **وثانيهما** : مصقول مهذب مصنوع متكلف ، يستعمل الناس فيه حركات الإعراب التي لا تجري بها ألسنتهم في دارج الحديث ، ولم يبق من النوع الأول شيء .



الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال

المسجد الجامع الكبير بقرطبة :

زار **قرطبة** في أواخر القرن السابع عشر (1102 هـ = 1691 م) الوزير المغربي محمد ابن عبد الوهاب ، ووصف لنا مسجدها الجامع قائلًا : « وهو مسجد كبير جدًا ، في غاية الإتقان وحسن البناء ، ومحرابه الإسلامي باقٍ على حاله لم يتغير ، إلا أنهم جعلوا عليه شباكًا من نحاس ، وطرحوا أمامه صليبًا ، فلم يدخل عليه أحد إلا قبّل ذلك الصليب ، وله صحن كبير تدور حوله أشجار النارنج ، ويقابل موضع المحراب من الصحن منار المسجد ، وهو منار كبير مبني بالحجارة ، وما زال سقف المسجد وأبوابه باقية على حالها لم يحدث فيها شيء ، وقد أحدث النصارى بوسط هذا المسجد مقابلًا لمحرابه قبة كبيرة مربعة مشبكة بشبابيك من نحاس أصفر ، جعلوا داخل هذه القبة صليبًا من صلبانهم ، وكُتُب صلواتهم ، التي يحضرونها مع الموسيقا ، وأبواب هذا المسجد باقية على حالها ، من البناء الأول والنقش بالكتابة العربية ، وهذا المسجد هو أكبر مساجد الدنيا وأعظمها صيتًا » .



أطلال الزهراء (مدينة قرطبة القديمة) :

تشمل الحفريات الأثرية ، التي يقوم بها العلماء الإسبان منذ سنة 1910 م ، منطقة واسعة ، فما كشف إلى الآن من الأطلال الضخمة ، ومن نقوشها ، وزخارفها ، التي مازال بعضها قائمًا في بعض الجدران ، والتي تتمثل بالأخص في مئات القطع الرخامية التي وجدت ، يكفي لتكوين فكرة عامة عن هندسة المدينة الملوكية ، ومناعتها ، وفخامة صروحها .

وقد وجدت بعض العقود والزخارف بين أنقاض المجلس المؤنس بالقصر الخليفي ، وأعيد تركيبها فيما يسميه الأثريون الإسبان (بهو عبد الرحمن الناصر) أو

(بهو السفراء) ، ومن أنفس ما عثر عليه المكتشفون هو تمثال وعل من البرونز الأسمر الدقيق المزخرف ، وهو يحفظ الآن بالمتحف الأركيولوجي بمدينة قرطبة .

★★★

ما تبقى من آثار في مدينة إشبيلية :

ليس في **إشبيلية** من الآثار الإسلامية سوى القليل ، وحتى هذا القليل يكاد يخفى تحت أثواب النصرانية المجددة ، بيد أنه يمتاز في الوقت نفسه بروعته وأهميته الأثرية البالغة ، ويكفي أن تحتفظ إشبيلية بدرتيها الإسلاميتين الفريدتين ، **وهما** : منارة مسجدها الأعظم ، والقصر ذو الطابع الإسلامي الفريد ، ولم تبق من جامع إشبيلية وحدة قائمة بذاتها ، بل أزيل وأقيمت مكانه كنيسة إشبيلية ، التي تعتبر فخامتها وضخامتها ثاني كنيسة في العالم ، ولم يبق اليوم قائمًا منه سوى صحنه القديم ومنارته .

★★★

منارة جامع إشبيلية (لاخيرالدا) "La Giralda" :

هي منارة أو صومعة مسجد إشبيلية ، وهي بروعتها وجمالها تبدو لؤلؤة إشبيلية الأثرية ، وتقع إلى جوار زاوية الكاتدرائية العظمى الشمالية الغربية ، وفي جنوب غربي الصحن ، وقد بنيت في أواخر عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف ، ثم استؤنف بناؤها في عهد ولده الخليفة المنصور ، وقد بنيت بغير أدراج ، يُصعَد إليها في طريق واسعة للدواب والناس والسدنة ، وقد أصبحت هذه المنارة برج الأجراس لكنيسة إشبيلية ، بعد أن كانت منارة مسجدها الجامع ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

★★★

المصادر والمراجع

(1) القرآن الكريم .

(2) كتب الصحاح الستة .

(3) **ابن أبي أصيبعة** : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق : عامر النجار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2001 م .

(4) **ابن أبي زرع** : الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، الرباط ، المغرب ، 1972 م .

(5) **ابن الأثير** : الكامل في التاريخ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

(6) **ابن الخطيب** : أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام (تاريخ إسبانيا الإسلامية) ، تحقيق : إ . ليفي بروفنسال ، دار المكشوف ، بيروت ، 1956 م .

(7) **ابن الخطيب** : الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق : محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 2 ، 1393 هـ = 1973 م .

(8) **ابن الخطيب** ؛ اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، تحقيق : محب الدين الخطيب ، المكتبة السلفية ، القاهرة ، 1347 هـ .

(9) **ابن الفرضي** : تاريخ علماء الأندلس ، تحقيق : إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني ، ط 1 ، 1403 هـ = 1983 م .

(10) **ابن بسام الشنتريني** : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق : إحسان عباس ، الدار المصرية للكتاب .

(11) **ابن حزم** ؛ رسائل ابن حزم ، تحقيق : إحسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1987 م .

(12) **ابن حزم ، وابن سعيد والشقندي** : فضائل الأندلس وأهلها ، تحقيق : د . صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، 1968 م .

(13) **ابن حيان** : المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، تحقيق : د . محمود علي مكي ، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، مصر .

(14) **ابن خاقان** : قلائد العقبان ومحاسن الأعيان ، تحقيق : حسين يوسف خربوش ، مكتبة المنار ، الأردن ، 1409 هـ = 1989 م .
(15) **ابن خاقان** : مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملمح أهل الأندلس ، تحقيق : محمد علي شوابكة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط 1، 1983 م .
(16) **ابن خلدون** : تاريخ ابن خلدون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .
(17) **ابن خِلكان** : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1994 م .
(18) **ابن سعيد المغربي** : المغرب في حلى المغرب ، تحقيق : د . شوقي ضيف ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .
(19) **ابن عذارى** : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق : ج . س . كولان ، وليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان .
(20) **أبو عبيد البكري** : جغرافية الأندلس وأوروبا (من كتاب المسالك والممالك) ، تحقيق : عبد الرحمن الحجي ، بيروت ، 1378 هـ = 1968 م .
(21) **أحمد السعيد سليمان** : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، دار المعارف .
(22) **أحمد هيكل** : الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، دار المعارف .
(23) **إحسان عباس** : تاريخ الأدب الأندلسي (قرطبة) ، دار الثقافة ، بيروت .
(24) **الإدريسي** : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، عالم الكتب ، بيروت ، 1989 م .
(25) **الأزدي** : تاريخ العلماء بالأندلس ، تحقيق : عزت العطار الحسيني ، مطبعة المدني ، القاهرة ، 1408 هـ = 1988 م .
(26) **الحميدي** : جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ، تحقيق : إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، ط 2 ، 1989 م .
(27) **الحميري** : الروض المعطار في خبر الأقطار ، مكتبة لبنان ، ناشرون ، الطبعة الثانية ، 1984 م .

(28) **الحميري** : صفة جزيرة الأندلس ، دار الجيل ، بيروت ، ط 1 .

(29) **الضبي** : أحمد بن يحيى : بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، دار الكتاب العربي .

(30) د . **الطاهر أحمد مكي** : دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، دار المعارف .

(31) **المقري** : أحمد بن محمد التلمساني : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1968 م .

(32) **أنجل جنثالث بالنثيا** : تاريخ الفكر الأندلسي ، نقله إلى العربية : د . حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة العربية .

(33) **أنطونيو هورتز** ، **وبرنارد نبشنت** : الموريسكيون (حياة ومأساة أقلية) ، ترجمة : عبد العال صالح طه .

(34) **بسام العسيلي** : عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) ، دار النفائس ، بيروت .

(35) د . **توفيق الطويل** : قصة الاضطهاد الديني ، دار الفكر العربي .

(36) **جرجي زيدان** : فتح الأندلس ، دار بيروت .

(37) **حسن أحمد محمود** : قيام دولة المرابطين ، دار الفكر العربي .

(38) د . **حسين مؤنس** : أطلس تاريخ الإسلام ، الزهراء للإعلام العربي .

(39) د . **حسين مؤنس** : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، مكتبة مدبولي .

(40) د . **حسين مؤنس** : رحلة الأندلس (حديث الفردوس الموعود) ، الشركة العربية للطباعة والنشر .

(41) د . **حسين مؤنس** : فجر الأندلس ، الشركة العربية للطباعة والنشر .

(42) د . **حسين مؤنس** : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، هيئة الكتاب .

(43) د. **حسين مؤنس** : موسوعة تاريخ الأندلس ، مكتبة الثقافة الدينية .

(44) د . **حنيفي هلايلي** : التاريخ الأندلسي الموريسكي ، دار الهدى ، الجزائر .

(45) د . **خالد الصوفي** : تاريخ العرب في الأندلس ، منشورات الجامعة الليبية .

(46) ر . **دوزي** : المسلمون في الأندلس ، ترجمة : د . حسن حبشي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(47) ر . **دوزي** : تاريخ مسلمي إسبانيا (الحروب الأهلية) ، ترجمة : حسن حبشي .

(48) د . **راغب السرجاني** : قصة الأندلس ، مؤسسة اقرأ .

(49) د . **راغب السرجاني** : ماذا قدم المسلمون للعالم ؟ ، مؤسسة اقرأ .

(50) د . **رأفت الشيخ** : تاريخ العرب الحديث وجهاد الأندلسيين ، دار الثقافة للطباعة والنشر .

(51) **سعدون عباس نصر الله** : دولة المرابطين في المغرب والأندلس ، دار النهضة العربية ، لبنان .

(52) **شكيب أرسلان** : خلاصة تاريخ الأندلس ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .

(53) **شكيب أرسلان** : غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطالية وجزائر البحر المتوسط ، المكتبة العصرية ، صيدا ، لبنان ، ط 1 ، 2008 م .

(54) **شوقي أبو خليل** : الأرك ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، 1418 هـ = 1998 م .

(55) **شوقي أبو خليل** : الزلاقة ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، 1418 هـ = 1998 م .

(56) **شوقي أبو خليل** : العقاب ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، 1418 هـ = 1998 م .

(57) **شوقي أبو خليل** : بلاط الشهداء ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، 1418 هـ = 1998 م .

(58) **شوقي أبو خليل** : فتح الأندلس ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، 1418 هـ = 1998 م .

(59) **شوقي أبو خليل** : مصرع غرناطة ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، 1418 هـ = 1998 م .

(60) د . **طارق السويدان** : الأندلس التاريخ المصور ، شركة الإبداع الفني : الكويت ، ط 1 ، 2005 م .

(61) **عادل سعيد بشتاوي** : الأندلسيون المواركة .

(62) د . **عبادة كحيلة** : تاريخ النصارى في الأندلس .

(63) **عبد الحق حامد** : (طارق) أو فاتح الأندلس ، ترجمه عن التركية : إبراهيم صبري .
(64) د . **عبد الحميد العبادي وآخرون** : الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها ، نهضة مصر .
(65) د . **عبد الرحمن الحجي** : التاريخ الأندلسي ، دار القلم ، دمشق ، ط 2 ، 1987 م .
(66) د . **عبد الرحمن علي الحجي** : أندلسيات (المجموعة الثانية) ، دار الإرشاد .
(67) د . **عبد الرحمن علي الحجي** : محاكم التفتيش الغاشمة وأساليبها ، المنار الإسلامية ، الكويت .
(68) **عبد الكريم التواني** : مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس ، مكتبة الرشاد - الدار البيضاء .
(69) **عبد الله محمد الزيات** : رثاء المدن في الشعر الأندلسي ، منشورات جامعة قاريونس .
(70) د . **عبد المحسن طه رمضان** : تاريخ حركة المقاومة الإسبانية ضد المسلمين في الأندلس ، ملتزم للطبع والنشر .
(71) **عبد الواحد المراكشي** : وثائق المرابطين والموحدين ، تحقيق : د . حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية .
(72) **علي إسلام باشا** : إسبانيا والأندلس .
(73) **علي الجارم** : العرب في إسبانيا ، دار المعارف ، مصر .
(74) **علي الجارم** : هاتف من الأندلس ، دار المعارف .
(75) د . **علي الصلابي** : دولة المرابطين ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، القاهرة ، ط 1 ، 1424 هـ = 2003 م .
(76) د . **علي الصلابي** : دولة الموحدين ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، القاهرة ، الطبعة الأولى 1424 هـ = 2003 م .

(77) **علي بن هذيل الأندلسي** : تحفة الأندلس وشعار سكان الأندلس ، تحقيق : د . عبد الإله أحمد نبهان ، د . محمد فاتح صالح ، مركز زايد للتراث والتاريخ .
(78) د . **علي حبيبة** : مع المسلمين في الأندلس ، مكتبة الشباب .
(79) **علي مظهر** : محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال وغيرهما ، المكتبة العلمية .
(80) د . **فيليب حتى** : العرب تاريخ موجز ، دار العلم للملايين ، بيروت .
(81) **قاسم علي سعد** : محدث الأندلس (ابن بشكوال) ، دار البشائر الإسلامية .
(82) **لطفي عبد البديع** : الإسلام في إسبانيا ، مكتبة النهضة المصرية .
(83) **ليث سعود جاسم** : ابن عبد البر الأندلسي وجهوده في التاريخ ، دار الوفاء للطبع ، المنصورة .
(84) **ليفي بروفنسال** : الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة : السيد محمود عبد العزيز ، ومحمد صلاح الدين حلمي ، مكتبة نهضة مصر .
(85) **ليفي بروفنسال** : الحضارة العربية في إسبانيا ، ترجمة : د . الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف .
(86) **ليفي بروفنسال** : تاريخ إسبانيا الإسلامية ، ترجمة : علي عبد الرؤوف وآخرين ، المجلس الأعلى للثقافة ، 2000 م .
(87) **ليفي بروفنسال** : مذكرات الأمير عبد الله .
(88) د . **محمد أحمد أبو الفضل** : حول السفارات الأندلسية إلى دول أوروبا ، جامعة الإمارات العربية المتحدة .
(89) د . **محمد بحر عبد المجيد** : اليهود في الأندلس ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر .
(90) **محمد سهيل طقوش** : تاريخ المسلمين في الأندلس ، دار النفائس للطباعة والنشر ، بيروت ، ط 2 ، 1429 هـ = 2008 م .
(91) **محمد عبد الله عنان** : الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ، مكتبة الخانجي بالقاهرة .

(92) **محمد عبد الله عنان** : تراجم إسلامية (شرقية وغربية) ، مكتبة الخانجي بالقاهرة .

(93) **محمد عبد الله عنان** : دولة الإسلام في الأندلس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 2001 م .

(94) **محمد عبد الله عنان** : مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ، مؤسسة الخانجي بالقاهرة .

(95) **محمد لبيب** : رحلة الأندلس ، مطبعة مصر .

(96) **د . محمود عبد الفتاح شرف الدين** : تاريخ السيادة الإسلامية على الأندلس من الفتح إلى سقوط غرناطة ، مكتبة الآداب .

(97) **د . محمود علي مكي** : مدريد العربية ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر .

(98) **مرثيديس غارثيا أرينال** : شتات أهل الأندلس ، ترجمة : محمد فكري عبد السميع ، المجلس الأعلى للثقافة .

(99) **د . مصطفى عبد الواحد** : كيف ضاعت الأندلس ؟ ، دار السلام .

(100) **نصّان جديدان** : تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط ، تحقيق : د . أحمد مختار العبادي ، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد .

(101) **واشنطن إيرقنغ** : أخبار سقوط غرناطة ، ترجمة : هلاني يحيى نصري ، مؤسسة الانتشار العربي .

(102) **يوسف أشباخ** : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة : محمد عبد الله عنان ، لجنة التأليف والترجمة والنشر .

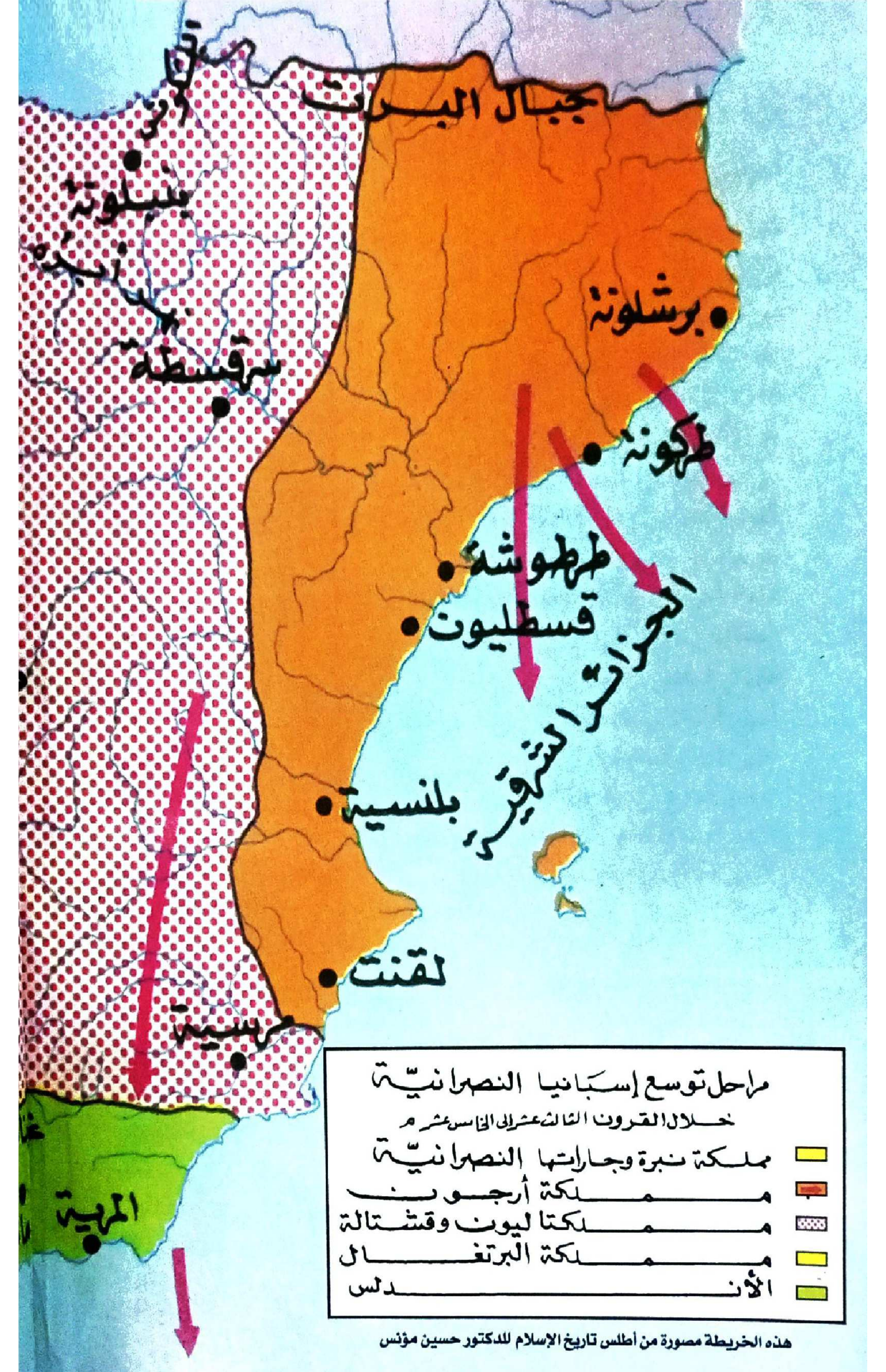


فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

الموضوع **الصفحة**

القطان للمطبوعات الفنية ت: ٢٣١٣١٨١٥ - ٢٣١٣١٨٢٤



هذه الخريطة مصورة من أطلس تاريخ الإسلام للدكتور حسين مؤنس

جليقية
شنت ياقب
أشتوريس
ليون
مملكة ليون
نهر دويرة
قلمرية
طليطلة
نهر تاجة
الاشبونة
الوادي آنة
قرطبة
الوادي الكبير
غرناطة
إشبيلية
ولبة
مالقة
شنتمرية الغرب
قادش
جبل طارق



هذه الخريطة مصورة من أطل



تاريخ الإسلام للدكتور حسين مؤنس


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



من منشورات دار الفضيلة

